

مايكل غولد

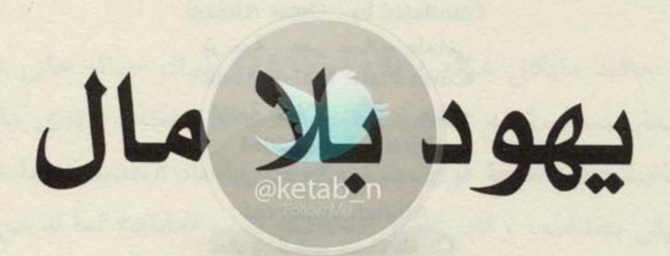
يهود بلا مال

ترجمة: عمر صالح علماني

ORGAN-GRINDER - EAST SIDE, N.Y. CITY 674-14

طوى
للثقافة والنشر والإعلام

مايكل غولد



يهود بلا مال

رواية

ترجمة : عمر صالح علماني



للثقافة والنشر والإعلام

مايكل غولد

يهود بلا مال

Book: Jews Without Money

الكتاب : يهود بلا مال

Author: Michael Gold

المؤلف: مايكل غولد

Translated by : Omar Almani

ترجمة : عمر صالح علماني

Cover Plate: Mahdi Abdu

لوحة الغلاف: مهدي عبده

First Edition: 2014

الطبعة الأولى ٢٠١٤



للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Email: tuwa@london.com

Tel : 00966505481425 - 00966556687678

التوزيع : منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Al-Kamel Verlag

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تقديم

حافظ مايكل غولد (١٨٩٣-١٩٦٧) طوال حياته على علاقة حميمة منسجمة مع تطلعات فقراء العمال، فكان يرتدي ملابس فضفاضة وغير نظيفة فوق جسد متسخ، واعتاد الحديث بلغة خشنة والعيش بتقشف. وكان يُفضّل مخاطبته باسم «مايك» لما له من وقع بروليتاري. ومع مرور الوقت ازداد غولد ارتباطاً بصورة الشاعر الأمريكي والت ويتمان. وهو يحظى اليوم بإعجاب وتقدير أكبر مما عرفه في حياته.

يصعب الفصل، في كتابات غولد كلها، بين السيرة الذاتية والمُتخيل، ولهذا من الأفضل تصنيف كتاب «يهود بلا مال» كرواية نصف متخيلة. فالرواية مبنية في معظم أحداثها على تجارب من طفولة الكاتب، وتعدّ واحدة من أهم المواد التي توثق الحياة الأسرية في الجزء الشرقي الأسفل من مدينة نيويورك، المتعارف عليه باسم لوور إيست سايد، في مطلع القرن العشرين. ولكن «يهود بلا مال» تقدم في الوقت نفسه وصفاً فعالاً ومؤثراً وحيوياً لمعاناة الطبقة العاملة المعدومة. وتوظف الرواية مفردات الشارع العامية والصور الجارحة لتكون صرخة من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية لفقراء المجتمع الأمريكي.

المؤلف

ولد مايكل غولد عام ١٨٩٣ في الإيست سايد، في حي مانهاتن، وأُعطي عند ولادته اسم إتزوك إسحق غارنيش. وعند إدخاله المدرسة الابتدائية جرى تعديل اسمه ليصبح إيرفينغ ثم إيروين، وكان الغرض من ذلك التعديل هو التخفيف من يهودية الاسم. ومنذ العام ١٩٢١ تبنى الكاتب بصورة نهائية اسمه الأدبي «مايكل غولد»، إما تيمنا باسم ناشط ثوري حمل الاسم نفسه، أو على الأرجح في محاولة منه لتجنب حملة الاعتقالات التي شنتها الحكومة الأمريكية ضد المنظمات الثورية والمنتسبين إليها فيما عُرف بظاهرة الرعب الأحمر التي سادت المشهد السياسي الأمريكي عقب الحرب العالمية الأولى. وذلك لما أحدثته الثورة الروسية عام ١٩١٧، وما تلاها من صعود الحركات الاشتراكية العالمية، ومن انقسام في المجتمع الأمريكي خلال عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن المنصرم.

هاجر والدا مايكل غولد، حاييم غارنيش وغيتل شوارتز غارنيش، إلى الإيست سايد قادمين من رومانيا. تعلم الوالد صنع حمالات سراويل الرجال وافتتح مشغلاً، ولكنه سرعان ما أخفق واضطر إلى العمل كبائع متجول في الشوارع من أجل تأمين قوت أفراد أسرته الأربعة. لم ينس غولد قطّ الإهانة التي كان يتعرض لها أبوه، وفقد الثقة تماماً بالنظام الرأسمالي.

ترك غولد المدرسة في عمر مبكر، مثلما كان يفعل كثير من الأطفال الفقراء في تلك الحقبة. وعند بلوغه الثانية عشرة من عمره حصل على وظيفة حارس ليلي بدوام كامل في إحدى شركات نقل

البضائع. وعمل أيضاً في مشغل خياطة، وموظف شحن، وصبي متعدد المهام في إحدى المطابع. ثم بدأ دراسة الصحافة ليلاً في جامعة نيويورك عام ١٩١٢، والتحق بعد ذلك بجامعة هارفارد عام ١٩١٤. في ذلك العام وقف غولد متفرجاً على مظاهرة لرجال ونساء عاطلين عن العمل في ساحة يونيون في مانهاتن، و تلقى فجأة ضربات هراوة من رجال الشرطة. (حادثة تذكرنا بمشهد من فيلم شارلي شابلن «الأزمنة الحديثة»، حين يمر شارلوت المتشرد البائس مصادفة من شارع يشهد مواجهة بين رجال الشرطة ومتظاهرين، فيُعتقل شابلن ويتهم بأنه من يقود التظاهرة). لقد تحول غولد منذ تلك اللحظة، وحتى نهاية حياته، إلى مناضل راديكالي صارم.

بدأ غولد عام ١٩١٧ نشر مقالاته في جريدة «ذي ماسز»، وكان عرابه في تلك الجريدة المفكر ماكس إيستمان. ثم انضم إلى الحزب الشيوعي بعد انتقاله إلى حي غرينويتش فيلدج، حيث انكب على كتابة قصائد وقصص ومقالات سياسية. وعندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧ معلنة التجنيد الإجباري لاذ غولد بالفرار إلى المكسيك تفادياً لتجنيده. وعمل هناك في مزرعة لتربية المواشي وفي حقول النفط إلى أن انتهت الحرب وعاد مجدداً إلى نيويورك. فعمل محرراً في جريدة «ذي ليبريتور» عام ١٩٢١ ثم انتقل بعدها إلى سان فرانسيسكو.

انحصرت اهتمامات غولد الأدبية في بداية عقد العشرينيات بكتابة النصوص المسرحية. كان من بين أصدقائه رواد الحداثة الروائي ثيودور دريزر، والكاتب المسرحي يوجين أونيل، والكاتبة سوزان غلادسبيل. قدمت فرقة يوجين أونيل في غرينويتش فيلدج

بعض أعمال غولد المسرحية، ولكنها حظيت بنجاح محدود. وكان صديقاً كذلك لجون ريد، صاحب كتاب «عشرة أيام هزت العالم»، أكثر الشيوعيين الأمريكيين شهرة عالمية، وهو الأمريكي الوحيد المدفون في الكرملين. وعلى عكس الكثير من أصدقائه، لم يكن غولد منظراً ثورياً. لم يوجه جهوده من أجل فهم كارل ماركس وأفكاره، بل انصب اهتمامه على احتضان وتأييد الأفكار الثورية الشعبية التي عبَّر عنها بأشد الوسائل تأجيجاً. كان التزامه بالقضايا الثورية نابع من القلب وليس العقل.

ذهب غولد عام ١٩٢٥ إلى الاتحاد السوفيتي لدراسة المسرح وكتابة المزيد من النصوص المسرحية. ولدى عودته إلى الولايات المتحدة أسس مجموعة المسرحيين الجدد التي عملت على تقديم باكورة أعمال جون دوس باسوس وكتاب يساريين آخريين.

وعلى امتداد أكثر من عشرة أعوام عمل غولد على كتابة رواية استوحاها من فترة طفولته وشبابه. وأخيراً، في العام ١٩٣٠، عندما كانت تعصف بالبلاد أشد فترات الكساد العظيم صعوبة، صدرت تلك الرواية بعنوان «يهود بلا مال» بعد إلحاح من الناقد الاجتماعي المشهور هـ. ل. منكين. وقد حققت الرواية نجاحاً فورياً وباهراً، حيث صدرت إحدى عشرة طبعة متتالية منها خلال السنة الأولى. وبهذا استحق غولد، وبكل جدارة، الحصول على لقب «مكسيم غوركي الأمريكي». لم يتوقف توالي طبعات الكتاب عن الصدور منذ الطبعة الأولى. وقد حرّكت رواية «يهود بلا مال» الوجدان الجمعي الأمريكي، واعتُبرت تحفة فنية ونموذجاً يحتذى في حركة الأدب البروليتاري، وهي حركة تدعو إلى أدب يكتبه العمال من

أجل العمال. حتى إن الكاتب البرازيلي العالمي جورجي آمادو قال إن جيله من الكتّاب تتلمذ على «يهود بلا مال» وتأثر بها.

حظي غولد بإطراء كثير من الكتاب الأمريكيين مثل إدموند ويلسون وسنكلير لويس، وحصل على منصب معاون رئيس تحرير جريدة «ذي نيو ماسز». ولكن سرعان ما وِجد ابن شوارع الإيست سايد المشاكس نفسه في مشاحنات ومواجهات طويلة مع كتاب أمريكيين كبار آخرين من أمثال إرنست همنغواي، وأركيبولد ماكلايش، وروبنسون جفرس، وشريود أندرسون، وثورنتون وايلدر. فقد كان غولد على قناعة بأن أولئك الكتاب الليبراليين التقليديين ما هم إلا أشخاص يرضون بالتسويات وأنصاف الحلول وأنهم مجرد أدوات بيد الرأسمالية الاستغلالية.

بدأ غولد النشر في الجريدة الاشتراكية الأمريكية «ذي ديلي ووركر» عام ١٩٣٣، وكانت حينها واسعة الانتشار. صدر له عام ١٩٤١ كتاب «الخاوون»، وهاجم فيه الكتّاب الذين تخلوا عن مواقفهم الاشتراكية عقب توقيع الاتحاد السوفيتي معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا النازية عام ١٩٣٩. لقد حافظ غولد على ولائه لأفكاره طوال حياته. وعندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١ ذهب غولد بعيداً في عزلته. شرع في العديد من المشاريع الأدبية ولكنه لم ينه سوى جزء بسيط منها.

في عام ١٩٥٠ ظهرت في الإعلام والكونغرس الأمريكيين حملة الماكارثية لملاحقة الشخصيات والقوى المعارضة والتي عرفت بحملة «مطاردة الساحرات» فانتقل غولد للعيش في فرنسا مع زوجته وابنيهما. (طُورد شارلي شابلن أيضاً آنذاك واضطر إلى

المغادرة إلى بريطانيا) وعاد كاتبنا إلى الفقر من جديد. ولكنه رجع إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥٧ واستقر في سان فرانسيسكو حتى وفاته عام ١٩٦٧.

الرواية

بطل رواية «يهود بلا مال» يدعى مايك أو مايكي، ولد في أمريكا ابناً لأسرة مهاجرين، وعاش في شارع كريستي في لوور إيست سايد بمانهاتن بداية القرن العشرين. وكان عضواً في عصابة صبية تضم: مايكي، نيجر، جاك، جوي، آبي، إزي، هاري، ستينكر، بيستيبل. يقومون معاً بسرقة الفواكه من بائعي العربات، ويقذفون القطط الميتة على أعدائهم وكأنها صواريخ، ويستمتعون بالسباحة في الصيف في نهر إيست ريفر القذر.

أفضل أصدقاء مايكي هو المتمرد نيجر، أي الزنجي، ويدعى كذلك بسبب لون بشرته الداكن. إنه صبي يهودي شجاع، ولكنه تحول في النهاية إلى أزعر نتيجة الفقر والظلم. لا يحاول غولد في روايته تجنب استعمال الألفاظ المهينة والساخرة التي يستعملها سكان الأحياء الفقيرة لتمييز الاختلافات العرقية والإثنية. الإيست سايد بالنسبة لغولد ليس أرض الانصهار في بوتقة واحدة ولا لوحة فسيفسائية متعددة الأعراق، بل هو أرض معركة تدور رحاها بين المجموعات العرقية والإثنية المختلفة. يرى أبناء المهاجرين من أوروبا الشرقية تلك المدينة كأنها الغرب الأمريكي الجامح، مع استبدال الهنود بعصابات الأيرلنديين والإيطاليين الذين يجب مقارعهم.

يتضمن طاقم شخصيات الرواية المرسومة بفنية مبهرة أناساً من مختلف الفئات والأوساط: قوادون وعاهرات، ملاكمون ومدمنو مخدرات وشاذون جنسياً، نصابون ورجال شرطة أفظاظ، حاخامات وأساتذة لغة عبرية قساة، زعران وسياسيون بلا ضمير، أطباء طيبون وآخرون جشعون، مؤجرو بيوت قساة ويهود ويهوديات فقراء معدمون.

يضع غولد موضوع الجنس في صدر المشهد الذي يرسمه لعالم البؤس المغلق ذاك، إنه تجارة واسعة الانتشار. يحدق بالأطفال خطر الشاذين جنسياً، تُستغل النساء. الاغتصاب الجماعي والدعارة بالعنوة هي مظاهر رائجة. رجال يزنون مع العاهرات على مرأى من الصبيان الصغار. وتتعرض العاملات للمضايقات الجنسية على يد أصحاب المعامل والمشرفين.

كان الفناء الخلفي لعمارة مايكي في ما مضى مقبرة صغيرة، وقد رُصفت أرضية الفناء الآن بألواح قبورها التي تعود إلى مئة عام. ينبش الأولاد قبور أوائل المستوطنين في مدينة نيويورك ويجمعون العظام، ويستنبطون حكايات خيالية عن تلك «الآثار الأمريكية». رسالة غولد هي أن نيويورك ملك للجيل الجديد من الأحياء الذين لا يحترمون الماضي وليسوا بحاجة إليه.

تقدم الرواية وصفاً دقيقاً لحياة مايكي من عمر الخامسة وحتى الخامسة عشرة. إنه يعيش في شقة بائسة مع أمه كاتي، وهي مهاجرة من هنغاريا، ووالده هيرمان، مهاجر روماني، وأخته الصغيرة إستر، وأخ رضيع غير مسمى يولد في نهاية القصة.

مايكي صبي متفوق في المدرسة على الرغم من تعنت بعض

المعلمين وازدحام صفوف الدراسة. وهو يكره دروس اللغة العبرية التي يُفرض عليه حضورها كل مساء، لأن المعلم جاهل وتفوح منه روائح كريهة، إنها دروس تافهة بالنسبة لمايكي الذي لا يفهم معاني الكلمات العبرية التي ينشدها.

يتسكع مع أفراد عصابته في شارع كريستي ويخوضون المغامرات والمجازفات، خاصة عندما يغادرون حيهم ويتوغلون في أراض أجنبية مثل حي إيطاليا الصغرى.

نرى من خلال عيني مايكي تردي أحوال عائلته. فأبوه هيرمان يعمل نقاشاً أو دهان بيوت. وكان قد افتتح، بُعيد وصوله إلى أمريكا، مشغلاً مع ابن خاله الذي احتال عليه وأخرجه من العمل. اختفى ابن الخال وبقي هيرمان مهووساً بتلك الخيانة. لم يستطع افتتاح مشغل آخر لعدم تمكنه من جمع الثلاثمائة دولار اللازمة لذلك.

يرزح هيرمان تحت المرض بسبب روائح الطلاء، فرئتاه ومعدته مشبعة بأبخرة الرصاص. تجمع هيرمان ومايكي علاقة جيدة. الأب فخور بذكاء ابنه ويستمتع بإخباره عن المغامرات التي أوصلته إلى أمريكا. وهو يأمل في أن يصبح مايكي طبيباً، ولكن الفقراء لا يستطيعون إرسال أولادهم إلى كلية الطب.

توقف هيرمان عن العمل طيلة عام كامل بعد سقوطه عن السقالة وكسر قدميه. وحين عاد إلى العمل اكتشف أنه مصاب برهاب من السقالة، وبما أنه لا يملك مهارات أخرى بقي عاطلاً عن العمل. كان هيرمان مؤمناً بالحلم الأمريكي المتمثل بالرفاه والسعادة للجميع. ولكن الحادث حطم آماله واهتزت ثقته بنفسه،

وعرف أيضاً أن ابنه لن يستطيع تجنب مطحنة الفقر تلك.

صارت الأم الشجاعة والمحبة تعيل العائلة، حصلت على عمل في أحد المطاعم بينما كان زوجها مقعداً. واستطاعت التعامل مع مالك البيت الكريه حين لم يعد لديهم ما يكفي لتسديد أجرة المسكن. صار مايكي يبيع الجرائد في الشارع لإعانة عائلته. ثم وقعت أسوأ الكوارث التي يمكن أن تصيب أية عائلة: موت أحد الأبناء.

تُشرف أخت مايكي الصغيرة على تدبير شؤون المنزل حين تخرج والدتها إلى العمل في المطعم. وفي إحدى أمسيات الشتاء المثلجة تخرج الفتاة للبحث عن حطب للموقد، فتصدمها بغتة عربة شحن. تسقط بين الحصانين، تدهسها العجلات الثقيلة، وتموت في المستشفى. تغرق العائلة في الهم والغم، ويخمد الأمل في انقضاء المصائب. يعصف الأسى بكاتي وتزداد تعلقاً بمايكي وأخيه الصغير. وهيرمان الذي وهنت عزيمته أضحى بائع عربة متجولاً غير قادر على تأمين قوت عائلته من بيع الموز. مع بلوغ مايكي الثانية عشرة من عمره يضطر إلى ترك المدرسة والذهاب إلى العمل في أحد المصانع حيث بيئة العمل قاسية.

يصور مايكل غولد في «يهود بلا مال» القوة التدميرية للفقر. الحياة في الأحياء الفقيرة تشبه الحياة في الأدغال. يرزح السكان تحت وطأة ظروف معيشية متدنية، حيث تنتشر البطالة والممارسات الجائرة أمام عدم اكتراث شرائح واسعة من المجتمع. يسعى غولد إلى إظهار الآثار السلبية التي يخلفها تفشي الرأسمالية غير المنظَّمة والسلطة الأبوية على الطبقة الكادحة، ويتجسد ذلك في شخصية

مؤجر البيوت الجشع الذي يدرك مدى وخامة الدعارة، ولكنه يفضل مع ذلك تأجير الشقق لعاهرات لأنه يعود عليه بإيراد يزيد ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما يجنيه إذا ما أجر الشقة لعائلة. غولد على يقين بأن أمريكا ثرية ومتخمة لأنها غول يقتات على بؤس ملايين المهاجرين.

ينتقد غولد المؤسسة الدينية بشدة، ويشكك في نجاعة التمائم والأدعية. لا شك أن الرب لم يخلق البق ولا جميع الأوبئة المستفحلة في البشرية. مايكي غير قادر على إدراك كيف يمكن للرب أن يترك حصان عربة لطيفا وضامرا يموت على قارعة الطريق. غالبية الشخصيات المؤمنة في «يهود بلا مال» هم من المنافقين. حتى الحاخامات الذين يعيشون كالأباطرة لا يتورعون عن استغلال رعيتهم وخيانتها.

وعلى الرغم من أن الرواية قد صدرت في العام ١٩٣٠، حين كانت الحركة الصهيونية في بداياتها، إلا أن المؤلف يكشف بصورة ساطعة ومفصلة كيف يعمد الزعماء الصيهيونيون، من أمثال باروتش غولدفارب وزكريا كوهين إلى استغلال فقراء اليهود في الانتخابات الأمريكية وتقديم الوعود لهم بالمساعدة في سبيل مصالحهم السياسية، ولكنهم يقدمون الوعود ببساطة ثم ينسونها بالبساطة نفسها.

ويبدي غولد نقمته على السلطة التي تُحوّل مرتكبي الجنح التافهة إلى مجرمين قساة. فالصبي الذي تسبب بجرح أبيه أثناء ثنيه عن ضرب أمه يُرسل إلى الإصلاحية لتقوم الدولة «بإصلاحه». فتعلمه بإتقان كيف يصبح مجرماً، حيث يُجلد بوحشية، ويفقأ إبزيم الحزام إحدى عينيه. فيعود الصبي إلى المجتمع مشبعاً بالحقد

ويصير مجرماً قاسياً. إن أكثر من يمقتهم غولد هم الأثرياء الجدد، سواء أكانوا يهوداً أم مسيحيين. ويسبغ عليهم غولد صفات الفظاظة والبذاءة الفاحشة والإفراط في حب الذات.

يحرص غولد على تمجيد الأم المعطاء. إنها حصن العائلة. في عهدتها مقاليد إدارة المنزل، وعادة ما تفوز في النزاعات مع زوجها. إحدى الأمهات التي يأتي غولد على ذكرها في الرواية تعيش في قبو خانق برطوبته وتقتات على الخبز والشاي، ولكنها تعمل وتشقى من أجل أن يتابع ابنها تحصيله في كلية الطب لتكون فخورة به. يحصل الابن على شهادته وتموت الأم في بؤسها. فيتساءل ابنها الطبيب هل يستحق الأمر تلك الخسارة؟ وحين يقال له إنها تشعر بالفخر به في قبرها، يتساءل عما إذا كان بإمكان الإنسان الشعور بالفخر في القبر؟

أحد المواضيع الأساسية التي تطرحها «يهود بلا مال» هي حاجة العمال إلى تأسيس نقابات من أجل رفع مستوى معيشة الجماعة المهنية كلها. والحل النهائي المعلن على الصفحة الأخيرة من الرواية يكمن في الاشتراكية.

تنتهج الرواية المذهب الطبيعي في السرد، وهي ذات أهمية جمالية لا يستهان بها. وقد حظيت هذه الرواية، خلافاً لأعمال غولد الأخرى (شعر، مسرحيات، كتابات صحافية)، بمكانة دائمة في الأدب الأمريكي. أحداثها مستمدة من الصراعات والنزاعات بين الأجيال والثقافات ومن المآسي العائلية التي ما زالت تستشري بين الطبقات الفقيرة في المناطق الحضرية.

تبرز الحداثة في «رواية يهود بلا مال» من خلال استعمال

مفردات الشارع المتداولة، بطريقة تشبه استعمال جيمس جويس لهجة أهالي دبلن في روايته «صورة الفنان في شبابه». يتّسم أسلوب غولد بالكثافته والسخرية اللاذعة، إنه أسلوب صارم ومتين، يصل إلينا كوقع صدى شوارع الإيست سايد المزدحمة والصاخبة. ويتّبع أسلوباً صحافياً. يستعين بالجمل القصيرة كضربات ملاكم. الرواية غنية بالصور، حرفية واقعية كانت أم مجازية. إنها صرخة تمرد ضد السلطة وقواعد السلوك المهذبة المنافقة.

قد تبدو الحبكة مفككة وبناء الرواية غير منتظم، لأن غولد يشمر عن ساعديه و«يلتقط صوراً» للحي الذي أمضى فيه طفولته. حيث عاصر صراعات الاثنيات المتنوعة في الإيست سايد: عصابة الأولاد التي تجتمع للدفاع عن نفسها في الطرقات، الأخوَّة التي تجمع ربّات البيوت للتعاون والصمود في مواجهة الجور، وعمال المصانع الذين يقارعون أرباب عملهم، والمتدينون اليهود من الطراز القديم الذين يناضلون عبثاً من أجل الحفاظ على قيم وثقافة أكل عليها الزمان وشرب.

يهود بلا مال

الرواية

الفصل الأول

خمسون سنتاً في الليلة

١

لا يمكنني نسيان شارع الإيست سايد، المكان الذي أمضيت فيه طفولتي.

يقع شارعنا على بعد خطوة من شارع بويري الشهير. إنه مجموعة بنايات متجاورة ممتلئة بالسلالم، وأغطية الأسرَّة، والوجوه.

دائماً تلك الوجوه تطلُّ من نوافذ المنازل. لم يخذلها الشارع قطُّ. كان الشارع إثارة هائلة، لا ينام أبداً. يزمجر كالبحر ويتفجر كالألعاب النارية.

الناس تتدافع وتتجادل في الشارع. جيوش من الباعة المتجولين يدفعون عرباتهم صائحين. نساء يصرخن. كلاب تنبح وتتجمع، وأطفال يبكون.

ببغاء بغيض يطلق الشتائم. أطفال بثياب بالية يلعبون تحت أحصنة العربات. ربات منازل بدينات يطلقن الشتائم مع كل خطوة. شحاذ يغني.

في مرآب العربات يستلقي الحوذيون على المقاعد. ويتجرعون كؤوساً كبيرة من البيرة ويضجون بالضحك.

قوادون ومقامرون، سكيرون وسياسيون تافهون، رياضيون مزيفون وحمالو موانئ. جميع هؤلاء هم سكان الإيست سايد. يدخلون ويخرجون في مواكب لا آخر لها من أبواب حانة جاك وولف القشيَّة.

عنزة صاحب الحانة، ممددة على الرصيف تلتهم جريدة الشرطة الرسمية.

أمهات الإيست سايد يدفعن بصدورهن الضخمة عربات أطفالهن، ويثرثرن. عربات وعربات تمر محدثة ضجة. سمكري يضرب قطعة نحاسية بمطرقته.

زوابع من الغبار وقصاصات الصحف ترتفع في الهواء. العاهرات يقهقهن. يمرُّ نبي، إنه يهودي بلحية بيضاء يبيع ملابس قديمة. الأطفال يرقصون حول صندوق الموسيقى. متشردان يتضاربان.

إثارة، قذارة، مشاجرات، فوضى. ضجيج شارعي يعوي كانفجارات الكرنفال أو كالكارثة. الضجيج يدوّي دائماً في مسمعي، أسمعه حتى عندما أكون نائماً. إني أسمعه الآن.

٢

في ذلك الوقت، كان الإيست سايد منطقة بيوت الدعارة في نيويورك وسوقاً ضخمة للـ ٦٠٦[1] تحت إدارة تاماني هول.

---

(١) ٦٠٦: يدعى أيضاً سالفرزان أو أرسفينامين وهو عقار لمعالجة مرض الزهري.

هرب اليهود من المذابح الأوربية حاملين معهم صلواتهم وطقوسهم الدينية، هربوا من مصر جديدة إلى أرض موعودة جديدة. ولكنهم وجدوا بانتظارهم مصانع الاستغلال وبيوت الدعارة وتاماني هول.

هناك مئات العاهرات في شارعي. يشغلن الدكاكين الفارغة ويملأن عدة طوابق في جميع البنايات. كان المتدينون من اليهود يكرهون ذلك العمل، ولكنهم هنا مجرد فقراء أجانب ليس باستطاعتهم عمل أي شيء. كانوا يهزون أكتافهم متمتمين: «هذه هي أمريكا» ويحاولون أن يعيشوا. يحاولون إغماض عيونهم. أما نحن الأطفال فلم نغمض عيوننا، كنا نرى ونتعلم.

في الأيام المشمسة، تجلس المومسات على مقاعد على طول الرصيف، يتمددن بتراخ بينما يصطدم العابرون بسيقانهن الممتلئة. كُنَّ يثرثرن ويغردن كمجموعة ببغاوات. بعضهن كن يحكن شالات وجوارب بالسنارة، أخريات يدندن لحناً، وغيرهن يقضمن بذور دوار الشمس ويبصقن أكواماً من القشور.

الفتيات يغمزن بعيونهن، ويمزحن، ويقمن بإيماءات شهوانية للذكور المارين في الشارع، يشددنهم من أطراف ملابسهم، ويلاطفنهم بكلمات معسولة ومزيفة. كن يُروِّجن لبضاعتهن كالباعة المتجولين. في السنة الخامسة من عمري كنت أعرف ماذا يبعن.

لا يلبسنَّ شيئاً تحت الكيمونات المزركشة برسوم أزهار. وبين حين وآخر يلمع صدر عار أو جزء من بطن. أحذيتهن معلقة بأقدامهن، إنهن على أهبة الاستعداد دائماً «للبزنس».

لا أشجار ولا أعشاب ولا أزهار تنمو في شارعي، ولكن وردة السفلس كانت تزهر ليل نهار.

٣

في صباح يوم من أيام الربيع، وكنت قد انضممت كالعادة إلى عصبة اليهود الصغار التي تتجمع على الرصيف. كنا ستة أو سبعة أولاد.

كان الربيع يثير شجوننا. فالسماء الزرقاء تلمع فوق «الغيتو»، والأرصفة تتلألأ، والنسمات العذبة تهبُّ. كل شيء يتنفس أملاً وسعادة. في الشتاء تكون الشوارع مقفرة، أما الآن فالناس ينبثقون لا أدري من أين، كأن ذلك يحدث بفعل سحر.

في أيام الدفء الأولى، يظهر يهود يتمشون ويتحدثون، يلعنون ويساومون، يدخنون الغليون ويتثاءبون كدببة كسلى. إنه الربيع.

وتظهر كذلك عربات كثيرة. باعة متجولون شاحبو الوجوه وملتحون، خرجوا من مخابئ الشتاء يزحفون وراء عرباتهم، ويعلنون عن بضاعتهم في الشوارع. البرتقال يلمع في العربات. يبيعون أيضاً الأقمشة، والبطاطس، والساعات، والسمك، وأصص من الجيرانيوم. لقد جلب الربيع معه معرضاً هائلاً.

كنا نلعب بالخدروف على الأرصفة، نلاحق العربات والشاحنات، نتعلق بها لنقوم برحلة مجانية. زعيمنا نيجر علَّمنا سرقة التفاح من العربات. رمينا قطاً ميتاً في مصبغة أحد الصينيين، فخرج كمجنون أصفر، يحمل بيده مكواة حامية، فانطلقنا نعدو هاربين.

عند ذلك اقترح نيجر لعبة أخرى: استفزاز العاهرات.

بدأنا بروزي، وهي امرأة صغيرة، تضع شالاً أحمر، وتجلس دائماً في بهو إحدى البنايات.

جاهزون، انطلقوا! وعندما وقفنا أمامها كانت قلوبنا تخفق بالخوف والبهجة.

صرخنا ونحن نقوم بحركات رذيلة:

«خمسون سنتاً في الليلة. هذا ما تتقاضينه. خمسون سنتاً في الليلة. ها، ها، ها».

تحركت روزي متململة، ونظرت إلينا بعينيها الناعستين، ولكنها لم تجب بشيء. أحسنتْ من وضع الشال. كنا نعتقد أنها ستغضب، وستشتمنا. استمررنا نردد لبعض الوقت:

«خمسون سنتاً في الليلة، خمسون سنتاً في الليلة».

عضت روزي شفتها، وعلى وجهها الشاحب ظهرت بعض البقع، هذا كل شيء، لم تنطق بأي كلمة. اللعبة لم تعط أي نتيجة. جربنا مرة أخرى، ولكنها أدارت ظهرها ودخلت بهو البناية المظلم. فمضينا نبحث عن ضحية أخرى.

٤

بعد أن مررنا ببوابتين ونحن نتجه صعوداً، التقينا بعاهرة بدينة ومجعدة الوجه، جالسة على كرسي، تلبس كيمونو أحمر مزين بأشجار كرز يابانية، ورسوم جبال وشلالات وصور فلاسفة طاعنين في السن. كان شعرها مثبتاً بدبوس من الماس، وفي أصابعها الثخينة يلمع ما يساوي مليون دولار من الماس المزيف.

كانت تأكل تفاحة، تمضغها ببطء وبلطف مفتعل كما في

المأدبة السنوية التي تقيمها غرفة التجارة. وأمامها يمتد حضنها كطاولة.

بدأنا نقفز حولها كمجموعة من القردة، وصرخنا بتلك الكلمات التي لم نكن ندرك بصورة كاملة معناها الرهيب:

«خمسون سنتاً في الليلة. ها، ها، ها».

هذه المرة أعطت خطة زعيمنا نتائج، وأصبح اللعب مسلياً. فقد احمرت البدينة غضباً، وراحت عيناها تقطران حقداً، وظهرت قطرات عرق على خديها اللذين تغطيهما المساحيق. رمتنا بالتفاحة وصرخت:

- لصوص أمريكيون عديمو الحياء. متسكعون، لو أمسكتكم لقطعتكم إرباً.

كانت تقذف الزبد من فمها كقطة مسمومة، وتُلوِّح بيديها. وصارت رؤيتها تثير الضحك. كل من في الشارع استمتع بالمشهد.

«خمسون سنتاً في الليلة! ها، ها، ها».

عندئذ سمعتُ صوت أمي تناديني من نافذة بيتنا. حز في نفسي أن أترك اللعب عندما أصبح في أوجه، ولكن أمي استمرت بمناداتي، فصعدت.

دخلت في الظلمة وأنا أرمش. وفوجئت برؤية روزي في مطبخنا، لقد كانت تبكي. وهرعت أمي نحوي وصفعتني قائلة:

- أنت سفاح، لماذا جعلت روزي تبكي؟

- أأنا جعلتها تبكي؟ - سألتُ ببلاهة.

ولكن أمي جذبتني وألقت بي فوق ركبتيها وراحت تضربني بحزام جلدي. فبدأتُ العويل والتلوي، لكن ذلك لم ينفعني في

شيء إذ عوقبت بشدة. توسلت روزي إلى أمي من أجلي، فقد تألمت المسكينة لما سببته لي من عقاب. ولكن أمي كانت ثائرة:

- هذا سيعلمك ألا تلعب مع نيجر. هذا سيعلمك ألا تقوم بأعمال خبيثة في الشارع.

ولكن بلا فائدة، فلا يمكن التخلص من شارع الإيست سايد بجلدات حزام، فهو عالمي، إنه عالم أمي أيضاً. علينا أن نعيش فيه ونتعلم ما يشاء أن يُعلمنا.

٥

سأذكر دائماً تلك العقوبة، ليس بسبب الإهانة أو لأني تعلمت أي شيء. وإنما لأنني أتممت في اليوم التالي خمس سنوات من عمري.

كان والدي لا يزال شاباً آنذاك ومحباً للمرح. فأخذ إجازة من عمله وأصرَّ على الاحتفال بعيد ميلادي. اشترى لي بدلة من المخمل لها ياقة ومعاصم مخرمة، وحذاء من الجلد الأصلي. وفي الصباح أصرَّ على أن نذهب لنلتقط صورة تذكارية. فكان على والدتي أن ترتدي فستانها الجوخ. وارتدت أختي البدلة الاسكتلندية. وارتدى والدي بدلته السوداء التي بدا فيها كمحام.

كانت والدتي تزمجر في الشارع، فهي تكره الأحذية الجديدة، والملابس الجديدة، والتزيُّن والريش. وأنا أيضاً تألمت، فقد رآني أفراد عصابتي وسخروا من بدلتي المخملية.

ولكن والدي كان سعيداً، وكذلك أختي إستر، فقد كانا يثرثران كصبيين.

تصرفنا في محل المصور بكثير من الوقار. جلس أبي متيبساً على عرش من الخشب الأسود المزخرف، ووقفت أمي إلى جانبه واضعة يدها على كتفه، لكي يظهر خاتم الزواج. واستندت أختي على ركبتي والدي. أما أنا فوضعوني في الجانب الآخر من كرسي العرش، وحمَّلوني سلَّة أزهار اصطناعية.

اختفى المصور، وهو رجل قصير، أصلع ونشيط، وراء الستارة. فرقع بأصابعه قائلاً: «انظر إلى العصفور». نظرتُ إليه، ولكن المسند الذي وضعوه وراء ظهري سبب لي ألماً في عنقي. تك، لقد أُخذت الصورة.

عدنا إلى البيت منهوكي القوى، ولكن منتصرين.

أقمنا الحفلة في الليل. حضر كثير من الجيران مع أولادهم. شربوا البراندي وأكلوا الكعك والسمك، وغنوا. وكان الجميع يقرصون خدي، ويثنون عليَّ متنبئين بأني سأكون رجلاً عظيماً.

بعد ذلك كانت جلسة اجتماعية. كان هناك بائع المظلات الرابي صاموئيل، وهو يهودي ورع ومطّلع، وبحضوره يدور النقاش دوماً حول قضايا قدسية. قال أبي:

- قرأت في الجريدة أن عفريتاً قد تلبس فتاة في شارع هيستر. ولكني لا أصدق ذلك. هل هنالك عفاريت في أمريكا أيضاً؟

- طبعاً. أجابه صاموئيل بهدوء.

أطلق المتشرد ميندل بام ضحكة صاخبة. وكان قد أكل من كل شيء: سمك وكعك، ومربى سفرجل، وتفاح، وفطائر جبن، وسمك مقلي. وشرب من جميع الزجاجات: من سليفوفيتز

البولندي الحارق، ومن ويشناك الكرز، والنبيذ الروماني. وخرجت الآن طبيعته الحقيقية. فهتف وهو يضحك:

- أنا لا أؤمن بوجود العفاريت. إنها مجرد حكايات جدات.

ضرب والديْ المنضدة ونهض واقفاً، وزمجر:

- اصمت أيها الملحد، فلسنا بحاجة إلى حكمتك في منزلي.

هز ميندل كتفيه وصمت. فقال الرابي صاموئيل بهدوء:

- في إحدى المرات، جاؤوا بفتاة إلى كنيس كوربين. كانت شفتاها جامدتين دون حراك، فقد تلبسها عفريت وهي في الغابة. وكانت المسكينة تحتضر مشرفة على الهلاك. درس الرابي الحالة، وأصدر توجيهاته لرجلين بحملها في عربة إلى الغابة، وطلب منهما أن يُسمرا شعرها إلى شجرة، وأن يقصا الشعر بعد ذلك بمقص ويغادرا بسرعة. فعل الرجلان ذلك، وعادا بالفتاة وهما يحثان الخيول، بينما الفتاة تهذي وتطلق صرخات مرعبة. ولكنها حين وصلت إلى البيت، كانت قد شفيت تماماً وغادرها العفريت. لقد رأيت ذلك كله بنفسي يا أصدقائي.

فقالت أمي بخجل:

- وأنا كذلك. رأيت كلباً تلبسه عفريت. حدث ذلك في هنغاريا، تمدد الكلب تحت المنضدة، وتكلم بصوت إنساني، ثم أطلق نباحاً طويلاً ومات. وهذا يعني أن العفاريت حقيقية.

٦

انطلق أحدهم يغني، بينما الآخرون يجارون اللحن بالنقر بالأقدام والكراسي، أو بقرع الكؤوس على المنضدة. وعندما

وصلوا إلى اللازمة، قاموا بضجة تبعث على الصمم. جميعهم أخذوا يغنون، من الرابي صاموئيل الوقور حتى أصغر الحاضرين.

وقصَّ علينا أبي،الحكواتي الرائع، قصة محتال روماني تزوج من ابنة حفار قبور على أمل أن يرث المهنة من حميه كي يتمكن من دفن جميع الأشخاص الذين أبدوا احتقارهم له.

صانع الشالات، موتيك، هاجم اليهود الذين يستبدلون أسماءهم عندما يدخلون هذه البلاد، فقال:

- لو كان اسم أحدهم «ثوم»، فإنه يفكر في أنه من اللائق هنا أن يصبح «السيد بصل».

الأمهات كن يتكلمن عن أطفالهن. ورجل قصير خجول، يعمل بائع موز، قدم وصفاً لإحدى المذابح في روسيا قائلاً:

- بدأ ذلك في الأعياد، عشية عيد الفصح. سقى أحدهم الفلاحين فودكا، وقال لهم إننا نحن اليهود قد قتلنا بعض الأطفال المسيحيين لنأخذ دمهم. وآه يا أصدقائي مما حدث حينئذ: الصراخ، والقتل، واللهيب. رأيتُ بأم عيني فلاحاً يقطع رأس عمي.

على الطرف الآخر من المائدة، كان يجلس فيفكا الطماع، لقد التهم كل ما يستطيع من الفروج المشوي، وشرب كؤوس البيرة واحداً بعد الآخر. لقد كانت وجبة مجانية، فاستغل الفرصة ليُتخم معدته.

أحدهم تحدث عن امرأة في روسيا، ولدت طفلاً برأس خنزير من الرعب الذي سببه لها أحد القوقاز.

تحدث ليشنير الدَّهان، بعد أن شرب النبيذ، عن يهودي من

أبناء قريته اعتادت أن تزعجه شياطين حمراء وخضراء وزرقاء. تَقرع النوافذ في كل ليلة ولا تدعه ينام. فذهب يطلب نصيحة الرابي، واشترى منه ست كلمات سحرية، ظلَّ يرددها إلى أن اختفت الشياطين.

وعلى دمدمة الحديث، وقرع الكؤوس، وسعادة المجتمعين في تلك الغرفة غلبني النعاس، فجلست في حضن أمي لأنام.

- ماذا، هل أنت متعب في يوم ميلادك؟ - قالت أمي بحنان.

وعدت أسمع الرابي صاموئيل يتحدث بصوته الهادئ.

بوم، بوم. دوّى صفير طلقتين من مسدس في البهو الخارجي. وبقفزة واحدة نهضتُ واقفاً كالآخرين. ركضنا نحو النوافذ. وعلى ضوء القمر رأيتُ رجلين يحملان مسدسات. بوم، بوم. أطلقا النار مرة أخرى وسقط أحد الرجلين، بينما انطلق الآخر يعدو. سمعت صرخات امرأة في بيت الدعارة المجاور. اقترب قط وهو يتحامل وشم رائحة الجثة.

- مقامران تشاجرا. - قال والدي.

وتنهد الرابي صاموئيل وقال:

- هذه هي أمريكا.

ابتعدنا عن النوافذ، وعدنا إلى الحكايات والأغاني. كان إطلاق النار أمراً عادياً. الشرطة الأمريكية ستبحث في القضية. تحدثنا قليلاً عن الحادث ثم نسيناه وعدنا إلى جو الحفلة السعيد.

ولكنني لم أنسَ أبداً ذلك الحادث. لقد بقيت الذكرى الخامسة لميلادي مسجلة في ذاكرتي بالنار.

الفصل الثاني

كيف يُصنع الأطفال

١

أذكر أنه في صباح يوم آخر من أيام الربيع، وكنت أرغب في معرفة ما يدور داخل غرفة إحدى المومسات عندما تحبس نفسها مع «زبون». في ذلك الصباح عرفت كل شيء.

تبادلت سوزي، وهي واحدة منهن، الإشارات مع رجل عملاق ذي شعر أحمر كان يقود عربته. شدّ الرجل الأعنة وقفز من مقعده، وتبادل معها بضع كلمات ثم دخلا إلى غرفتها.

نيجر وأنا لحقنا بهما. كانت غرفة في الطابق السفلي من عمارتنا. وباحتراس المخبرين، نظرنا من ثقب الباب. المشهد الذي رأيت زاد من خفقات قلبي وكسا وجهي باحمرار.

ضحك نيجر عندما رأى انفعالي، وأخذ يسخر مني. نهض الرجل والمرأة، فهربنا من الممر، وخرجنا مرة أخرى إلى الشمس.

سألني نيجر:

- هل أنت خائف؟

- لا.

- يا للشجاعة. قال نيجر ساخراً، ثم تابع - الناس جميعاً يفعلون هذا، فهكذا يُصنع الأطفال.

- لا، لا ليس بهذه الطريقة. - قلت له بمرارة لا يمكن إخفاؤها.

- بلى، هل تريد المراهنة؟

- ولكن هذا كالقول أن أمي هي واحدة منهن، أنت كاذب يا نيجر.

زمجر نيجر وهو يطلق الشرر من عينيه وقال:

- لا تجرؤ على قول هذا ثانية.

- إنك كاذب، فأمي ليست هكذا.

لكمني نيجر، فرددت له اللكمة بمثلها. وفي أقل من دقيقة كنا مشتبكين بالقبضات والأقدام. التفَّت عصابتنا من حولنا للمشاهدة. وقدَّر خبثاء الإيست سايد شجاعتي، فنيجر هو زعيم العصابة القوي، ولم يكن هناك من يجرؤ على ضربه. ولكن ذلك لم يكن شجاعة مني، إنه انتحار متهور لشخص فقد إيمانه.

كانت المعركة سريعة وغير متكافئة. تلقيت ضربات ولكمات وصفعات. سال الدم من أنفي. انتفخت إحدى عينيّ. وفي النهاية ركضتُ مبتعداً وهارباً من دائرة الوجوه الساخرة، ولجأت إلى مدخل العمارة. وبقيت هناك، فوق كومة من الطوب القديم لساعات طويلة.

عندما أتى الليل، صعدتُ إلى البيت. وبختني أمي وسألتني عما حدث، ولكنني لم أستطع أن أقول لها، لم أستطع حتى النظر إلى وجهها. فقد تولد لدي انطباع بأنها تخونني بطريقة ما.

مرت سنوات كثيرة قبل أن أدرك أنه يمكن للجنس أن يكون خيراً كما يمكن له أن يكون شراً. يمكن أن يكون أهم بكثير من ذلك الشيء الذي اشتراه سائق الشاحنة بخمسين سنتاً في شارعي»

٢

أسوأ ما في شارعنا هي عصابة المتشردين. فكل شارع في الإيست سايد له عصابته. وفي مدرسة الجريمة والفقر تلك، كان هؤلاء هم التلاميذ الأكثر نشاطاً. إنهم لا يشتغلون، ويُمضون يومهم في لعب البلياردو أو في الحانات يشربون. بعضهم قوادون، وآخرون جناة أو لصوص رخيصون. يتشاجرون مع الجميع، ويختلفون فيما بينهم، وغالباً ما يحصل عراك دموي.

يغررون بالفتيات الصغيرات. الجميع يعرف ذلك. وقد كانت لهم شقة مستأجرة في إحدى العمارات المجاورة، لا أثاث فيها سوى سرير قديم قذر. هذا المكان كان يعرف باسم «المعسكر» وإليه كانوا يأتون بالفتيات الطائشات.

كانوا يقومون بهذا العمل كأنه نوع من اللهو، وقد سمعتهم يتباهون ويمزحون بذلك. زعيم هذا النوع من اللهو كان كيد لووي وهو شخص متباهٍ. كان ملاكماً فيما مضى، أنفه أفطس، وإحدى أذنيه كالقرنبيط. كثيرات من فتيات الإيست سايد كن يعتبرنه وسيماً. كان على شيء من الجنون بسبب ما تلقاه من ضربات على حلبة الملاكمة، حيث كان يقف كالأبله. أما الآن فلم يعد باستطاعته أن يلعب، وصارت لذته الكبرى اصطياد الفتيات الغريرات.

يجدهن في الشارع، أو في صالة البليياردو، فيغويهن ويجعلهن يصعدن إلى «المعسكر» ثم يعطي الإشارة لرفاقه.

وفي إحدى المرات قال لي آمراً:

- إذهب إلى شورتي و تراك و فات والآخرين وقل لهم «بارلو» فقط، وهم سيفهمون.

لم أفهم معنى ذلك عندما قلت لأفراد العصابة كلمة «بارلو»، ولكن تعليقاتهم التعبيرية وضحته لي، فخجلتُ من نفسي، ورفضت أخذ الخمسة سنتات التي قدمها إلي أحدهم وهربت.

كان كيد لووي يأخذ ثياب الضحية بعد تعريتها ويحبسها في «المعسكر» ثم يأتي بعده الآخرون واحداً واحداً. وأحياناً يدخلون جميعهم دفعة واحدة. كانوا يسمون ذلك «الوقوف بالدور».

هذه الرياضة تنتشر في كل مكان يعيش فيه الناس في فقر مدقع.

في أحد الأيام وقعت مأساة في «المعسكر». صعد كيد لووي مع فتاة واغتصبها أربعة عشر رجلاً. حضرت سيارة إسعاف لنقل الفتاة، وبحثت الشرطة عن كيد لووي أسبوعاً أو اثنين، ثم نُسي كل شيء فيما بعد. وبقي «المعسكر» مزدهراً لسنوات عديدة بعد ذلك.

٣

هاري القواد لم يكن واحداً من أولئك العنيفين. لديه عشرون فتاة يعملن عاهرات لحسابه، وهو يتباهى كثيراً بأنه لم يغوِ أياً منهن. ويعتبر نفسه كالتاجر، أو فاعل الخير. والأغرب من ذلك أن هناك آخرين يعتبرونه هكذا أيضاً.

أجل، الفتيات كن يأتينه لكونه حكيماً جداً، وطيباً جداً، وقوياً جداً. ويتوسلن حمايته.

يقول موضحاً لأحد المعجبين به في الحانة:

- يأتينني مندفعات، مليئات بالقمل وأنا أغسلهن، جائعات وأنا أطعمهن وأعطيهن ما يلبسن، وأعلمهن أساليب ليصبحن مقبولات، وليوفرن نقوداً، وأجعل منهن بشراً. وكثيرات من فتياتي ادخرن من النقود ما يكفي لإحضار ذويهن من بلدانهن، وكثيرات منهن تزوجن من رجال أغنياء. أؤكد لك أنهن يشكرنني، وعندما أقول لإحداهن بأني لم أعد بحاجة إليها، فإنها تبكي وتفكر في الانتحار. أنا لا أضرب فتياتي أبداً، فهذا ليس ضرورياً بالنسبة لي، إنهن يعرفن قيمتي جيداً، وكلمة واحدة مني تكفي.

كان هاري وسيما، بديناً بعض الشيء وله شارب أجعد. وكان مظهره مقبولاً، يلبس بدلات جيدة وثياباً بيضاء نظيفة، ويدخن سيجاراً فاخراً. وهو متحفظ، رقيق وأبوي. ويُعتبر، بعد جاك وولف، مثالاً للنجاح في أميركا. وكان الناس يحسدونه، فهو واسع النفوذ في تاماني هول، ويملك بيتاً للقمار، ويتكلم الإنكليزية بصورة ممتازة.

نصيحته المفضلة للشباب وللفاشلين من المهاجرين هي أن يتعلموا الإنكليزية. فهو يقول دائماً:

- أميركا بلاد رائعة، كل شخص يستطيع هنا أن يجمع الكثير من المال، ولكن عليه في البداية أن يتعلم الإنكليزية. هذا ما أقوله دائماً ليهودنا: تعلموا الإنكليزية، صيروا أمريكيين. ما هو الغريب في أن المصانع تستغلكم؟ انظروا إليَّ، لو لم أتعلم الإنكليزية لكنت

الآن مدفوناً في أحد المصانع، ولكني ناضلت، وصارعت، وتعلمت الإنكليزية.

وهاري القواد هو من أعطاني أول كتاب قرأته. وقد قال لي يومها:

- خذ، لتتعلم الإنكليزية.

كان كتاب حكايات عن الجنيات. وقد سرقته أختي إستر طبعاً، فتشاجرت معها لاسترداده.

كان لهاري زوجة وولدان، وهو فخورٌ بهم، يعرض صورهم على المومسات ليظهرن إعجابهن بهم. وكان يقضي شطراً من النهار في شارعنا، ولكنه يتوجه في كل ليلة إلى بيته لتناول العشاء، فعائلته تنتظر أن يعود بابا «من أعماله». لقد كانوا فخورين به دون شك.

٤

والداي كانا يكرهان تلك القاذورات. ولكن هكذا هي أميركا، وهكذا يجب تقبّلها. وهؤلاء هم جيراننا. وحين تعيش في عمارة كبيرة، سيكون من المحال أن تتحرر من المآسي ومن ثرثرات الجيران. لا مجال لخصوصية هناك، فدائماً ثمة فتاة من المومسات في مطبخنا تحدث والدتي عن سوء طالعها، وتشرب الشاي، وتبحث عن الدفء في قلب أمي الكبير. هكذا توصلتُ إلى معرفة بعض قصص أولئك الفتيات.

أغلبهن بسيطات، يشبهن فلاحين مجندين في الجيش. ويجهلن، كالجنود، القضية التي من أجلها يقضون حياتهم في وحل الخنادق ورعبها، ويجهدن لتمضية الوقت بأفضل طريقة ممكنة.

مخبولات بحبهن للأطفال، ينظرن إلينا بحنان ويقدمن لنا القطع النقدية. بعضهن يحببن قواديهن بإخلاص كلب. ويرين في زيارة والدتي وشرب الشاي في بيت محترم امتيازاً يحصلن عليه. ولهذا كنّ يحضرن لها الهدايا أحياناً، مما يسبب إحراجاً لأمي. فلم تكن تعجبها طريقتهن في الحياة. وكانت تقول لهن ذلك بصراحتها المعهودة. ولكنها طيبة القلب إلى حدّ أنها لا تقوى على طردهن.

كانت سوزي تقدس والدتي. وسوزي هي أجمل فتاة في الشارع، فهي رشيقة، نحيلة، ولها الجمال المتعصب لابنة رابي. مرحة، حانية، وغير أنانية. وكان المفروض أن تكون ذات شعبية، ولكنها كانت مكروهة أكثر من جميع النساء في الشارع، فهي مخمورة على الدوام، وتقوم باختلاق مشاهد استعراضية دائماً، كالشجار مع جميع الرجال. فهي تخدعهم وتشتمهم. وكان قوادها يضربها بكثرة. ولم يكن لها أصدقاء.

وبعد أن تنتهي من إحدى مشاجراتها الاستعراضية، تدخل إلى مطبخنا بصورة هستيرية وتلقي بنفسها على كتف أمي وتقبل يديها مسترحمة باكية وهي تقول:

- ماما، ماما، كوني طيبة معي، أرجوك. قولي لي ماذا أفعل، أخبريني كيف أستطيع أن أنقذ نفسي.

فتقول أمي بصبر:

- أتركي هذه المهنة واشتغلي في أحد المصانع، وكوني فتاة طيبة.

فتجهش الصبية بالبكاء وهي تقول:

- أجل، أجل، أجل. غداً صباحاً سأفعل هذا يا ماما.

ولكنها لم تفعله قطّ. وتعبت أمي من تلك المشاهد الهستيرية، وحاولت أن تبعدها عنها، وصارت تعاملها بفتور.

في إحدى الليالي، وبينما نحن نتناول العشاء، سمعنا نحيباً في الخارج. فتح أبي الباب، وهناك كانت سوزي مطروحة تتلوى كدودة مقطوعة. كانت قد تناولت سماً. قالت وهي تلهث:

- انظري يا ماما، أخيراً سأترك هذه المهنة الخبيثة.

أتت سيارة الإسعاف لالتقاطها، وقد ماتت في اليوم التالي في المستشفى.

٥

عيدا كانت استثناءً. إنها واحدة من القوادات، تدير محلاً للدعارة. فقد استأجرت إحدى الدكاكين الشاغرة، ووضعت ستائر على النوافذ، ثم قسَّمت الدكان بقطع من الكرتون إلى عشر غرف. وضعت في كل غرفة سريراً، وهكذا أصبحت الغرف الصغيرة جاهزة للشغل.

كانت عيدا مستعدة دائماً للشجار. بدينة وعدوانية، تضع خاتماً ذا ماسة كبيرة، وتعرف كيف تجمع النقود. وتشرب دلاءً من البيرة. وتذهب إلى البيوت التي تؤجرها وهي شبه مخمورة، مفاخرة بجرأتها كعاهرة، متباهية بأنها تحملت ستين رجلاً في يوم واحد. وهي تحتقر الفتيات اللواتي يشمئززن، أو اللواتي لديهن وساوس وأحلام رومنسية، أو يتذكرن آباءهن.

إحدى فتياتها كانت تدعى ماشا. وماشا هذه يهودية روسية عمياء، فقدت البصر والعائلة في مذبحة روسية. ولا أحد يعرف

كيف سُحبت هذه المرأة إلى هذا العمل. كان مظهرها وضيعاً، وهي هادئة دائماً. تغني أغنيات من كييف، وتعزف على آلة من سبعة أوتار. والفتيات الأخريات يحببنها. ولكنهن يزعجنها بتذكيرها بمقلب استحقت بعده لقب «محبوبة الحمى الصفراء»، إذ ضاجعها في إحدى المرات كواء صيني، دخل مخموراً وطلب امرأة، وجميعهن رفضن الذهاب معه لسبب عرقي، ولكنه أصر على البقاء، وبمزاح حملنه إلى غرفة ماشا، فلم تلاحظ الفرق لأنها عمياء. وفيما بعد ضحكن كثيراً لما حدث، وأطلقن عليها لقب «محبوبة الحمى الصفراء».

في ليال كثيرة كنت أنام وأنا أستمع إلى أغاني كييف التي تغنيها على آلتها ذات الأوتار السبعة. وكان صوتها يُسمع من بيتنا. لقد كانت تغني بين زبون وآخر.

٦

القوادون يمتهنون الصيد. فهم يضعون عيونهم على كل فتاة جميلة تكبر في الإيست سايد. يراقبونها وهي تمتلئ وتنمو وتصبح امرأة. وعندما تكمل خمس عشرة سنة، يحيكون خطة للإيقاع بها. كانت أخت نيجر تبلغ من العمر خمس عشرة سنة عندما اغتصبها لويس الأعور ودمَّر حياتها.

نقل القوادون العدوى إلى صالات الرقص. فهناك كانوا يتصيدون الفتيات الرومنسيات اللاتي يذهبن للرقص بعد العمل طيلة النهار في أحد المصانع. كانوا يثرثرون معهن، ويغووهن بالطريقة نفسها التي ينومون بها الأطفال بحكايا عن سعادة سحرية.

لم يكن غريباً أن الآباء في الإيست سايد لا يتركون بناتهم يذهبن إلى صالة الرقص. ولكن الفتيات كن بحاجة إلى الرقص.

لم أسمع يوماً بابنة مليونير تبيع جسدها لقاء خمسين سنتاً، أو أنها دمرت حياتها في صالة رقص.

٧

معظم العاهرات دخلن المهنة بسبب الجوع. وعندما يدخلن لا يعرفن كيفية الخروج. يخفن العودة إلى البؤس إذا ما خرجن.

روزي مثلاً، كانت تعمل في المصنع، وتدخر النقود لإحضار أبويها من أوروبا. وبعد ذلك سقطت مريضة، وتبخرت كل مدخراتها. كان عليها أن تذهب إلى المستشفى. وعندما خرجت لم تستطع العثور على عمل. كانت جائعة، وضعيفة، ووحيدة، لا أحد يكترث بحياتها أو موتها.

أوشكت على أن تلقي بنفسها في النهر. وجدها قواد، فحملها إلى مطعم، ودفع لها ثمن وجبة جيدة، وقدم لها عرضاً عملياً. وافقت روزي، ولم تندم يوماً على اختيارها. فقد كان ذلك أسهل من العمل في المصنع. ووفرت نقوداً أرسلتها لوالديها، ولم تعد تعاني من الربو.

بهذه الطريقة يزداد ثراء تاماني هول. وصاحب بيتنا، السيد زنزر، كان يثرى أيضاً. اشتكت له أمي في إحدى المناسبات على بعض العاهرات اللواتي يسكن في العمارة وينظمن حفلات مجون حتى ساعات متأخرة من الليل.

السيد زنزر كان أحد أعمدة الكنيس. يلبس عباءة مليئة ببقع

الزيت وقميصاً أبيض، ولكن دون ياقة أو ربطة عنق. أجاب أمي وهو يداعب لحيته الوبرية الخشنة:

- أجل، إن هؤلاء الفتيات عاهرات. ولكنهن يدفعن إيجاراً يساوي ثلاثة أضعاف ما تدفعين حضرتك، وهن يدفعنه في الموعد المحدد. فإذا كنت ترغبين في الرحيل فليس لدي أي مانع. إن هذا محزن جداً، ولكن أي صاحب عمارة يجب أن يعيش.

كل هذه الأمور كانت تحدث. كانت جزءاً من حياتنا اليومية وليس مقالاً خيالياً في إحدى صحف يوم الأحد.

الفصل الثالث

عصابة من اليديشيين الصغار

١

في البدء أعجبتُ بنيجر في المدرسة. كنت مبتدئاً في ذلك الحين. وقد وجَّه لكمة إلى أنف المعلمة.

كانت المدرسة سجناً للأولاد في الطفولة. أما جرائمهم في الشباب فيعاقبهم عليها السجانون.

في البداية كنت أكره المدرسة، وأحن إلى الشارع. كان الجلوس في غرفة الدرس، بينما نيويورك تتألق بخريفها، يثيرني ويستفزني.

كنت أجلس على جمر. فالمعلمة، وهي عانس بدينة (تزن مئة وثلاثين كيلوغراماً)، تضع نظارات مقربة، وتمشي بصورة توحي بأنها مصابة بفتاق. لقد كانت عدوتي.

صُدمت المعلمة في أحد الأيام لأني، أنا الوغد ذو الأعوام الستة، تفوهت بكلمة بذيئة. فغسلت لي فمي بالصابون، وجعلتني أقف على قدم واحدة في زاوية الغرفة حتى أكون عبرة للفصل المؤلف من خمسين صبياً مرتعباً.

إن أكل الصابون شيء مزعج، ولكن أبويّ اعترضا لأن الصابون مصنوع من شحم مسيحي، وليس «كوشر» فقد أجبرتني على أكل صابون مصنوع من شحم الخنزير، وهذه جريمة ضد شريعة موسى، فتوجها بشكوى إلى إدارة المدرسة.

آه، أيتها العانس المنفعلة. آه، أيتها المعلمة المستبدة، القاسية، الحمقاء. آه، يا بقرة بلا حليب، بلا عجل، بلا ثور. إنه تعذيب كوكلكس كلاني أن تقومي بالتدريس في حيٍّ يهودي.

لم أكن أعرف الإنكليزية عندما وضعوني بين يديكِ، كنتُ متوحشاً صغيراً، صديقاً للضياع في الشوارع. لا أستعمل فرشاة أسنان، وأنام بسروالي الداخلي، وربما كان في جسمي قمل. إن الجلوس على مقعد يجعلني عصبياً، فجسمي يكره التوابيت، ولكن آه يا معلمة العبيد الصغار، آه أيتها العذراء الأمريكية ذات الفتاق والخمسة والخمسين عاماً، ما كان عليكِ أن تناديني بـ «اليهودي الصغير».

لهذا ضربك نيجر على أنفك، كان عليَّ أن أكون شجاعاً مثله وأضربك. كان عدلاً أن أضربك.

٢

الموجهون المعنويون في الكوكلكس كلان يقولون إن نظام العصابات ليس عادة أمريكية. وإنه دخل إليها مع المهاجرين الأوربيين من الطبقات الدنيا. ما هذا الهراء. لم يكن هناك في أوربا قطاع طرق يهود. اليهود كانوا جماعة من الجبناء المولعين بالكتب. اليهود لم يقتلوا أحداً منذ سقوط أورشليم. ولهذا السبب أَطلقَ علينا

محبو الجريمة من المسيحيين اسم «الشعب غريب الأطوار». ولكن أمريكا هي التي علَّمت أبناء خياط يهودي مسلول كيفية القتل.

نيجر كان صبياً رجولياً. فهو أفضل رامي كرات حين نلعب البيسبول، وهو أفضل ملاكم، وأفضل مغامر في عصابتنا. وحين نلعب يكون هو جورج واشنطن الذي يقود جيشنا لتدمير الجنود البريطانيين، يمتطي الأحصنة الجموحة، ويصرع - في اللعب - أقوى ثيران البوفالو بين عمارات الحي، ويسلخ فروة رأس الهنود الحمر، وكان جنرالنا في لعبة الحرب.

بعض أفراد العصابة صاروا الآن معروفين: آل ليفي مثلاً، وكان يُعرف بيننا بلقب «المنتن»، يكسب الآن الكثير من النقود مقابل الأوبرات التي يؤلفها.

وآبيه شغرمان أصبح مخرجاً سينمائياً. وقد تحول فوق ذلك إلى نبيل إسباني، والاسم الذي يستعمله في هوليود هو «أرتورو دي ساغار» وليس أقل.

لو موشيه لا يلعب الآن بالنرد، وإنما بالبورصة، ويأمل بامتلاك ناطحة سحاب.

صبيان آخرون أصبحوا ممثلين متواضعين. جاك غوتليب يملك سيارة أجرة، ومنها يكسب ما يُمكِّنه من تقديم الطعام لأولاده يومياً. وهاري وينتراب صار خياطاً. وآخرون قد ماتوا.

الأولاد كانوا يجدون على الدوام شيئاً يتفرجون عليه في هذا السيرك المجاني العظيم المسمى الإيست سايد. فدائماً هناك جنازة، أو مشاجرة بين سيدتين بدينتين، أو حادث من حوادث المرور، أو

حفل زفاف. كنا نذهب لاستكشاف الشوارع، ونتسكع في ذلك الحلم الخيالي لمليون يهودي.

عصابتنا كانت تلعب جميع الألعاب العالمية: لعبة العصابة، ولعبة شرطة وحرامية، ولعبة الترنم بالأغنيات حسب الحرف الأخير من الأغنية السابقة. وكأطفال أفريقيا أو البيرو كنا نتابع بورع مواسم الصيد بالصنارة. أو اللعب بالخدروف أو بالكرات الزجاجية.

أكثر الألعاب تسلية، وقد اخترعها نيجر، هي لعبة السرقة. كان نيجر، لأنه أسرع منا جميعاً في الركض، يقترب من عربات الباعة ويسرق ثمرة على المكشوف ثم يهرب، فيطارده البائع طبعاً، ويكون هذا بمثابة الإشارة لنسرق نحن الفواكه، ثم ننطلق راكضين في الاتجاه المعاكس.

بسنت واحد كان بالإمكان شراء أشياء كثيرة. كالنقانق، أو كأس من الكاكاو، أو واحداً من ثلاثين صنفاً من السكاكر السامة، أو شريحة من البطيخ، أو التفاح أو المأكولات الأوربية اللذيذة: كالحلاوة التركية أو فطائر اللحم أو بذور دوار الشمس الروسية أو حلويات رومانية، أو مخلل الطماطم. وبخمسة سنتات نستطيع الحصول على خمس قطع من حلوى الشوارع، تلك التي تسبب كوابيس يهودية مفاجئة.

في الصيف نفتح خراطيم الماء، ونلقي بأنفسنا أمام الماء المندفع ونحن بملابسنا وأحذيتنا. أو ننزل للسباحة من أرصفة الإيست ريفر. المكان الذي كنا نستحم فيه، كان عبارة عن مجرور مكشوف مليء بفضلات البترول والقمامة، من الواجب أن يكون مغطى، فقد كانت له رائحة نتنة كرائحة الموت. مرات كثيرة كنت

مضطراً وأنا أسبح إلى أن أزيح عن وجهي جثث كلاب ميتة متفسخة أو فضلات متعفنة. وفي عصابتنا، كنا نعتبر رمي القمامة على صبي آخر وهو يسبح شيئاً ظريفاً.

أي طريقة قذرة للتنظيف تلك. ولكن الشمس كانت تتلألأ، والعوامات تمر في النهر ككلاب البولدوغ، وكذلك سفن الشحن بمراجلها الشاحبة، والنهر يجري ويلمع، والسماء زرقاء صافية. هذا ما يمكن تسميته حياة.

نيجر علمنا السباحة على طريقته. فكان يرمي أحد الأولاد من أعلى الرصيف إلى النهر، فإذا استطاع العوم، فمبروك. أما إذا غطس وطلب النجدة، فإن نيجر يقهقه ثم ينزل إلى الماء ويُخرجه.

جاك كوربين مات بهذه الطريقة. وأنا كذلك كدت أغرق.

هكذا كانت الحياة. كنا عراة، أحراراً، ومفتونين بصبانا. كل شيء قمنا به تحت الشمس كان جيداً. الشمس، تلك العجوز السعيدة، هي ماما للجميع. تنظر بعطف إلى صغارها الحقيرين من اليهود كما تنظر إلى أصحاب الملايين المصابين بالسفلس في بالم بيتش. إنني متأكد من هذا.

٣

والآن هناك سمة أخرى لنا نحن الأولاد: جوعنا إلى الريف والطبيعة.

إن مدينة نيويورك هي حلم الشيطان. إنها المدينة الأكثر انتظاماً، فكل شيء هندسي. مدينة أسطورية، مدفونة في بركان.

ليس فيها أعشاب ولا أشجار، ولا أزهار، ولا عصافير، ماعدا عصافير الدوري القاتمة البدينة. ليس هناك وحل، ولا تراب... تراب طازج يمكن استنشاقه، يمكن السير عليه، يمكن حبه كما نحب امرأة.

فقط حجارة. إنها تبدو كأطلال مدينة بومبي. وسبعة ملايين حيوان ممتلئ بحب التراب عليهم أن يعيشوا في شوارع الغرانيت البركاني تلك.

كل أسبوع هنالك في المدرسة حصة لدراسة الطبيعة. والمعلمة العانس، تُخرج من خزانة داكنة مجموعة من وسائل الإيضاح، أعشاش عصافير، سنابل ذرة، معادن، أوراق أشجار جافة، وجثثاً أخرى لا تروي ظمأنا، وتقوم بالحديث عنها بإسهاب مزعج، ثم تدعوننا لتقدير الطبيعة.

يا للإهانة. نتلوى في مقاعدنا ونحن نكظم غيظنا لخروجنا إلى الهواء الطلق بهذه الطريقة. لقد كانت دعوتها لنا كدعوة القرود المحبوسة في أقفاص للحديث عن السعادة في الأدغال. أو كأن يقدموا لجائع قليلاً جداً من الطعام وينتظروا أن يشكرهم.

- أيتها الآنسة، أعطني زهرة... لي... لي... لي.

في الصيف إذا مرّت في شارعنا واحدة من أولئك السيدات اللواتي يتفرغن لزيارة الأحياء الفقيرة، وهي تحمل أزهاراً بين يديها، كنا نجبرها على الوقوف ونحن نصرخ ونشدها من ملابسها مسببين لها الرعب، لتعطينا زهرة من أزهارها.

في إحدى المرات، عثرنا أنا و جاك غوتلب على عشبة صغيرة

وضعيفة، وقد نبتت بين شقوق الرصيف، قرب كراج العربات. وقفنا مشدوهين للمعجزة. وبدأنا نحرس ذلك الكنز، ولا نسمح لأحد بأن يدوسه. أفراد عصابتنا كانوا يأتون في كل ساعة ليدرسوا أوضاع «عشبتنا» وليروا إذا ما نَمَت. لقد ماتت بالطبع بعد أيام قليلة. نحن الأولاد فقط كنا قادرين على النمو في الإيست سايد.

الإيطاليون كانوا يزرعون زنابق حمراء أو وردية في صفائح مربى البندورة الفارغة. إن باستطاعة اليهود أن يفعلوا ذلك أيضاً، ولكن ينقصهم المزاج.

عندما يبدأ الحفر لبناء عمارة جديدة، كنا نرى الإيطاليين هناك يملؤون الأصص بالتراب الطازج، وكان بعضهم يزرع الفاصولياء.

لقد توصلت أمريكا إلى هذا الثراء لأنها التهمت مأساة ملايين المهاجرين.

ولتستطيع أن تفهم هذا، يمسي ضرورياً أن ترى في المساء أحد المهاجرين الإيطاليين الذين يعملون طيلة النهار بالرفش والمعول، وهو يسقي زهراته الحبيبة، إنه فلاح في الصميم، ابن ثلاثين جيلاً من الفلاحين يطل بقميصه المبلل بالعرق من نافذة أحد الطوابق المجاورة، ويشعر بمطلع القصيدة الضائعة. لقد اقتُلع من أرضه فأضحى ضائعاً، مخدوعاً.

في يوم من الأيام، بفعل معجزة، ظهرت فراشة بيضاء في شارعنا، فلحقنا بها. وقد اصطادها جوي كوهين بقبعته، ولكنه حين رفع القبعة كانت الفراشة قد ماتت. لهذا السبب بقي جوي حزيناً عدة أيام.

٤

لنعد إلى نيجر.

كان فتى شديد البأس، ثابتاً، مربوعاً، له قوة مجذف، وكانت لعينيه منذ ذلك الحين نظرة استهتار المجرم والعبقري، ومنذ ولادته كان له أنف أفطس. وهذا، بالإضافة إلى شعره الأسود وبشرته القاتمة، جعل إعطاؤه لقب: «العبد الصغير نيجر» شيئاً لا يمكن الحيلولة دونه.

كان أشبه بغجري صغير، لا يمكن إبعاده عن المغامرات. فهو في حركة دائمة، يرسم مخططات لأعمال شريرة. لا يثق بشيء، وهو مثل قط، دائم التحفز لتفادي أي ضربة مفاجئة من عدوه. إنها الحياة في الإيست سايد هي التي تولِّد هذا الحذر الماكر. فملاكمي الإيست سايد كانوا دائماً من النوع الصاعق، يتعلمون سرعة الحركة وهم يتفادون رجال الشرطة وعربات الترام.

كان الإيست سايد بالنسبة للأولاد عالماً يخوض غمار حرب مستمرة. فالدخول في شارع جانبي يشكل انتحارا. وكل مجموعة من العمارات تشكل أمة قائمة بذاتها. وعندما يظهر ولد أجنبي يتجمع الوطنيون حوله، ويسألونه بتأنف:

- من أي شارع أنت؟

فيجيب الولد مرتعداً:

- من كريستي ستريت.

«بانغ!» كانت هذه هي الإشارة المتفق عليها لينهالوا على

الصبي الأجنبي المسكين بالعصي، والحجارة، والقبضات، والأقدام، وتكون علقة دموية لا إنسانية ولا مكان للرحمة فيها. تماماً كما يفعل الكبار عندما يتشاجرون.

لقد رماني سوء الطالع ثلاث مرات في مثل هذا الموقف، وخرجتُ مرات كثيرة وعيناي مزرقتان، وشفتاي متورمتان من حروب الأزقة تلك. نحن عليهم، وهم علينا. كل ذلك كان تعصباً، كلٌّ لأمته. رغم أنه من الصعب عليَّ الآن فهم الفرق بين شارع وآخر من شوارع الإيست سايد، فجميعها مؤلفة من العمارات المتجاورة الخيالية نفسها، والمساكن الماثلة، والقبعات القديمة، واليهود، والباعة المتجولين، والملائكة، ورائحة البول، والظلال، والفراشات، وشوارع الغرانيت السوداء نفسها.

كان على كل شخص أن ينتمي إلى عصابة ليدافع عن نفسه. وعليه أن يكون مخلصاً وشجاعاً، حتى أنا، الصبي غريب الأطوار وشارد الفكر، كنت شجاعاً.

جوي كوهين، الصبي الحالم، الذي يستعمل نظارة طبية، كان شجاعاً. وكذلك ستنكر كان مفرطاً في الشجاعة. وجاك غوتلب كان شجاعاً أيضاً. وآبيه، وإزي، وفات، وماكسي، وبشتيبل، وهاري. جميعهم كانوا شجعاناً دون شك. وباستمرار كنا نؤكد على شجاعتنا غير العادية. ولكن نيجر كان أشجع الشجعان فهو رأس قبيلتنا الشجاعة المتوحشة.

كان نيجر يتجرأ على أولاد أكبر منه سناً وعلى الرجال ورجال الشرطة. فهو يحني رأسه ويهجم عليهم وذراعاه ممدودتان، ووجهه قد امتلأ شراسة وعيناه منتفختان، وشفتاه مزمومتان، وكأنه آلة

حديدية. كأنه حيوان رُبيَّ خلال مئات السنين ليقاتل، وللمزيد من التعريف فإن والده لم يكن سوى خياط ضئيل، فقير ومريض.

بدأ نيجر يكره رجال الشرطة منذ طفولته المبكرة. فرجال الشرطة في شارعنا لم يكونوا أفضل ولا أسوأ من معظم رجال الشرطة. فهم يتناوبون على الأبواب الخلفية للحانات ليشربوا البيرة مجاناً. وهم على علاقة وطيدة مع المومسات، ومع اللصوص، وباعة المخدرات، وأصحاب النوادي الليلة والمقامرين في الحي. يتقاضون المال من الجميع، حتى من أصغر الباعة الجوالين.

الجميع يعرفون من هم الشرطة، فلماذا كانوا يعاملونا بتلك الخشونة نحن الأطفال، وكأننا نحن كبار المجرمين في الولاية. إنهم يقطعون علينا لعبنا عندما نلعب البيسبول ويصادرون مضاربنا الخشبية، ويضربوننا لأننا نلعب بالماء تحت خرطوم الري المطاطي. ويشتموننا ويطاردوننا لأي سبب. إن فرحنا يخرجهم عن طورهم ويغيظهم.

في أحد الأيام كنا نلعب بالنرد. وفجأة صرخ فات: «أهربوا، الشرطة». جميعنا تفرقنا كالأرانب، تاركين حوالي خمسة عشر سنتاً على الرصيف. كان رجال الشرطة عموماً يضعون تلك القطع النقدية الصغيرة في جيوبهم. وهذا من الأمور التي تسبب لنا الغيظ، وتجعلنا نعرف تماماً نوعيتهم الأخلاقية، من قيامهم بمثل هذه السرقات الوضيعة.

نيجر لم يهرب وإنما انحنى بهدوء وجمع السنتات. كان يتحدى الحارس الذي احمرَّ وجهه من الغيظ، وانتفخ كديك رومي، وضرب بعصاه ظهر نيجر. وقع نيجر على الرصيف.

وأجبره الحارس على رمي النقود قائلاً:

- يا ابن العاهرة، سأرسلك إلى الإصلاحية.

نهض نيجر دون أن يجيب ومضى، لقد كان يحمل في وجهه تعبيراً وحشياً، وبعد خمس دقائق سقطت من السماء قطعة قرميد، ولم يتهشم رأس الشرطي بمعجزة.

كان ذلك هو رد نيجر. صعد الحارس إلى السطح وطارده، ولكن نيجر كان أجرأ من أن يُقبض عليه. قفز من بيت إلى بيت كأنه معزى جبلية. كان مستعداً لأن يموت من أجل العدالة، ولكن الحارس لم يكن على ذلك المستوى من الشجاعة.

ولعدة أسابيع تفرَّغ نيجر لرمي الطوب، والزبالة وأكياس مملوءة بالماء، على رأس ذلك الشرطي الذي جن جنونه، فهو لا يستطيع اللحاق بالشبح الصغير. ولكنه روّج إشاعة أن نيجر عبارة عن كتلة من الشر يجب وضعها في الإصلاحية. هذا الشرطي، واسمه مورفي، ساعد فيما بعد على ترجيح الكفَّة التي سرعت بدفع نيجر إلى مهنة العصابات.

٥

كانوا يقوضون الأبنية في شارع ديلانسي ليقيموا مكانها كورنيش سكيف. ولهذا كانت هناك فراغات واسعة من الأرض.

في الإيست سايد المغرق بآلاف العمارات، كان وجود فسحة فارغة يعتبر هدية من الجنيات الطيبات للأولاد.

هواء، فراغ، أعشاب، مكان يمكن التحرك فيه. إن أحدنا يتحرق على فسحة من الأرض في الإيست سايد، على أي مستنقع،

أي قطعة أرض غير مستعملة تشير إلى أن الكون مازال يافعاً، بريّاً وحراً.

عصابتي تمكنت من السيطرة على قطعة الأرض تلك، وحولناها بقوة المخيلة إلى سهب فسيح من سهوب الغرب الأمريكي. فهناك كنا نخفي كنوزنا كالقراصنة، ونبني قلاعاً من الثلج. وفي الأيام الطويلة المشمسة كنا نلعب كرة القدم أو البيسبول. وهناك نعسكر في الليل تحت النجوم، نشوي البطاطس التي لها مذاق أكثر حلاوة لأنها مسروقة.

لم يكن ضجيج القطارات المرتفع يصل إلى مسامعنا هناك، ولا صرخات الباعة التي تنطلق كاستغاثات الحمقى. وخطر وضوضاء وألم الإيست سايد أصبحت كلها بعيدة عنا بفعل حاجز سحري في مملكة النيرفانا الطفولية الخالدة تلك.

أرض قديمة، أُفرغت أحشاؤها برفوش ومعاول العمال فأصبحت ميدان معركة. هناك كومة قمامة منسية وسط العمارات العالية. آه، يا مستقر الأثاث القديم، وعربات الأطفال الصدئة، وقطع الأخشاب والزجاج والصناديق، والسراويل الممزقة، والقطط الميتة. إن الجميع يمرون بكِ فيبصقون ويغلقون أنوفهم. ولكنك لا تزالين تتلألئين في مخيلتي، في هالة من قصيدة طفولية. إن أي مكان آخر لن يبدو لي بمثل تلك الروعة.

كان علينا أن نحمي ملعبنا ذاك بقوة السلاح. وهذا يجعل المكان أكثر رومنسية.

في أحد أيام نيسان، كنّا، آبيه وجاك وستنكر وأنا نلعب لعبة ضرب العصا في الهواء تحت السماء الزرقاء. كان الجو معتدلاً.

كلاب هزيلة تمر كالأشباح فوق الزبالة، والشمس تلقي على العمارات لوناً ذهبياً جميلاً. برك من الصقيع الذائب تلمع في الوحل، ورجل عجوز يتطلع إلينا بمتعة بينما هو يدخن غليونه.

الأولاد يسعدون باللحظات الجميلة، ولكنهم لا يستطيعون التعبير عن سعادتهم إلا بالقيام بتجربة حمقاء. لقد كنا سعداء. وفجأة، دمرت قنبلة هذا السلام.

أعداؤنا، صبية فورسيث ستريت، نزلوا وهم يطلقون الصرخات كجماعة من الهنود الحمر، كان يقودهم باتش، ذلك الصبي الأسمر الشجاع، فهو ذائع الصيت كنيجر.

وفوراً، أخذوا يضربوننا، كانوا حوالي خمسة عشر صبياً. آبيه وجاك دُفنا تحت هرم من الأرجل والأيدي، أما ستينكر فتملص كعادته من جميع المشاكل بالترجي والأنين والبكاء والتوسل. حتى بعد بلوغه سن الرشد كان يصرخ طالباً النجدة. أما أنا فقد تولى أمري باتش، وكان ذلك أشبه بمعركة بين صرصار وقطار.

في النهاية سمحوا لنا بالوقوف. وقال باتش وهو يمسح يديه بمؤخرة سرواله:

- اسمعوا أيها القذرون، إن هذا الخلاء لنا نحن أبناء فورسيث ستريت، هل سمعتم. والآن اذهبوا إلى الخراء.

انطلقنا نعدوا سعداء بنجاتنا. كانت قمصاننا ممزقة والوحل يغطينا. وكنا مضعضعي الأبدان وفاقدي الثقة. وجدنا نيجر، كان يحمل صرة ملابس كبيرة، أحضرها من المشغل ويحملها إلى بيتهم - أسرته كانت تخيط في البيت بدلات للمحلات - وكان عمله اليومي أن يحضر القماش من تلك المحلات.

شحب لونه من الغضب عندما أخبرناه بالمصيبة. وأمضينا المساء بأكمله نأخذ الاحتياطات الاستراتيجية، نتجسس على أولاد شارع فورسيث، ونزور أولاد شارع إلدريدج ونقيم معهم تحالفاً ضد عدونا المشترك.

وفي اليوم التالي نشبت المعركة التاريخية. بعض أفراد عصابتنا سرقوا من بيوتهم أغطية الطناجر واستخدموها تروساً. آخرون كانوا يملكون سيوفاً من الصفيح، وعصياً وهراوات ذات رؤوس مكورة. وفي الشارع التقى الجيشان، طارت الزجاجات وأدميت الرؤوس. وكان نيجر أشجع الشجعان.

أخيراً استعدنا ملعبنا. وبعد ذلك نظمنا حراسته. وقد فرحنا كثيراً بكلمة السر وبالتمارين والمراسم العسكرية الأخرى.

لو رأتنا المعلمات العوانس، لفزعن لرؤيتنا نمارس تعاليمهن الأولية: الحرب، الحرب.

٦

ولكن كورنيش سكيف كان عدواً لا نستطيع هزيمته، فقد سَرق منا ملعبنا أخيراً.

لقد مدوا شريطاً طويلاً من الإسفلت، مع بعض الأشجار الهزيلة، وصفوفاً من المقاعد، حيث يجلس في الصيف العمال العاطلون عن العمل.

رجعنا إلى شارعنا المزدحم. بعد فترة قصيرة من ذلك، قتل الترام جوي كوهين. كان جوي يتعلق بعربة الترام، ويبدو أنه عندما حاول القفز سقط تحت العجلات. لقد حدث ذلك بسرعة البرق.

رأى المارة جسمه يسقط، وبعد ذلك سمعوا صرخة الألم الأخيرة التي أطلقها.

تابعت العربة سيرها. وهرع الناس ليروا جسد زميلي في اللعب المهشم. يا للسخرية الفظيعة التي حدثت، لقد فُصل الرأس عن الجثة وضاع. جاءت الشرطة، وكان والدا جوي يصرخان ويجهشان بالبكاء. بينما الجميع يبحثون. ولكن الرأس لم يظهر.

لقد وجدوه فيما بعد تحت عربة الترام، عالقاً بمحور العجلة وملطخاً بالدم.

هذا الحادث سبب ذهولاً كبيراً لأفراد عصابتنا. فقال جاك غوتلب إنه لن يعود إلى التعلق بحافلات الترام. ولكن نيجر، وليؤكد على شجاعته، قام برحلة مجانية، متعلقاً بالترام في مساء اليوم نفسه.

جوي كوهين، هو الصبي الحالم الذي كان يضع نظارة طبية، والذي حزن كثيراً لموت الفراشة. كان دائماً يقرأ الكتب، وكانت له أفكار غريبة كثيرة. وهو الذي أدخل في رأسي فكرة أن أصبح طبيباً، عندما كنت أتصور أن أصير في المستقبل رجل مطافئ.

الفصل الرابع

الفطر السام

١

جوي كوهين، لقد ذهبتَ قرباناً تحت عجلات الترام، إني أراك الآن مرة أخرى يا جوي، أرى وجهك الشاحب، شديد الحساسية رغم القذارة والخدوش. أراك ممتلئاً بذكاء وكرم غريبين. عيناك مزرقتان كما هما عيناي، فقد كنا ننام قليلا في الصيف. ولكن الصباح يأتي، ويعطيك والدك يا جوي خمسة سنتات، ونخرج معاً لإنفاقها.

مضينا حفاة، كان الرصيف يقرح أقدامنا، ولكننا أحببنا تلك الملامسة العنيفة، وتجاسرنا على المسير في أشد الأمكنة حرارة. نمضي دون قبعات، وقد قصصنا شعورنا لمساعدة أمهاتنا على مقارعة القمل في الصيف.

كان جوي يلبس قميصاً من القطن، وبنطالاً من النوع الذي يثبت بحمالات. وأنا كنت ألبس ملابس مشابهة تقريباً.

اشترينا أولاً قطعتين من الحلوى المغروسة بقضيب خشبي صغير، إحداهما حمراء والأخرى صفراء، من الدكان الذي على

الناصية، وبدأنا نأكلهما بينما نحن ننظر بتكاسل إلى الفتيات اللاتي يرقصن على ألحان الأرغن في الشارع.

أختي إستر كانت ترقص مع ليلي أخت نيجر. كانت الشمس تلتهب، والشارع يعج، ووجه أختي يتلألأ مبتهجاً. لم تنتبه لوجودي في سعادتها، كانت جدائلها تتطاير وهي ترقص رقصة عربية. وكانت هناك فتيات أخريات سمراوات ونحيلات، أجسادهن الصغيرة تلتهب مع اللحن.

لحِقنَ بعازف الأرغن من شارع إلى آخر. رقصن لساعات طويلة، ومع ذلك لم يشبعن. عازف الأرغن الإيطالي كان يبدو عليه الملل وتعكر المزاج فقط. كان يعزف لحناً مرحاً، وتقدم بعدها خطوتين ومدَّ قبعته لتُوضع فيها النقود.

هذا هو الشيء الوحيد الذي يهمه. بينما الراقصات الصغيرات يبعثن البهجة في نفوس جميع المارة. بعض المومسات اللاتي تركن «البزنس» لبضع لحظات، ينظرن مبتسمات بعذوبة إلى الصغيرات. والشرطي يبتسم وهو مستند إلى عمود أحد مصابيح الإنارة. عجوز متوحش ذو لحية رمادية، يحمل تحت إبطه دجاجة حية وقف يبتسم. سائق إحدى الشاحنات خفف من سرعته ونظر إليهن نظرات حالمة، بينما هو يمر بهدوء. والأمهات ينظرن من نوافذ الأبنية. تاجر يهودي سمين، يوشك أن ينفجر كحبة خوخ تحت أشعة الشمس، ويمسح وجهه وهو يرمق الفتيات بنظرات تقدير.

ساحرة حدباء، تحمل منديلاً أحمر، تمرُّ وهي تعرج وتدفع عربة طفل مغطاة بملاءة، لا يوجد أي طفل في العربة، وإنما جلّة

كبيرة مملوؤة باللوبياء المسلوقة. وتصرخ العجوز بصوت عالٍ يخرج من حلقها:

- لوبياء. اشتروا لوبياء طازجة وساخنة.

نسينا الرقص وتذكرنا السنتات الخمسة التي في جيب جوي. اشترينا لوبياء. الساحرة ذات الثآليل، رفعت الملاءة وأعطتنا لوبياء وضعتها في قمع من الورق.

بينما نحن نأكل، كان جوي ساهماً. لقد بقي معنا سنتان اثنان وعلينا إنفاقهما على أفضل وجه.

قال جوي:

- لنذهب إلى تشيب هابرز.

وهذا دكان حلوى في شارع ريفنغتون، يعرفه جميع صبيان الإيست سايد لأسعاره الرخيصة. انطلقنا إلى هناك في واحدة من مغامراتنا الصيفية.

٢

إنني أحب الصيف. فخلاله تحدث أشياء كثيرة - الشتاء كان مسلياً أيضاً، ففيه معارك الثلج. ولكن الصيف هو سيرك عظيم، أجل ففيه تقع حوادث غير اعتيادية. في الشتاء، يقضي أحدنا القسم الأكبر من وقته محبوساً في البيت. أما الصيف فنحياه في الشارع.

جاك وولف يقف على باب حانته وهو يحك بأصابعه أسنانه الذهبية الرائعة التي يقدرها الجميع، ويفتل شاربه. بينما ثوبه الأبيض يلمع تحت الشمس. وجاك هذا رجل عظيم، ينتسب إلى تاماني هول، وهو يُدير الانتخابات كل عام.

- مرحباً جاك.

- مرحباً يا أولاد.

- أنستطيع أن نأخذ بعض الكعك يا جاك؟ نحن ذاهبان إلى تشيب هابرز يا جاك.

- عظيم جداً. ولكن احذروا الهنود الحمر.

- ليس بإمكانك أن تخدعنا. فليس ثمة هنود في نيويورك يا جاك. هل تعطينا كعكة؟ إحكِ لنا كيف قتلت ذلك الهندي في الغرب.

- في يوم آخر، إذهبا الآن. هيا.

تركناه دون رغبة منا، فالرجل العظيم حنون مع الأطفال، يهدي إليهم الكعك، ويعرف قصصاً رائعة. فقد قضى عاماً في الغرب، في شيكاغو، وشاهد الهنود الحمر. يقول أنهم يشبهون اليهود.

وفجأة، يُقذف بفظاظة رجلٌ متشرد مخمور من باب الحانة. يقوم هذا بقفزة مضحكة ثم يسقط على وجهه على الرصيف والدم يتدفق من خده. زمجر وشتم. في تلك اللحظة ظهر جاك وولف وهو ينظر إلى الشخص المدمى، داعب أسنانه الذهبية بظفره، بصق ثم تثاءب، وحين استدار ليعود إلى الداخل قال وهو يغمزنا:

- اضربوه يا أولاد، لأنني مشغول الآن.

٣

في دكان الحليب، كان هناك كثير من المتشردين. أولئك الذين يتجمعون هنا كل صباح ليشربوا لتراً من الحليب بخمس سنتات.

فالحليب البارد يليّن أمعاءهم بعد سكراتهم الطويلة. هذا ما قالته لي ماري شوغار في إحدى لحظات إلهامها.

على المقعد الموجود أمام كراج العربات، يجلس سائقو العربات وهم يتسلون ويمرحون، كانوا يسقون البيرة للعنزة تيري ماك غوفرن.

أغلب الحانات تملك تعويذة لجلب الحظ. وتيري هي جالبة حظ حانة جاك. إنها عنزة كبيرة وقذرة، سُميت تيمناً بالملاكم الشهير تيري ماك غوفرن. كان قرناها مطليان بلون ذهبي، وتحمل في رقبتها سلسلة كلب نُقش عليها اسم وعنوان حانة جاك. وتيري تأكل السندويشات والقمامة والصحف وبقايا المعلبات، وأي شيء قديم. طريقتها في الأكل كانت موضع نقاش دائم في الحي. وفوق ذلك كانت مغرمة بالبيرة، فهي تشربها كمتشرد ظمآن انتهى لتوه من تسول بعض السنتات في يوم قائظ. بعد ذلك تحرك ذيلها وتهجم على أي شيء يقف أمامها، كانت تسلية كبيرة، وسائقو العربات ينفقون سنتات كثيرة لشراء البيرة لتيري.

في إحدى المرات رأيت بحاراً مخموراً وقد انبطح على الأرض وأخذ يناطح تيري. يا له من أحمق. لقد شقت العنزة رأسه بقرنيها، وأحضروا سيارة الإسعاف لحمله.

٤

إنه الصيف. دوّى صوت سيارة مطافئ في الشارع المجاور، قطعت السيارة حركة المرور كقذيفة مدفع تخترق فرقة جنود. يا للإثارة، وبعد لحظة من ذلك حضرت سيارة إسعاف. كنت أنا

وجوي كوهين نناقش ما هي المهنة الأكثر بطولية: رجل المطافئ أم الطبيب؟

رأينا شاحذ سكاكين ألمانياً عجوزاً، يضع نظارات وله شارب أبيض كالحرير. لقد بدا كطبيب، فهو مرتب ونظيف جداً. قرع جرسه ثم واصل دفع عربته التي ثبت عليها حجر الجلخ. دخل دكان جزار، ثم خرج بعد لحظة وهو يحمل مجموعة كبيرة من السكاكين والسواطير. أخذنا ننظر منبهرين إلى الشرارات الذهبية المتطايرة.

بعد ذلك مرَّت حافلة سياحية ممتلئة بالغرباء، وقد لحقت بها مجموعة من الصبية يرمونها بالحجارة والقاذورات والقطط الميتة والخضروات المتعفنة مما أفزع المسافرين. كان الأولاد يصرخون «كاذبون، كاذبون. عودوا من حيث أتيتم»، جوي وأنا انضممنا إليهم بالصراخ، فأي حق يملك هؤلاء الغرباء المتعجرفون ليأتوا إلى هنا ويتفرجوا علينا؟ أي حق يملك ذلك الدليل ليخبرهم الأكاذيب عنا؟ نحن الأطفال كنا دائماً نقذف تلك الحافلات بالحجارة. ومازالت هذه الرياضة رائجة في الإيست سايد.

٥

كم من الإغراءات تحيط بنا. وكم من المرات وقفنا - جوي وأنا - لنناقش إذا كان من الأفضل أن ننفق النقود في الحال أم نتابع حتى تشيب هابرز. ولكنا كنا أقوياء الإرادة وتابعنا.

إغراءات. كان الرجل الغامض، بائع الليمونادة، يظهر كل صيف ببشرته الحنطية وشاربه الكثيف بطرفيه المدببين كقاطع

طريق. كان يلبس طربوشاً تركياً وشروالاً أبيض وشالاً أحمر، ويحمل على ظهره إناء كبيراً من الصفيح مع ملعقة ذات ذراع طويلة. ومن أجل أن يبيع شرابه كان ينحني حتى يكاد يلامس الأرض وكأنه يصلي. ومن خلال أنبوب فوق كتفه تتدفق الليمونادة التركية في الكأس التي يحملها بيده. لقد كان مشهداً رائعاً يستحق إنفاق سنت.

صادفنا في طريقنا دوامة أحصنة. وهي دوامة صغيرة بستة أحصنة خشبية مربوطة إلى عربة يجرها حصان عجوز. الرجل يجعل العربة تدور، والأولاد يلفون بالدوامة حتى يدوخوا. صاحب الدوامة هو رجل قصير وسمين كبرميل بيرة. كان يهودياً، ولكنه يبدو كإيطالي. يكره الأطفال. فقد كان يطرد بسوطه الأطفال الذين يبقون جالسين بعد انتهاء جولتهم.

رأينا أيضاً عرافاً يحمل أرغناً وببغاء. كان للببغاء والرجل أنفان كبيران. وبسنت واحد تسحب الببغاء بمنقارها قصاصة ورق من صندوق وتقدمها لمن يدفع. وعليها مكتوب حظه.

٦

هذا هو الصيف.

يمر عجوز يهودي كئيب، يضع على رأسه ست قبعات، الواحدة فوق الأخرى. ويحمل على كتفه كيساً من القنب. ويصرخ بصوت حزين:

- من عنده ملابس قديمة يبيعها - ثم يرفع عينيه نحو النوافذ صارخاً:

- نشتري ملابس قديمة، مالٌ مقابل الملابس القديمة.

كان نداؤه يدفع الرعشة إلى قلوبنا، وكأننا نسمع صلوات الكنيس في عيد يوم الغفران.

مازال يرن في مسمعي عويل ذلك العجوز اليهودي الوحيد، الذي بلا مال:

- مال مقابل الملابس. مال مقابل الملابس. أيها الرب، لماذا تخليت عني؟

٧

في الصيف.

قمامة من كل صوب. بووم، وتسقط رزمة قمامة أخرى من إحدى النوافذ. كثير من نساء الإيست سايد لهن هذه العادة الرهيبة. فحتى يوفرن على أنفسهن مشقة نزول السلالم، يلففن القمامة بالصحف ويرمينها إلى الشارع. في الصيف، سماء الإيست سايد تمطر قشور بطاطس ورؤوس سمك وتفل قهوة وعظام حساء. بووم. لقد سقط شيء، ويحني المارة في الشارع رؤوسهم وكأن رشاشاً قد انطلق.

حر الصيف. الإسفلت يلتهب تحت الأقدام. الخيول تنتزع حوافرها من الإسفلت مثيرة فرقعة بفعل بقايا الزفت الملتصقة بالحوافر. أقدامنا الطرية تنغرس في الإسفلت تاركة آثاراً عميقة.

جوي وأنا رأينا سيدة عجوزاً تجلس على درجات أحد الأبواب، وقد التفَّ من حولها حشد كبير، كانوا قد نزعوا عنها

مشدّها وشعرها المستعار، وأخذوا يهوّون لها، ويسقونها ماء صودا بارداً. لقد أصيبت بضربة شمس.

ذباب، بق، قطط مريضة، خيول مصابة بضربة شمس، رجال ونساء، حانات صاخبة. الشارع يبدو أشبه بسيرك. إنه الصيف.

في خضم الشارع هناك رجال، وعربات ترام، وكلاب، وقمامة، وأمهات يدفعن بهدوء عربات أطفالهن ويقفن في ظل القطارات ليرضعن كائناتهن الصغيرة من أثدائهن الكبيرة المتعرقة.

إنه صباح يوم صيفي، بينما أنا وجوي في طريقنا إلى تشيب هابرز.

٨

ولكننا لم نصل أخيراً، فقد حدث لنا كابوس صيفي. في تقاطع شارعي ريفنغتون وكريستي، مقابل فندق ميلز، نادى علينا رجل من إحدى البوابات. لقد أوحى لي منظره بالشر منذ اللحظة الأولى. فهو متشرد يلبس بدلة قديمة مجعدة ومشبعة بالشحوم كأنها ممسحة مطبخ. وركبتاه تظهران من خلال السروال الممزق، وكان ملطخاً بالنشارة - ربما من أرضية إحدى الحانات - ووجهه الأصفر مغطى بقروح، لقد كان كريهاً، كجثة متفسخة في أسبوعها الأول.

كانت يداه محشوتين في جيوبه، ويبدو أنه كان يلويهما بعصبية. وعيناه تلمعان كعيني فأر وترمشان بلا توقف.

نعق فزاعة العصافير ذاك قائلاً:

- تعالا هنا. هل تريدان أن تكسبا خمسة سنتات؟

كنت خائفاً. ومن فم ذلك الإنسان كان يسيل اللعاب، وعيناه

الدقيقتان كرؤوس الدبابيس جعلتاني أرتعد. ولكن السنتات أغرت جوي. لقد كان أكثر شجاعة مني فتقدم ليكلم الرجل الذي أدخله إلى دهليز البيت.

انتظرت في الشارع. مرّت دقيقة أو اثنتان، ولكن الوقت بدا لي أكثر بكثير. لم يكن باستطاعتي أن أقف هادئاً. كان هناك يهودي عجوز يقرأ الجريدة بهدوء وهو يقف إلى جانب عربته المحمّلة بالتفاح، وكنت أقف إلى جانبه عندما خرج جوي يهرول من ذاك البيت وتتبعه تلك الجثة الرهيبة. كان جوي يصرخ:

- ماما، ماما. لقد أرادوا نزع سروالي.

البائع المتجول العجوز نهض ونظارته تهتز على أرنبة أنفه، والحنق باد عليه. ارتمى جوي بين ذراعيه ولكن ذاك المرعب كان يصر أسنانه، ويطلق دمدمات غريبة، وبدفعة واحدة طرح العجوز المسكين، وأمسك بجوي. كانت له عينان حمراوان ومنتفختان، خارجتان من محجريهما، وترمشان بعصبية مجنونة.

كان جوي يحاول الافلات منه وهو يطلق الصرخات. بينما ذاك الشخص يتشبث به، وفجأة ظهر يهودي ضئيل الجسم، ذو أنف أفطس، سمين، يلبس قميصاً وقبعة، ويدخن غليوناً. نزع الغليون من فمه، ووجه لكمتين إلى فك الجثة.

- دع الصبي أيها الممحون. قال الرجل الضئيل القوي.

ترنّح الآخر بفعل اللكمتنين. فترك جوي، وأطلق نظرة متوحشة فيما حوله. التف الناس من حولهما. وبسرعة لمع نصل سكين، وشطر المريض وجه الرجل الضئيل. كل ذلك حدث بسرعة البرق.

عاملان إيطاليان كانا يحفران مجروراً على مقربة من مكان الحادث، جن جنونهما من الغضب، لوحا برفشيهما إلى أعلى ثم هويا بهما على جمجمة ذاك الهزيل المنحط الذي انهار على الرصيف وهو يئن. بعد ذلك استولت على الحشد موجة جنون: صرخات، شتائم، دم. إعصار من الوجوه الصارمة. جميعهم، بما في ذلك النساء، يرفسون ويضربون بأقدامهم وبأيديهم وبالرفوش الجسد المترهل الكريه الممدد على الرصيف. ويروي البعض للآخرين ما الذي فعله الرجل فيثير ذلك جنون الحشد أكثر.

لو لم يأت الشرطي، لتحول ذاك التعيس إلى أشلاء.

جوي وأنا، وقد نسينا الجميع، هربنا من ذلك المكان. والآن ليس لدينا أدنى رغبة في الذهاب إلى تشيب هابيرز، ولا البحث عن مغامرات في ذلك الصباح، كنا نريد العودة إلى شارعنا. فانطلقنا نعدو، بينما جوي يبتلع شهقاته.

أخيراً وصلنا سالمين إلى شارعنا. وهناك رأينا الفتيات وهن مازلن يرقصن على ألحان الأرغن بالسعادة نفسها، والأشخاص الكبار مازالوا يتأملونهن مبتسمين. عالمهن لم يزل هو نفسه، أما عالمنا فقد تغير إلى الأبد. فلم نعد، جوي وأنا، نثق بالغرباء، ولم نعد نسير بلا مبالاة في الإيست سايد. الآن عرفنا أن هذا الحي غابة تكثر فيها الوحوش، وتنمو فيها أنواع كثيرة من الفطر السام: منحرفون، ومدمنو مخدرات، ومثيرو فتن، وخطافون، وقطاع طرق.

الفصل الخامس

هل خلق الله البق؟

١

إنها تمطر. جلسنا باسترخاء كضفادع على درجات فناء العمارة الخلفي. كم هو ممل الجلوس في الفناء الخلفي. نحن الأولاد لم نكن لنعرف ماذا نفعل. ففي أيام المطر تبدو الحياة مطفأة.

كان المطر ساخناً ولزجاً، يقرع السقوف المعدنية كدمِ قاطع طريق، ويملأ فناء عمارتنا برائحة مزعجة، كأن أحدهم كان قد أفرغ هناك طناً من التفاح المتعفن.

مطر، مطر. كانت السماء تُطلُّ كألواح من الصفيح الرمادي من فوق حبال الغسيل على الشرفات، حبال ترفرف عليها قمصان زاهية الألوان وملابس داخلية تحت المطر. وأنا كنت أنظر إليها، وأستمع إلى ضوضاء ماكينات الخياطة، ورجع صدى ضعيف لطفل يبكي، كأنه يأتي من جزيرة مهجورة، وصوت أمه الأبح يجاوبه. جذع امرأة سمينة يطل من النافذة، مرفقاها كلحم خنزير مقدد، تنظر إلى المطر بعيون حزينة.

كوخ خشبي يحتل زاوية في فناء العمارة، إنه حمّام. دخل إلى هناك رجل ملتحٍ.

صوت ماشا تغني في البيت المجاور، فالعمياء تشعر بالحنين إلى بلدها، والأغاني الروسية تخفف مصائبها. وفي أحيان قليلة تشاركها الفتيات الأخريات في الغناء. في ليال كثيرة كنت أنام على صوتها. إنها تغني الآن وحيدة.

لم يكن ثمة شيء نفعله، إنها تمطر.

لقد تعبنا من اللعب بالكرات الزجاجية، والنرد، وكذلك من لعبة الدكاكين.

كان الفناء مكاناً مثيراً للفضول. ففي غابر الأزمان كان مقبرة، وقد استُخدم عدد من لوحات تلك القبور الأمريكية لرصف فنائنا اليهودي. كانت لوحات القبور تحمل تواريخاً تعود إلى ما قبل مئة سنة، ولكننا قرأناها كلها وقد تعبنا ونحن نستنبط حكايات خيالية حول هذه الآثار الأمريكية.

في إحدى المرات انتزعنا بلاطة قبر بيضاء. يا لها من مغامرة. نبشنا الأرض بأيدينا، كلصوص القبور، حتى وجدنا عظاماً بشرية متسخة ومتعفنة. يا لها من إثارة. أنا أخذت قطعة من عظام الركبة والساعد، كانت صفراء، وكذلك قطعة من جمجمة بالية. وخبأتها في زاوية سرية في بيتنا، بعد أن لففتها بقطعة خيش، مع كنوز طفولية أخرى.

ولكن البحث عن عظام كان يبدو مملاً اليوم. وكنا قد ضقنا ذرعاً من اللعب بالزوارق الورقية في المستنقع الدائم المتجمع تحت

أنبوب مياه الصرف. كانت مياه المستنقع لزجة بحيث يستحيل القيام بسباق حقيقي للزوارق الورقية.

فجأة، ظهرت قطة مزاريب إيست سايدية. رأسها منتوف وعظامها بارزة الأطراف وكأنها قطع من آلة غريبة. كانت حبلى تجر بطنها على الأرض، وهي تشم بقايا الطعام.

صرخنا. أخذت القطة تنظر حولها بكآبة، وكأنها تبحث عن صديق. داخَلَ القطة الأم الشك من صرخاتنا المبتهجة، فقفزت فوق حاوية قمامة وانتظرت، لم تقوّس ظهرها فقد كانت منهوكة وليس بمقدورها إظهار غضبها أو خوفها. انتظرت.

لحقنا بها كالعفاريت ونحن نرميها بالقاذورات. تسلقت القطة السياج بحركة هستيرية. سمعناها تهوي بعنف في الفناء المجاور. وهناك كان أطفال آخرون، قد أصابهم الملل يجلسون تحت المطر.

٢

ليس في هذا الحادث شيء للذكرى، ففي الإيست سايد توجد آلاف القطط. وإحدى أفراح الطفولة التي يشارك بها جميع الأطفال كانت تعذيب القطط وملاحقتها ورميها من أعالي السطوح، لنرى إذا كانت لها حقاً سبعة أرواح.

إنه عالم من العنف. لقد كانت هناك قطط كثيرة، وأطفال كثيرون.

عند جميع البوابات، هناك قطط تحوم وتناضل من أجل البقاء. وتتصارع حول حاويات القمامة، وهذه ليست قططاً متصنعة، متخمة، كتلك التي تعيش في بيوت الأغنياء، إنما قطط ضعيفة،

منبوذة، متشردة، متوحشة، ومجرمة. لها منظر مخيف، تملؤها القروح والجروح. جلودها قذرة ومغطاة بندوب لا يمكن تصورها. وعيونها تلمع كالبرق. إنها قطط يائسة، لدرجة أنها تهاجم الرجال أحياناً. وفي الليل تستنفر الجيران بصرخاتها المروعة، وكأنها تخطب في مؤتمر لساحرات مخبولات. أصوات موائها الملوعة التي تصدرها أثناء غرامياتها كانت تقطع علينا نومنا، وتجعلنا نبكي ونرتعش في كوابيس قططية. لقد كنا نعذبها، وكانت تعذبنا. إنه الفقر.

عندما يفتح أحدنا باب بيته. سيجد دائماً قطة تحاول الدخول. إنها قادرة على البقاء أياماً كاملة، مسمرة إلى جانب الباب، تشم رائحة البخار المنطلق من الطعام حتى تصاب بالجنون.

القطط الصغيرة، حديثة الولادة، كانت تموت بهدوء في كل زاوية، ضعيفة، عاجزة قبل أن تكون قد تعلمت اللعب.

أحياناً كانت أمي تقدم لقط مريض طبقاً صغيراً من الحليب، يلعقه متهيجاً بلسانه الصغير، ولكن كان لا بد من تركه مرة أخرى لقسوة الشارع. لقد كانت هناك قطط كثيرة، وكانت مصيبة تلك القطط عظيمة، بحيث لا تفيدها شفقة طفل عليها.

كنت ألحق تلك القطط مع الآخرين. لم أكن رحيماً معها يوماً. ولكنني في ذلك المساء الممطر، شعرت بحزن على تلك القطة الحبلى المسكينة. وأخذت أفكر: «هل خلق الله القطط؟»

٣

كثيراً ما كنت أفكر في الرب، لأن والديَّ كانا قد أدخلاني في

«تشيدر» وهي مدرسة دينية يهودية. كنت أذهب إليها مساء كل يوم، بعد أن أنتهي من المدرسة العامة الأمريكية.

ليس هناك جحيم نارية في الديانة اليهودية التقليدية، وهم لا يُعلمون الأطفال أن يعذبوا أنفسهم بالبحث عن الخطيئة، ولا الخوف من الغيب. ولكن كان على الصغار أن يحفظوا عن ظهر قلب صلوات طويلة وغريبة بالعبرية.

الحاخام موشيه كان أستاذي. إن هذا الرجل مثال لتعفُّن اليهودية التقليدية. ماذا يستطيع رجل كهذا أن يعلمنا. إنه أجهل من فأر. كان متسولاً نحيفاً، نتناً، لم يقرأ شيئاً في حياته، ولم يرَ شيئاً، ولا هو يعرف شيئاً على الإطلاق ماعدا تلك الثرثرة العبرية الميتة غير المفيدة، يدسها في رؤوس الأولاد بقوة السوط على أقفيتهم.

يلبس دائماً المعطف نفسه. معطف مقرف تملؤه البقع الدهنية والمخاط وشيء آخر أسود، لأن هذا المعلم المتدين لا يبدي غير الاحتقار للاختراع الحديث المسمى مناديل، فهو يتمخط على الأرض وبعد ذلك ينظف أنفه بكُمِّه. طعامه المعتاد يتألف من سردين وبصل. إن رائحة ألف بصلة تفوح من لحيته عندما ينحني ليعلم أحدنا «ألف، باء».

كان قاسياً كسجان. يجد لذة في قرص الأطفال بأظافره الطويلة كالملاقط. والسوط في يده يفرقع دائماً ليعاقب مذنباً. ورغم ذلك كان من المستحيل ضبط النظام في ذلك الجحر الجهنمي للقداسة اليهودية.

لقد داخلني الرعب عندما أخذني أبي إلى هناك. وبعد أن دفع

للحاخام موشيه خمسين سنتاً كأتعاب عن الأسبوع الأول، تركني ومضى.

في تلك السقيفة القديمة، المضاءة بمصباح غاز يمنح المشهد الغريب ضوءاً كضوء حفرة عظام. رأيتُ هناك ثلاثين صبياً يقفزون ويضجون كنمور محبوسة في قفص.

بعضهم يلعب بالخدروف، وآخرون يصفرون، وغيرهم يتشاجرون. وفي إحدى الزوايا هناك عدد منهم يركعون على ركبهم وينظرون إلى الأرض ويصرخون مولولين وكأن هنالك جثة: إنهم يلعبون بالنرد.

رآني أحد أولئك الأولاد فاقترب مني. ودون أن يتفوه بكلمة انتزع من ياقة سترتي زراً عليه صورة صغيرة لـ «و. ج. براين» فقد كان الأولاد يراهنون بلعبهم على الأزرار. وزر سترتي بدا لهذا الولد ذا قيمة، فأخذه دون أي صعوبة.

على منضدة مستطيلة، مخرَّمة بضربات سكاكين. كان الحاخام موشيه يجلس مع عشرة أولاد. إنه درس للمبتدئين. لم أتأخر في الانضمام إليهم. ومرة أخرى أخذنا نكرر الصلوات العبرية القديمة من أجل الرعد ومن أجل البرق، من أجل الخبز ومن أجل الموت. أصوات بلا معنى بالنسبة لنا. وبين حين وآخر يقرص الحاخام موشيه أحد الأطفال ويصرخ بصوت يطغى على كل الضوضاء: «بصوت أعلى أيها اللصوص الصغار. بصوت أعلى». لقد كان يجبرنا على العواء.

المرحاض الموجود في الممر له رائحة نتنة كرائحة جثة كلب.

وهناك ستارة من الخيش معلقة على طرف الممر تفصل بيننا وبين سكن المعلم. وقد كان الحاخام موشيه أباً تعيساً لخمسة أولاد. كنا نسمع صوت امرأته العنقاء وهي تؤنبهم. دائماً بصل مقلي للمعلم.

لحيته السوداء كالحبر تشكل إطاراً لوجهه الأبيض النحيف الذي يبدو كوجه جثة، ورأسه مغطى بقلنسوة. عيناه تلمعان وتتحركان بلا توقف كعيني غول به ظمأ لدم الأطفال.

كرهت ذلك المكان. وفي أحد الأيام، حاول المعلم أن يضربني. ولكني بدلاً من أن أُظهر الخضوع المعتاد، هربت إلى البيت. لقد غضبت أمي وقالت لي:

- عليك أن تعود. أم أنك تريد أن تبقى جاهلاً طوال حياتك؟

- ولكن لماذا يجب عليَّ أن أحفظ كل تلك الكلمات العبرية؟ إنها لا تعني شيئاً يا ماما.

فأجابت أمي بصرامة:

- إنها تعني الكثير، فهي كلمات الرب، وبها يريدنا أن نصلي له.

سألتها:

- من هو الرب، ولماذا علينا أن نصلي له؟

قالت أمي بوقار: إنه الذي خلق الكون، وعلينا أن نطيعه.

- أهو الذي صنع كل هذه الأشياء؟

- أجل، كل الأشياء، لقد صنع الله جميع ما في هذا العالم.

أذهلني ذلك. ورجعت إلى المدرسة الدينية، إلى «التشيدر»، ووسط تلك الصرخات البربرية، كنت أفكر دائماً برب والدتي.

ذلك الشخص الغريب الذي علينا أن نتوجه إليه بالعبرية، ذلك الذي يقيم في السماء وقد خلق كل الأشياء الموجودة على الأرض.

٤

كانت أمي شديدة الحنان، وجهها يشرق بوقار وجاذبية عندما تتحدث عن ربها. الجميع كانوا يتحدثون عن الرب: ميندل بام، وفيفكا الطماع، وخالتي لينا، وجاك وولف صاحب الحانة، والبوابة السمينة، والسيدة الأشكنازية صاحبة دكان المظلات، وموتيك الأعمى، وهاري القواد. جميعهم كانوا مهتمين بالرب. يبدو أنه مسألة مهمة. وعندما أصبحت أعي كان مهماً بالنسبة إليَّ أيضاً.

لا أستطيع أن أنتزع من رأسي فكرة أن الله صنع جميع الأشياء. إن طفلاً يحمل معه أفكاراً كهذه دون وعي، بالطريقة نفسها التي يحمل بها جسده، ثم تنمو هذه الأفكار بداخله، ويبقى صامتاً لا أحد يدري لماذا، حتى هو نفسه لا يعرف السبب. إنه يفكر، وفيما بعد، في يوم ما، سيتكلم.

٥

في مرآب العربات الذي بشارعنا، كان هناك حصان عجوز. لقد كنت أحبه كثيراً. ففي كل ليلة يرجع منهوكاً من جرِّ العربة، ولكنهم لا ينزعونها عنه في الحال. فقد كان فاسا يبقيه منتظراً لساعات وساعات في الشارع.

كان الحصان يجوع، ولهذا كان يسرق تفاحاً وموزاً من العربات عندما يسهو البائع، إن العصي والركلات التي كانوا

يوجهونها إليه لم تكن لتنفع في إجباره على ترك تلك العادة السيئة، كان عليهم أن يقدموا له العلف بسرعة بعد يوم عمل قاس. ولكن أحداً لم يكن يهتم به. كان قذراً يأكله الذباب وتملأ جسده القروح. كانوا يلقبونه غانوف، إنه حرامي شارعنا العجوز.

كنت أسرق سكراً من البيت لأطعمه، وأمسح له بوزه الرطب، وجذعه الرمادي، وشعر عنقه المتشابك. فكان يهز رأسه وينظر إلي بعينيه الواسعتين الوديعتين، لم يكن يهز رأسه مطلقاً للأولاد الآخرين. وكانت تذهلهم سلطتي على غانوف.

إنه حصان طيب وحنون، حتى إنه كان حكيماً على نحو ما. فمثلاً: كان جيم بوش يسيء إليه. وجيم بوش هذا إرلندي قصير، كسيح ومنفعل. كان يكسب عيشه لقاء قيامه بأعمال مشبوهة للعاهرات. كان رجلاً قوياً ومربوعاً في النصف الأعلى من جسده فقط. قميصه الأزرق يغطي أكتافاً وسواعد مفتولة، ووجهه أحمر مثير للفضول كوجه شرطي، ولكن ساقيه كانتا معوجتين كساقي طفل.

كان جيم يروي نكاتاً غير مهذبة للفتيات. عادة يكون مهذباً في صحوه، ولكنه حين يكون مخموراً يقاتل الجميع، يُفلت عكازيه ويلقي بنفسه على هذا أو ذاك، ويبقى معلقاً بعنق خصمه وبه رغبة في خنقه بيديه القويتين، ويستمر هكذا حتى يُغمى عليه من الضرب. كان يبدأ دائماً إثارة مشاكله بالإساءة إلى غانوف.

يبدو أنه كان يحقد على غانوف. لماذا؟ لست أدري. ربما لكي يستعرض قوته.

كان طول جيم بطول طفل ذي سبع سنوات. بعينيه المحتقنتين، وفمه المزبد، ينهال بالشتائم على غانوف، يتقدم

الحصان فيضربه جيم بعكازه على أنفه. ثم يمسك باللجام ويشده حتى يجرح فم الحصان المسكين.

كان الحيوان التعيس يتحمل بصبر، وينظر من أعلى نحو الأفكح الضئيل، فيبدو وكأنه يفهم. كان باستطاعته أن يرفس أي شخص آخر، ولكنني أعتقد أنه يعرف أن جيم أفكح.

في أحد أيام الصيف، وخلال العمل، وقع غانوف. فكوا عنه اللجام وصبوا دلاءً من الماء على جسده حتى استطاع النهوض. وعلى الرغم من إنهاكه فقد جر العربة حتى المرآب، وهناك انتظر كالعادة أن يفكوه، ولكنه سقط وهو يخور. لقد مات في شارعنا. انتفخ جسده كالبالون، تركوه مرمياً في الشارع يوماً كاملاً حتى حضرت عربة وسحبته إلى المزبلة.

عندما يسقط حصان ميت في وسط الشارع، يتحول إلى لعبة، يأتي ليضيف لعبة جديدة إلى مجموعة ألعاب أولاد الإيست سايد الغريبة.

التفَّ هؤلاء في ذلك اليوم حول غانوف وهم يقفزون فوق جسده المنتفخ، ويدسون العيدان في أذنيه، ويرفعون جفونه ليتأملوا تلك العيون الحزينة، أو ينزعون شعر ذيله ليحيكوا به التعاويذ.

الذبابات الكبيرة، الزرقاء والصفراء، كانت تحوم أيضاً فوق جسد صديقي العجوز الطيب. تطن وتغني بسعادة ثائرة وهي تهاجم تلك المأدبة الرهيبة التي بعثها إليها إله الذباب.

وقفت هناك دون أن أدري ما أفعل، حاولت أن أبكي من أجل غانوف المسكين. وفكرت: هل الله هو الذي خلق غانوف؟ لماذا إذاً تركه يموت؟ والذباب، هل خلقه الله أيضاً؟

ملايين الذباب في الإيست سايد تجعلنا كمجانين في الصيف وهي تمتص جفوننا، وتغرق في كؤوس حليبنا.

لماذا؟؟؟

٦

هل خلق الله البق؟

في إحدى ليالي الحر الخانق، لم يدعني البق أنام. كان يفرز رائحة غريبة مقرفة. إنها رائحة الفقر. كانت تلك الحشرات تتجرجر مختالة ببطء وهي منتفخة بالدم. إن رائحة تلك الطفيليات الكريهة تستفز أعصابنا كلها.

البق هو ما يتبادر إلى تفكير الناس عندما يتحدثون عن الفقر. هناك كثير من الكتّاب الحذرين والسطحيين الذين يكذبون كثيراً في أمريكا. أنا سأكتب كتاباً حول الفقر، وسأذكر فيه البق.

هذا لا يعني أن بيتنا تنقصه النظافة. فأمي كانت نظيفة، كأي ربة بيت ألمانية، تعمل حتى تهلك لتحافظ علينا معافين ونظيفين. ولكن البق كان صداعاً لها. فهي تُشبع الأسرَّة بالكيروسين، وتبدل الأغطية، وتنشر الفراش في الشمس. إنها حرب جنونية لا تنتهي ضد البق. ولكن ذلك كله بلا فائدة. لم يكن ثمة وسيلة، إنه الفقر، إنها العمارة المكتظة بالسكان.

يعيش البق ويتكاثر في الجدران المتعفنة، مع الفئران، والقمل والصراصير. كان من الضروري هدم العمارة بكاملها. أما بعبوة الكيروسين فلا يمكن عمل شيء.

في ذلك الصيف مرّ أسبوع من الحر الرهيب. كنت مريضاً

وحرارتي مرتفعة، أتململ وأتقلب في الفراش بينما القطط تموء في البهو. وتوصل البق إلى إيقاظي، كان يمشي في كل الجهات، لا أستطيع أن أشرح يأسي وقرفي وغضبي في ظلام الغرفة عندما شعرت بالبق فوق جسمي يقرصني. بكيت بضعف. فاستيقظت أمي وأشعلت مصباح الغاز، واستأنفت معركتها مع البق. دون طائل. رائحة الكيروسين كانت تخنقني. وقد حاولت أمي تهدئتي، وطلبت مني أن أنام، ولكن رأسي كان يدوي كآلة خياطة. سألتُ والدتي:

- ماما، لماذا صنع الله البق؟

ضحكت من هذا السؤال الطفولي الغريب. بعد ذلك كان سؤالي بمثابة نكتة بين أفراد العائلة والجيران. ولكن من أجاب على هذا السؤال؟ هل إله الحب هو ذاته الذي خلق البق؟ وهل هو من أوجد الألم والفقر في الدنيا؟

كيف فعل الرب كل ذلك. إن حصاناً كالمسكين غانوف ما كان ليقوم بأعمال كهذه.

الفصل السادس

الطماع والمتشرد

١

لم أكن أفاجأ كثيراً إذا استيقظت في الصباح ووجدت في سريري عائلة من المهاجرين الجدد بملابسهم الداخلية الغريبة.

إنهم شاحبون ومنهكون، تصدر منهم روائح مبيدات، بالإضافة إلى تلك الرائحة التي كانت تسبب لي الاشمئزاز كما يفعل معي زيت الخروع.

أمتعتهم مبعثرة في الغرفة، أكياس مخططة، حزم من فرش النوم ترتفع كنُصب تذكارية، وطناجر، وأدوات طهي، وثياب فلاحية بيضاء جميلة، ومناشف مطرزة الأطراف، ومعاطف سميكة كأنها بطانيات.

جميع بيوت الحي كانت كبيتنا: صخرة بلايموث، تقدم الضيافة إلى أن تستأجر العائلة الجديدة شقتها. في العادة يجلس المهاجرون حول المائدة في غرفة الطعام، ويطرحون أسئلة لا تنتهي حول أمريكا. يسردون الأخبار السيئة عن البلاد التي جاؤوا منها (الأخبار كانت سيئة دائماً). في صباح اليوم الأول ينهمكون في

البحث عن عمل. ويحذرهم الجميع من النفخ على غاز الإضاءة لإطفائه (القسم الأكبر منهم لم يكن قد رآه من قبل). يمضون في شارعنا جيئة وذهاباً، وهم ينظرون إلى الشرطة، ويتطلعون إلى الحانات مدهوشين بأمريكا. ويكتشفون أشياء. يتغامزون فيما بينهم، ويقومون ببعض الحماقات.

بعد عدة أيام يتركوننا وهم يشكرون، ولكن بعضهم كان يبقى مدة طويلة يأكل من طعامنا. لا تعتقدوا أن هذا كان يُسرُّ والدتي. فقد كنا فقراء لدرجة لا تسمح لنا أن نكون كرماء. كانت والدتي ترى الطاعون في شخص مثل «فيفكا الطماع». تدمدم، وتزمجر، وتشتم، وتبصق، ولكنها لم تطلب منه أبداً أن يترك البيت. لم تكن تعرف كيف تقول له ذلك.

٢

ليس من السهل تصور أي نوع من الرجال كان فيفكا الطماع هذا. لم نكن حتى نعرفه عندما أتى من جزيرة إليس. قال إنه كان صديقاً لابن عم أحد أصدقاء والدي في الطفولة. وكان يحمل معه عنواننا واسم ذلك الشبح البعيد المجهول كلياً: صديق لابن عم أحد الأصدقاء من رومانيا ولا شيء أكثر. لم يعجبنا منذ اللحظة الأولى، ولكنه ظل طوال سبعة أشهر يأكل وينام في بيتنا المجاني.

كان سميناً ليس في وجهه أي ظرافة، له أنف جمل، وخصلة من شعره الأسود تتهدل على جبهته فوق عينين لامعتين وسوداوين كعيني قرد. إحدى ذراعيه ملتوية. وهو لا يغتسل أبداً، ولا يقول كلمة تبعث المرح، يحك جلده دوماً، ولا ينظف أنفه أبداً.

وجد فيفكا عملاً في مشغل سراويل، بعد أسبوع من وصوله، بأجر جيد بالنسبة لمهاجر جديد: ثمانية دولارات في الأسبوع. وكان يعمل منذ السادسة صباحاً حتى السابعة مساء، وكل صباح يشتري رغيفي خبز ببنس واحد. فيتناول رغيفاً منهما وكأساً من الماء كفطور، وللغداء يأكل الرغيف الآخر مع قطعة سمك مقدد تساوي ثلاثة سنتات.

وفي كل ليلة، في اللحظة التي نبدأ فيها بالانتهاء من العشاء يصل فيفكا إلى البيت ويجلس كئيباً على الكرسي نفسه دائماً، في إحدى زوايا الغرفة، وينظر إلينا ونحن نأكل. لا يتفوه بأي كلمة، وإنما يكتفي بالنظر. وهذا كان يجعلنا عصبيين، نبتلع الطعام ونحن نشعر بوجود ذلك الوجه الحيواني الأخرس والمقطب.

عندما يصبح التوتر شديداً، ويمسي الحديث حاداً بسبب الصمت الغريب، ينهض والدي عن المائدة ويقول بمرارة وكأنه قد هُزم في عراك:

- هيا يا فيفكا، اقترب وكل شيئاً بالله عليك، فما يزال هناك قليل من اللحم.

فيقترب فيفكا بكرسيه ويأخذ بازدراد الطعام وهو يرمقنا بطرف عينه متصنعاً ككلب.

هذا كان يحدث في كل ليلة بالطريقة نفسها، كدور مسرحي مدرب عليه جيداً. ومن الغريب أن فيفكا ووالدي لم يملا من تلك الإعادة. في إحدي الليالي لمَّحت له أمي بأن يترك البيت، فأخذ يرثي لحاله ويبكي قائلاً إنه لا يملك نقوداً. والدي كان يهدد (عندما

نكون وحدنا) بأنه في يوم لا نحسب حسابه، سيمسك فيفكا من ياقته ويلقي به إلى الشارع، ولكنه لم يفعل ذلك قطُّ.

فيفكا لم يدفع لنا أية أجرة. ولم يكن يستبدل قميصه، كان يلبس الثياب نفسها التي ارتداها عندما عبر المحيط، ولم يكن يخرج في نزهات ولا يذهب إلى الحدائق أو المسرح، ولا يدخن، ولا يشرب، ولا يأكل الحلويات. لم يكن بحاجة إلى شيء من هذا كله.

بهذه الطريقة وبدولاراته الثمانية في الأسبوع، وخلال الشهور التي استغلنا فيها، استطاع ادخار مئتي دولار. كان قد سمع بروتشيلد، فأراد أن يدخل مجال الأعمال. إن الفقر يودي بالكثيرين إلى الجنون.

٣

فيفكا الطماع، ذلك الحالم. ذلك الكابوس المتحدر من الفقر. ذلك القرد المضحك، بساعده الملتوي وعينيه اللامعتين الكئيبتين، حاوية القمامة تلك، ذلك الروتشيلد ذو القميص القذر، ذلك المجنون ذو القبعة البالية. ولكن كان لذلك الكمال ضعفه الخاص: فهذا الوحش بحاجة إلى امرأة.

كان آكل اللحم البشري ذاك يشعر بعذاب الصراع الرهيب بين الروح والجسد.

الإيست سايد كان يدار في ذلك الوقت من قبل تاماني هول باعتباره منطقة دعارة. فقد كان شارع طفولتي، كما قلت، سوق نساء سيئات السمعة، متبرجات، يلبسن الكيمونات، ويحترفن أقدم

تجارة في العالم. دكاكين، وشقق، وغرف مفروشة، وحتى شوارع ضيقة بكاملها كانت تقدم السلام لجسد آكل لحم البشر ذاك.

ولكن الأمر يكلفه نقوداً، والطماع ينظر إلى النساء المنشغلات ليلة بعد ليلة، إلى أن لم يعد قادراً على الصمود لوقت أطول، لقد توصل إلى التعرف على بعضهن: يعانقهن، يغمز لهن بعينه عندما يمر، ويتوسل معروفهن. لقد تحول إلى مهزلة الحي - المجنون الذي يريد امرأة. ولكنه كان بخيلاً بمغالاة لا يمكنه معها دفع الثمن المعروف: خمسون سنتاً.

- ها ها ها. الليلة حاول فيفكا أن يلمس سارة البدينة في الممر، ولكنها صفعته وبدأت تصرخ. - قال ميندل بام ساخراً بينما نحن نتناول العشاء، ثم تابع موجهاً حديثه إلى فيفكا:

- سيطعنك القوادون يوماً بسكين بسبب تصرفاتك.

- كذب، هذا كذب. أنا لم ألمسها. النساء لا يرقنني، فهن لا يسعين إلا إلى سحب النقود. - صرخ المتوحش.

فقالت أمي:

- لا تتكلموا في هذه الأمور أمام الأولاد.

وقال ميندل وهو يغمز لوالدي:

- قدّم لهن النقود إذاً يا فيفكا. فلهذا وجدت النقود، وليس لإخفائها في زاوية لتأكلها الفئران. لقد وُجدت النقود كي نتمتع بها. أنظر إليَّ كم أنا سمين، وكم هي جيدة صحتي، كل ذلك لأنني أنفق نقودي.

نظر فيفكا بغضب وحقد على ميندل المرح، مما جعل أوتار عنقه تنتفخ. لقد كان الطماع يرتجف من الحقد:

- هذا كذب. ليس لدي نقود. أنا لا أوفر نقوداً، لماذا تشيع عني هذه الأكاذيب. أنت كاذب ومتشرد محتال، نعم أنت متشرد.

فقال ميندل مبتهجاً:

- طبعاً، أنا متشرد. ولهذا يحبني الجميع يا فيفكا، أما أنت فطماع، والجميع يكرهونك، أليس كذلك؟

فزمجر فيفكا كقرد:

- أخرج من هنا واهتم بشؤونك فقط.

ضحكنا جميعاً من غضبه المضحك، فنهض عن المائدة وانصرف.

- لا تتكلموا بهذه الأمور أمام الأولاد - قالت والدتي.

ولكنهم كانوا يتحدثون أمامنا في جميع الأمور. وكنا نسمع كل شيء ونتعرف على هذا العالم الغريب.

٤

ميندل كان بحاراً في السابق، وعلى ذراعه اليسرى القوية وشم مرساة. إن الوشم محرم عند اليهود، فالجسد يجب أن يرجع إلى الله كما خلقه. وكان ميندل يأكل لحم الخنزير أيضاً، ويقوم بأعمال أخرى محرمة على اليهود. وفي شتاء إحدى السنين، توَّج ذلك الكفر كله بالخطيئة الكبرى، حيث ذهب إلى جميع الهيئات التبشيرية المسيحية في بويري ليعمدوه في كل واحدة منها على التوالي، وكان يأخذ منهم نقوداً وأكياساً من البطاطس وملابس وأشياء صغيرة مختلفة، وكذلك فرصة لتعلم العزف على البوق.

ارتعدت أمي عندما علمت كيف حصل ميندل على الخضروات التي أحضرها لها، فقالت له:

- احمل في الحال هذه البطاطس المسيحية من بيتي.

سألها ميندل بدهاء:

- أليست كل البطاطس جيدة عندما يكون أحدنا جائعاً؟

- كلا. إنك تبيع روحك اليهودية من أجل كيس بطاطس، وتسمح لهم بأن يعمدوك. هذه خطيئة عظيمة يا ميندل. لو عرفت أمك بهذا فإنها ستموت.

- كيف ستعرف وهي تعيش في هنغاريا؟ هل سأخبرها أنا بذلك؟ ـ سألها ميندل ثم قال متابعاً:

- من الذي يقول إنني معمد؟ كلا أيتها السيدة، أنت مخطئة، فأنا لن أتخلى عن يهوديتي مقابل أي شيء. كل ما فعلته ببساطة ليس سوى طريقة لكسب لقمة العيش، فأنا الآن بلا عمل، هل تريدينني أن أموت جوعاً بينما هؤلاء المسيحيون - لتأخذهم صاعقة - يجنون فرحاً لتعميد اليهود؟ حتى إنهم يدفعون مقابل ذلك؟ وهكذا فإن كل ما أفعله هو خداعهم. أقول لهم أن يرشوا رأسي بمائهم، وبينما هم يفعلون ذلك أطلق عليهم اللعنات في سري قائلاً: ليذهب معبودكم إلى الجحيم، وليذهب ماؤكم المقدس إلى الجحيم. وعندما ينتهون أحمل بطاطسي وأمضي وأنا ما أزال ميندل نفسه الذي تعرفين: يهودي بين اليهود.

وكانت والدتي، كالجميع، ترتبك أمام ثرثرة ميندل المنطقية:

- والتعميد، ألا يعني شيئاً؟ ألازلت يهودياً يا ميندل؟

- طبعاً، أنا يهودي مغلوب على أمره، يهودي طيب. والآن إنها بطاطسي. إنها بطاطس يهودية. ولكنني أعاهدك على أني لن أتعمد مرة أخرى.

ميندل يعيش معنا فترتين في السنة. وذلك عندما يتخلى عنه الحظ كمتشرد. وهو يعمل أي عمل: بائع إبر خياطة في الشارع، وممثلاً هزلياً في فرقة مسرحية، وقد سجل اسمه للحرب الإسبانية - الأمريكية، ولكنه هرب قبل أن يبدأ القتال. وكان مع رعاة البقر والهنود الحمر في الغرب. اشتغل في المناجم، وعمل حلاقاً في ريو دي جانيرو، وسجيناً في «تشاتانوغا» و «تنسي»، وبائع ليمونادة في سيرك تركي في جزيرة كوني، ومدير ناد للقمار. وألف عمل آخر.

الجميع يحبونه، بمن فيهم أمي. فقد كان قوياً ومرحاً. شعره أحمر وعيناه زرقاوان، وله شارب. وهو يأتي بنفحة من حياة المغامرات إلى بيوت الإيست سايد الهادئة. وكان اليهود يبتهجون لأن ميندل يستطيع خداع الأمريكيين بحيله، وكان ينال إطراءهم لأنه كثيراً ما يظن البعض أنه أمريكي حقيقي ومع ذلك كان يتكلم البيدية وكان مخلصاً لعرقه.

الفصل السابع

الدبة الشقراء

١

والدي الذي يعمل دهاناً كان رجلاً طويل القامة، مرحاً، له شارب ضارب إلى الحمرة وعيناه خضراوان واسعتان تنظران إلى الدنيا بدهشة، كعيني طفل. وكان مزاجياً بعض الشيء، مما يضطر أمي إلى توجيهه باستمرار.

حاولت والدتي، بواقعيتها الأنثوية، أن تنتزع من رأسه أحلامه الذكورية الغبية. ولكنها لم تتوصل إلى أن تجعل من أبي إنساناً جدياً. إنه رجل كالزئبق.

ولد قريباً من مدينة ياش في رومانيا. وتشرد على ضفاف الدانوب، وعبر البلقان. عاش في الأحياء الفقيرة في القسطنطينية، وانضم إلى عصابة مهربين يهود تعمل في تهريب التبغ من تركيا إلى رومانيا.

بين حين وآخر كان يقص علينا حكايات عن أيام شبابه. وكنا نحن الصغار نبتهج بسماعها.

كان والدي قصاصاً فريداً. ولو أنه تلقى تعليماً، لتوصل إلى أن

يكون كاتباً عظيماً. كنت أحسده في ذلك الحين. ولم أزل أحسد ذكاءه الفطري.

خلال سنوات عديدة كنا، أختي وأنا، ننام بينما هو يقص علينا قصصاً خيالية. كان ينبوعاً لا ينضب. ففي كل ليلة، في السقيفة المظلمة، بعيداً عن الأصوات المنبعثة من البيوت المجاورة كنا نستمع إلى حكاية جديدة.

بعض تلك القصص كانت تفتنني وتثيرني في صباي. وبعد سنوات من ذلك قرأتها بتململ في كتاب. وكان كتاب «ألف ليلة وليلة» لا أكثر ولا أقل.

ولكن أبي لم يتعلمها من كتاب. كان قد سمعها من شفاه رواة محترفين في الأسواق الشرقية ومن فلاحين أتراك ورومانيين.

٢

كان والدي اجتماعياً بصورة مثيرة. ويحب، مثل الكثير من اليهود، أن يأكل، وينام، ويضحك، ويبكي بين حشد من الناس. وإذا ما شعر أنه وحيد فإنه يحزن ويُخيل إليه أنه مريض. في كل ليلة، يجتمع في بيتنا أصدقاء والدي، وهم دهانون، وباعة متجولون، وخياطون ويهود آخرون يناضلون من أجل الاستمرار في الحياة في هذه الأرض الموعودة.

كانوا يتشاجرون وهم يلعبون البوكر. وأحياناً يشربون الشاي ويتفلسفون. وفي أحيان أخرى يذهبون إلى الحانة ليحتسوا النبيذ.

كثيراً ما كان والدي يقص علينا الحكايات. بعض تلك الحكايات كانت تدوم أسابيع، بمعدل خمس أو ست ساعات كل

ليلة. لم يكن أحد يشعر بغرابة معرفة والدي مئات الحكايات. هو نفسه كان يعتبر ذلك أمراً طبيعياً كالتنفس. إن هؤلاء اليهود المتحدرين من عائلات مزارعين أوربيين يرثون الفن مع مزرعة أبيهم، ويرون أن ذلك من حقائق الحياة البسيطة.

لوحة غريبة. والدي ممدد على الأريكة يدخن غليونه، نور مصباح الغاز خافت - لتقليص حساب الغاز - وتحت الضوء الباهت، هناك دزينة من العمال الفقراء يستمعون إلى والدي وهو يروي الحكايات الشرقية التي يزيد عمرها على الألف عام.

صوته يأتي من خلال الظلام، يتبدّل إيقاعه حسب أحداث القصة. صوته الآن وحشي مع الوقع الصامت لجلاد القسطنطينية، بعد ذلك صوتٌ رقيق كصوت صَبيَّة الثلج أو أمير الجبال الشاب الواقع في الحب. ثم صوت عويل عجوز ساحرة أو صراخ عملاق تركي مخمور. لقد كانت لوالدي سمات ممثل.

أختي وأنا لم نكن نتعب أبداً من حكاياته. الكواؤون ودهانو البيوت يبدون مفتونين مثلنا. حتى أمي، الواقعية جداً، كانت تجلس لتستمع. بعض الجيران يدخلون. بينهم مُسنون بلحى رمادية يحملون علب نشوق، وربات بيوت بمرايل المطبخ، ورجال ونساء يستمعون إليه وهم منوّمون كالأطفال.

بعد الانتهاء من كل حكاية يخوضون في نقاشات طويلة كالأطفال المهذبين. يتحدثون عن أوغاد في جبال سحرية، وعن مصابيح تحقق الأمنيات. وكأن تلك الأساطير أمور حقيقية مثل المصانع وحاويات الزبالة.

٣

أعتقد أن والدي كان يؤمن ببعض قصصه. وإحدى قصصه المفضلة تدعى: الدبة الشقراء. فهو يقصها بكثرة وببراعة وحرفية أكثر من الحكايات الأخرى.

مازلت أرى حتى الآن، على الشريط المطبوع في مخيلتي، ذاك المشهد على سطح عمارتنا عندما استمعت إلى هذه القصة أول مرة.

ليال كثيرة كنا نصعد إلى السطح، وبينما والدي يقص حكاياته كنا نأكل سندويشات السجق ونشرب البيرة.

القمر يلمع في السماء السوداء التي تغطي نيويورك. ووجه أبي يشع بسحر على ضوء النجوم، كان يدخن سيجاراً. ووراء ظهره ترتفع مداخن العمارات وناطحات السحاب.

كان يتكلم برقة وجاذبية كالمعلم، فهو يعرف سطوته، ويصل إلى درجة غريبة من الوقار عندما يروي قصصه. وعلى السطح، كان سحره يتضاعف على ضوء القمر والنجوم.

بدأ قصته بهدوء وعذوبة:

- منذ زمن بعيد، كان يعيش في بريسكو صياد - وبريسكو هي قرية صغيرة في رومانيا، قريبة من قريتي، على ضفاف نهر فيد - وفي صباح يوم شديد البرودة خرج ذلك الصياد، يشق طريقه وسط الثلج الذي يغطيه حتى خصره، بينما الصقيع يعض ثيابه الرثة كأسنان كلب. كان ذلك الصياد يكره البرد، لأنه يذكّره بالفقر. فوالده فلاح روماني، وأمه صبية تركية. وكثيراً ما كانت أمه تقول له في طفولته:

- يا بني، عندما تكبر عليك أن تذهب إلى تركيا. فالمناخ هناك في الجنوب، دافئ، والأزهار تتفتح في يناير والعصافير تغني، هناك لا يوجد فقراء. الجميع يملكون ما يكفي. عاهدني أن تهرب إلى تلك الأرض. أريد أن أراك سعيداً.

عاهدها الصياد على ذلك. وظل يحلم على الدوام بالذهاب إلى هناك. ولكنه تزوج، وصارت له أسرة، وأحس أنه وقع في فخ. فكيف سيأخذ عائلته إلى تركيا وهو لا يملك نقوداً؟ كان فقيراً لدرجة أنه لا يملك شبراً من الأرض.

ولهذا السبب كان متضايقاً في ذلك الصباح البارد وهو ذاهب للصيد. وكان يمضي مرتجفاً من البرد وحالماً بالجنوب. وفجأة، في غابة قريبة من قريته، لاحظ آثار دب كبير. لحق بالآثار على الثلج حتى وصل إلى كهف، دخله وهو يوجه بندقيته إلى الأمام.

وكان ما وجده هناك، ثلاثة دببة صغار يلعبون. أراد أن يقتلهم ويختبئ ريثما تحضر الأم. عندئذ دخلت هذه. كانت أروع وأكبر دبة رآها في حياته. لفروها لون سبائك الذهب. ارتعش الصياد من الرهبة، ورفع بندقيته ليقتلها. وفي الحال كلمته الدبة الشقراء بالرومانية.

شبكت مخالبها وكأنها تصلي، وقالت بصوت أمومي معذب:

- أيها الصياد الطيب، أعرف أنك فقير، وعليك أن تقتلنا لتوفر الطعام لعائلتك، ولكن أرجوك أن تعفو عن صغاري وسأعطيك ما تشاء. فأنا أعرف أسراراً سحرية لا يعرفها أحد غير الدببة الشقر، وأستطيع مساعدتك.

سألها الصياد:

- أتساعدينني على الذهاب مع أسرتي إلى تركيا، وإيجاد أرض أزرعها هناك وأعمل فيها؟

فقالت الدبة الشقراء:

- أجل، إذا عفوت عن صغاري. ولكنها ستكون رحلة خطرة، فهناك في الطريق ساحرات شريرات ومشعوذون وقطاع طرق. ولكني أعاهدك بأن آخذك إلى تركيا، وأعدك أيضاً أن لا ينقصك المال طوال حياتك.

- موافق. قال الصياد.

٤

قصة الدبة الشقراء هذه دامت ثلاثة أسابيع، فالطريق إلى تركيا كان مليئاً بالأحداث والمفاجآت. والحكاية هي الخرافة الأبدية عن إنسان تحدث له الحوادث الطيبة بفعل السحر. جميع الفقراء يؤمنون بقوة السحر ويظنون أنه في يوم ما سيحدث لهم حدث رائع يبدل حياتهم، ووالدي كان واحداً منهم.

لهذا كان يقص هذه الحكايات ويحس بها. وأنا أذكر أني سمعتها على سطح بيتنا تحت سماء نيويورك المفعمة بالنجوم، وكانت ناطحات السحاب تحجب القمر وتبدو كسفن عظيمة راسية بمصابيحها الحمراء والبيضاء. وكانت تهب نسمات جنوبية دافئة من ناحية المحيط، بينما تأتي من جهة الشارع ضجة المرور التي تدوي كطبل.

إن والدي وأصدقاءه، وهم عمال يدويون دون ثقافة، يشعرون بحب جارف للمسرح. بعضهم كان يذهب عشر مرات أو عشرين مرة لمشاهدة إحدى المسرحيات الكوميدية. وكان كل واحد منهم يعتبر نفسه ناقداً مسرحياً بارعاً.

لقد كانت لوالدي، بذاكرته الاستثنائية، ميزة على الآخرين. فباستطاعته إعادة مشاهد كاملة من أعمال مسرحية شاهدها، وبإمكانه حتى أن يمثلها بإتقان.

الدراما المفضلة لديه كانت مسرحية «اللصوص» لشيلر، وهو يتفاخر بأنه شاهدها أربعاً وثلاثين مرة، بالييدية، وبالألمانية، وبالروسية، وبالرومانية. ويستطيع أن يعيدها تقريباً من مطلعها حتى نهايتها.

ومن المسرحيات الأخرى التي كانت محببة إليه: «النزل» لغوركي، و«النساجون» لهوبتمان، و«سوناتا كريتزر» لتولستوي، و«الساحرة» لغولدفايدن - وهي دراما موسيقية لطيفة وساذجة - و«هاملت».

هذه الأعمال المسرحية وأخريات مثلها كانت ذات شعبية بين اليهود منذ سنوات. الخياطون يعيشون مع شيكسبير. لقد تَأَمْرَكَ المسرح اليدي اليوم، فهو ينتج أعمالاً تحاكي مسرحيات برودواي الغنائية.

بينما كان أبي في طريقه إلى أمريكا، خطرت له الفكرة

الفضولية التي اعتقد على أساسها أن مسرحية شيلر «اللصوص» غير معروفة في أمريكا، وهيأ نفسه ليقدمها على المسرح.

وخلال عاصفة استمرت أحد عشر يوماً، كتب والدي المسرحية باللغة اليدية، بقلم رصاص على ورق رسائل.

وعندما استقر في نيويرك بدأ يحاصر الممثل اليهودي الشهير موجيلسكو ليأخذ منه موعداً، وحين توصل إليه، حاول والدي أن يقرأ المسرحية على الممثل الكبير.

انفجر موجيلسكو بالضحك وقال:

- هذه المسرحية موجودة في قائمة أعمالي. هل تعتقد أن مسرحية بهذه الشهرة يمكن أن تبقى مجهولة في أمريكا حتى الآن.

انسحب والدي مشتتاً. وظل طوال ما تبقى من حياته يروي هذه الحادثة ثم يتبعها بقوله: «دائماً كنت أصل متأخراً».

أنا أعتقد بأن والدي كان يفكر أحياناً أنه هو المؤلف الحقيقي لمسرحية «اللصوص» وأن موجيلسكو قد خدعه.

الفصل الثامن

العروس الموعودة

١

أختي إستر ترقد في سرير، وأنا في الآخر. وفي غرفة النوم المظلمة يلمع لهب مصباح الغاز الخافت. كانت الساعة الثانية عشرة، فالأطفال في الإيست سايد ينامون في الوقت نفسه مع الكبار.

كانت جفوني مثقلة من النعاس. أختي أيضاً كانت تغالب النوم، بينما والدي يقص علينا حكاياته. سماعه كان كحلم يقظة، وهو يتكلم بصوت متواصل. الحكاية تتغلب علينا وتتحول إلى شيء يحدث لنا في الأحلام.

والدي يجلس على كرسي بين السريرين، يدخن غليونه، وبين الحين والحين يمسح بيده على وجه إستر ووجهي.

كانت ضجة الفناء الخلفي تدخل إلى غرفتنا. وببغاء السيدة فينغرمان تصرخ بصوت قرصان، الباب المعدني لإحدى الدكاكين يصر. امرأة كانت تنشر الغسيل، وطفل يبكي، وحديد السطح يقرقع باستمرار، والماء ينساب بكسل على جدران البهو. صوت صحون تتصادم وضجيج ماكينة خياطة.

وتحت هذا الضجيج كنا نسمع ضوضاء حركة المرور في الشوارع، بينما والدي يقص علينا قصة حياته.

٢

قال والدي:

- في رومانيا كنت دائماً أحشر نفسي في مشاكل. لقد كان بداخلي عفريت لا يتركني بسلام. كنت أشرب دائماً، وأثير المشاجرات. ولم يكن أبي يعرف ما يفعل بي. لقد كنت متهوراً، قمت بأعمال أخجل منها الآن.

لن أقول شيئاً عن تلك الحادثة، عندما أرسلني والدي من قرية إلى أخرى، لأشتري الأواني والبذور من الفلاحين لأعماله.

أعطاني مئتي دولار. أنفقتها بحماقة في أسبوع. وتأخرت سنة في العودة إلى البيت لخجلي من تلك الفعلة.

عدت بأسمال بالية، ولكنهم سامحوني. وفي السنة التالية هربت إلى القسطنطينية، وعلى الحدود اعتقلوني لأني أدخلت معي تبغاً مهرباً. كتبت لوالدي رسالة من السجن، وعندما تسلمها حضر ورشى عمدة القرية وأخرجني من هناك.

ولكني لن أقص عليكم شيئاً من هذا. لقد كنت في ذلك الحين شاباً أحمق.

٣

أسوأ ما فعلت كان رفضي الزواج من العروس التي حددوها لي قبل ولادتي، كان اسمها ميريام غلوتزر.

في بلدي كان إنجاب البنات فقط يعتبر عاراً، فكل يهودي متدين يصلي لكي ينجب أبناء ذكوراً يقيموا له طقوس الحداد عندما يموت.

ومن سوء الطالع أيضاً إنجاب أبناء ذكور فقط، دون أية ابنة. فالتلمود يقول أنه يجب أن يكون هناك ذكور وإناث في العائلة.

والدتي - فلترقد بسلام - أنجبت أربع بنات، وكانت تخشى أن تغادر هذه الدنيا دون أن تنجب إبناً ذكراً. فصممت أن تزور حاخاماً شهيراً وتطلب مساعدته. زوجة موشي غلوتزر - إحدى جاراتنا - رافقت والدتي، فهذه المرأة أرادت أن تطلب من الحاخام أن يساعدها لتنجب طفلة أنثى، لأن عائلتها كانت مؤلفة من الصبيان فقط.

وكان الحاخام يعيش في قرية تبعد حوالي مئة كيلومتر، ولكنه كان مشهوراً جداً، وقد أثبت أنه يستحق هذه السمعة. إذ قام بتحقيق معجزة لأمي وجارتها.

قال لوالدتي دون تردد:

- الرب سيساعدك، فاذهبي إلى البيت واصبري. خلال عام ستنجبين ابناً ذكراً، وعندما يولد أطلبي من زوجك أن يحضر لي سمكة حية، وأنا سأعطي الوليد اسماً.

وقال الحاخام لزوجة موشي غلوتزر وهو يحك لحيته ويفكر:

- ليساعدك الرب على إنجاب طفلة، ولكن الرب لا يؤكد لك شيئاً.

فرحت أمي كثيراً. أما المرأة الأخرى فلم تكن سعيدة مثلها رغم أنها احتفظت بالأمل. وفي رحلة العودة قالت لوالدتي:

- من المؤكد أنك ستضعين ابناً ذكراً، وأنا أشعر أني سأنجب طفلة أنثى. وإن لزوجينا المكانة الاجتماعية نفسها في القرية، فلنثبت إيماننا بالله ونتعاهد على أن نزوج ابنينا اللذين لم يولدا بعد.

وافقت أمي على العرض، وفي أول قرية توقفت فيها عربة السفر، دعتا بعض اليهود كشهود على العقد، ثم أكلوا كعكاً بالعسل وشربوا خمراً.

إن عادة تزويج الأبناء قبل ولادتهم هي عادة يهودية. لقد أُهملت هذه العادة في أمريكا والحمد لله.

حسناً، وقبل مرور سنة، وكما وعد الحاخام، وضعت أمي ابناً ذكراً: هو أنا نفسي. والسيدة غلوتزر رزقت بابنة.

زادت هذه المعجزة من شهرة الحاخام. وكل يهودي كان يجد نفسه في ضائقة، وكل امرأة ترغب بإنجاب أطفال، يذهبون إليه من أماكن في أقاصي رومانيا وغاليسيا، وخاصة بعد انتشار أخبار هذه المعجزة.

وعندما وُلدتُ، ذهب أبي بالسمكة الحية التي طلبها الحاخام. وليعطيه نقوداً ويطلب منه أن يختار لي اسماً.

قبل الحاخام السمكة والنقود، ووضع لي اسماً ثم قال لوالدي:

- إذا أردت أن يصل ابنك ليكون رجلاً ثرياً، فاتبع تعليماتي هذه: عندما تعود الآن إلى بيتك، وقبل أن تدخل، انزع عن السقف خيوط عنكبوت موجودة إلى يمينك. بعد ذلك عليك أن تذهب إلى السوق وتطلب من أول متسول تجده - يهودياً كان أم مسيحياً - أن يعطيك قرشاً واحداً وكسرة خبز. بعد ذلك تأخذ تلك الأشياء

وتربطها بقطعة قماش حمراء وتعلقها حول عنق الوليد، وستكون هذه تعويذة تحميه طوال حياته من الأمراض والحوادث، ومن السحر أيضاً. وهناك شيء آخر: يجب أن تُلبس الولد قماشاً أبيض اللون باستمرار، حتى يعترض هو نفسه على ذلك، فتتركه يرتدي ما يشاء.

لقد تم كل شيء كما طلب الحاخام. وهذا ما سبب لي أعظم التعاسات التي حدثت لي في حياتي.

٤

أولاً، بسبب الأمر القاضي بأن ألبس ثياباً بيضاء، فرفاقي في اللعب كانوا يسخرون مني، ويثيرون غضبي. أحياناً كانوا ينادونني بالأسقف، وأحياناً أخرى «المكفّن الصغير».

في أحد الأيام، وكان عمري أربع سنوات، عدت إلى البيت باكياً لأنهم سخروا مني وقلت لأمي:

– ماما، اشتر لي بزة زرقاء، فأنا لا أريد هذه الملابس البيضاء بعد اليوم.

التبديل حصل في الحال. ابتهج أبواي كثيراً، فكل شيء كان يحدث كما تنبأ الحاخام. كان ذلك بلا أدنى شك شعوذة. ولكنهم منذ ذلك الحين لم يجبروني على ارتداء الملابس البيضاء.

٥

لكن المضايقات بسبب خطيبتي لم تنته بهذه السهولة. فإذا كان أصدقائي قد سخروا مني عندما كنت ألبس الأبيض، فقد جعلوني

أغضب أكثر عندما عرفوا بقصة نذري. وطوال سنوات كان لقبي بينهم «تشوسن» أي العريس.

يا للسعادة والمرح اللذين كان يثيره فيهم هذا الاسم. وكم من المشاجرات كلفتني تلك المصيبة، لقد وصلت إلى الحقد على مريام: خطيبتي.

كانت مريام طفلة جدية، ذات عينين سوداوين وشعر أسود، لطيفة المعشر، ولكني كنت أشدها من شعرها وأصفعها كلما التقيت بها، وأصرخ بها:

- انصرفي من هنا، إني أكرهك.

فتمضي والدموع تملأ عينيها. في إحدى المرات شكتني إلى أمي قائلة:

- أيتها العمة، لماذا يضربني هيرمان؟ أنا أحبه كثيراً.

فقلتُ غاضباً:

- أضربها لأنها السبب في أن الجميع ينادونني العريس. أنا لا أريد الزواج منها.

كان والد ميريام جزاراً، وكان في الوقت نفسه يبيع الويسكي المهرب ويرابي بالنقود، يأتي إلى بيتنا بين الحين والحين. وقد اعتاد أن يوجه إلي لكمة صداقة خفيفة.

- مرحباً. كيف حال العريس الصغير ؟

وكان يتصرف معي كأني ملكية خاصة له، كأنني ابنه. وهذا يجعلني أغضب. كنت أحس به كغيمة ثقيلة.

وقد اعتاد الجزار أن يتفحصني، فهو يتحسس بارتياب ساقيَّ وكتفيّ وعنقي، كما يفعل عندما يشتري المواشي من السوق.

كان عمري ست عشرة سنة عندما حضر هذا الرجل وهو يلبس أفضل بدلة لديه. تلك التي يلبسها أيام السبت. وقال لوالدي:

- لقد أزفت الساعة، فلنعمل على عقد قران ولدينا.

استحسن أبي الفكرة، وحُدد الموعد في الأسبوع التالي. وهنا وصل يأسي إلى ذروته. كان لي صديق اسمه سيمون، وهو ذكي جداً، فقلت له:

- يا سيمون، أنا لا أريد هذه الخطيبة. لا أستطيع أن أتزوج من هذه الفتاة. ماذا بوسعي أن أفعل؟

أجابني:

- ليس بإمكانك عمل أي شيء. كان يجب أن تتكلم من قبل. أما الآن فقد أصبح الوقت متأخراً.

٦

أخذني أبي إلى الخياط، واشترى لي قبعة «كيباه» مخملية رائعة. ثم أخذني إلى دكان أحذية واشترى لي جزمة أنيقة برباط.

وتم تبادل الهدايا بين العائلتين، والد مريام أرسل لي معطفاً من الجلد، وتلموداً أنيقاً بغلاف من الجلد وساعة ذهبية قيمة. وأرسل والدي بدوره إلى مريام ثوب زفاف حريرياً أبيض، وخاتماً، وعقداً فيه جوهرة قيمة تعود لجدة والدي.

في اليوم التالي خرجنا إلى بيت خطيبتي في عربة تجرها أفضل دابة في القرية. كان قلبي يلتهب كفرن. وفي الطريق كان الجميع يضحكون ويشربون، أما أنا فقد كانت لدي رغبة بالبكاء. لقد أصبح

الوقت متأخراً. لقد تأخرت كثيراً، كان علي أن أتمرد على هذا الزواج قبل سنوات.

٧

كان بيت مريام يعج بالأقارب والأصدقاء، يشربون ويأكلون ويرقصون. كل شيء موجود: نبيذ، خمر، أرز، فطائر، كعك، ومربى من أصناف مختلفة، وجوز، وفواكه. كل شيء متوافر بكثرة.

عجوزان يهوديان يعزفان على الكمان والمزمار كانا يثيران جواً من المرح في الحفلة. قدموا لي نبيذاً لأشرب فشربت. ولكن ذلك لم ينفع لإسعادي. لقد بقيت أفكر، ماذا عليَّ أن أعمل.

اقتربت مريام مني وكلمتني بعذوبتها المعهودة. إنها صبية فاتنة وطيبة، كنت أحس بشعور غريب عندما أنظر إليها. ربما كنت سأوافق على الزواج لو لم أكن مجبراً عليه. سألتني بعذوبة:

- لماذا لا تتكلم معي أبداً يا هيرمان؟ خلال عشر سنوات لم تكلمني ولو مرة واحدة.

- ليس هناك شيء أقوله، فكل شيء مرتب.

- ولكنك تلميذ نجيب في دراسة التلمود، فلنتحدث في التلمود.

قلت لها:

- كلا، أنا لا أعرف إلا قليلاً جداً من التلمود.

- أنت تذهب إلى المسرح وتعرف مسرحيات كثيرة، فلنتحدث في أمور المسرح والشعر.

أجبتها بشراسة:

- كلا، أنا لا أتحدث في هذه الأمور مع النساء، حتى العصافير في السماء تحتقر الرجل الذي يلين مع النساء.

كنت أقول لها هذا لأجرح شعورها، ولكني كنت أتألم أيضاً.

٨

في الغرفة المجاورة كان والدي ووالد مريام وأقرباء آخرون مع الحاخام يتفقون على شروط زواجنا.

أخيراً، نادوا عليَّ، شحب لوني حينها فجرعت جرعة كبيرة من خمر مصنوع من الكرز. وفجأة، قررت عدم الزواج.

كانت ركبتاي ترتجفان عندما دخلت تلك الغرفة حيث يجلسون، بينما وثيقة عقد الزواج موضوعة على المنضدة. انقبض قلبي. ولم أعرف كيف أبدأ. فقال والدي:

- كل شيء قد انتهى. لقد وضعنا العقد.

قلت وأنا أنظر إليه بطرف عيني:

- لا يا أبي. لا أستطيع.

شحب وجه والدي من المفاجأة وقال:

- ماذا؟ أتريد أن تحقرني أيها المسيحي الخبيث.

قلت متابعاً:

- مريام فتاة طيبة يا أبي، فتاة جميلة، ولكني أرفض الزواج منها.

- لماذا؟ -دمدم والدي.

- لست أدري.

صفعني أبي بقوة. لقد كنت في ذلك الوقت قوياً، وكان باستطاعتي أن أمسك به وأضربه، ولكنه كان أبي.

شددت قامتي ونظرت إليه بترفع، وقلت:

- لم أعد طفلاً يا أبي، وبعد هذا الذي حدث عليَّ أن أترككم. سأذهب إلى أمريكا لأجرب حظي.

قال والدي:

- ستموت جوعاً هناك. ستأكل مع الخنازير. انصرف. لقد لوثت اسمي بين اليهود في رومانيا. وخذلت الكلمة التي أعطتها والدتك لِأم مريام قبل مولدك. أخرج أيها الكافر، وكل الخبز ممزوجاً بالألم والعار في أمريكا، فأنا لم أعد أباك.

خرجت من حفلة زفافي. تصرفي هذا سبب فضيحة رهيبة في قريتنا. مريام مرضت وكذلك أبي، ومات بعد سنة من ذلك. والجميع رددوا كلمات والدي: سيأكل خبز الألم والعار في أمريكا، ولن يجد السعادة أبداً.

الفصل التاسع

سام كرافيتز، ذلك اللص

١

- لماذا راودتني فكرة المجيء إلى أميركا؟ سأل والدي نفسه برزانة وهو يفتل شاربه في الظلام.

- سأقص عليكم لماذا؟ لقد فعلت ذلك بدافع الحسد والغيرة من ذلك الخنزير، ابن خالي سام كرافيتز الذي أتضرع إلى الله أن يأكل الجدري أنفه.

بينما كنت أسبب المتاعب لأهلي، ذهب ابن خالي سام إلى أمريكا، حيث بدأ يجمع ثروة. وكانت تصل منه رسائل تُقرأ في جميع أرجاء القرية. فسام أصبح خلال أقل من سنتين صاحب مشغل لحمالات السراويل، وقد أرسل لنا صورته التي قدرها الجميع. سامنا هذا لم يكن يلبس قبعة من الفرو ولا معطفاً طويلاً ولا جزمة فلاحين. كلا. كان يلبس بدلة أنيقة وياقة بيضاء كالأطباء وحذاء غالياً، وقبعة سوداء مستديرة جميلة وطريفة جداً يسمونها قبعة «الديربي».

كيف أصبح سميناً ومربوعاً خلال وقت قصير، ذلك الابن

البائس لإسكافي فقير. أقول لكم الحقيقة، إن كبدي كان يتفتت حسداً عندما أسمع والديّ يتغنيان بابن خالي سام. كنت أعرف أني أفضل منه من كافة النواحي. وكان ذلك يسبب لي الألم.

قلت لوالدي: أعطني نقوداً. دعني أذهب إلى أميركا لأتخلص من هذه العبودية، سأجمع نقوداً أكثر من سام، فأنا أذكى منه، وسترى ذلك.

والدتي لم تكن راغبة في سفري. ولكن والدي كان قد يئس مني بسبب تصرفاتي غير الحكيمة، فأعطاني نقوداً للرحلة، وأتيت إلى أميركا. لقد كان هذا أكبر خطأ قمت به في حياتي.

يجب علينا ألا نتصرف بدافع الحسد. وهناك قصة في التلمود تعرض هذا وتؤكده، تقول القصة: كان يا مكان، كان هناك رجل له كلب صغير وديع، وحمار قبيح. وفي كل ليلة، بينما هو يتناول عشاءه، كان الرجل يضع الكلب في حضنه ويقدم له الطعام وهو يداعب رأسه بحنان، والكلب يقبل سيده ويلحس وجهه. أحس الحمار الذي كان يراقبهما بالحسد.

وفي إحدى الليالي، في وقت العشاء. دخل الحمار إلى البيت وألقى بنفسه على ركبتي الرجل، وأخذ يلحس وجهه بلسانه الخشن، ويعانقه بقوائمه.

ولكن الرجل لم يداعبه بحنان، ولم يعطه شيئاً ليأكل، وإنما على العكس فقد غضب كثيراً وتناول عصا وانهار بها على الحمار وطرده من البيت. الحكمة من هذه القصة: يجب علينا أن لا نحسد الآخرين على حظهم الجيد.

٢

لم أفقد الأمل يا أولادي. يجب أن أجمع ثروة في يوم من الأيام. فأنا رجل متزوج الآن وجدّي، ولست غراً. أما في ذلك الحين فكنت ما أزال طائشاً. على الرغم من أني خرجت من رومانيا وفي رأسي مخططات كبيرة. كان في داخلي صوت يقول لي: أميركا هي أرض السعادة والمرح.

كنت أحلم بالقصص الخيالية التي يروونها عن أميركا في قريتي، فقد كنا نعتقد أنه يكفي أن تحفر الأرض قليلاً في أميركا ليخرج لك الذهب. وأن أفقر الناس في أميركا يعيشون أفضل من مليونير روماني، وأن الناس في أميركا يعملون قليلاً من الوقت ويرفهون عن أنفسهم طوال اليوم.

كنت قد رأيت صورتين من أميركا، وكانتا معروضتين في قريتنا في واجة دكان لبيع ماكينات الخياطة من ماركة «سنجر» إحدى الصورتين كانت تمثل أعلى بناء رأيته في حياتي ويسمونه ناطحة سحاب. وفي أسفل الصورة يظهر الأميركيون وهم يتمشون بخيلاء. الرجال منهم يضعون قبعات ديربي، وسلاسل ساعات ذهبية ولهم شوارب متكبرة. أما النساء فمتكبرات كملكات، يلبسن الحرير والساتان. لا يظهر في الصورة فقير واحد، الجميع أغنياء.

الصورة الثانية لشلالات نياغرا. أنتم رأيتم من قبل بطاقات بريدية عليها الشلالات والهنود الحمر ورعاة بقر يتأملون قوس قزح المنعكس في الماء.

كيف أشرح لكم؟ كنت أريد الوصول إلى أميركا بأسرع ما

يمكن، لأرى ناطحات السحاب وقوس قزح فوق شلالات نياغرا، ولأضع على رأسي قبعة ديربي.

لعائلتي حوالي خمسة وسبعين قريباً، حضروا جميعهم لوداعي عندما خرجت من رومانيا، وكانت دموع كثيرة. ولكني كنت سعيداً لاعتقادي بأني ذاهب إلى أرض السعادة.

آخر ما فعلته والدتي هو إعطائي عنوان ابن خالي في نيويورك، وقالت لي: إذهب إلى سام وسيساعدك في تلك البلاد الغريبة.

ولكني كنت مصمماً أن أموت قبل أن أطلب المساعدة من سام.

٣

حسناً، طوال أحد عشر يوماً كانت السفينة تطفو على سطح المحيط، وكنت أشعر بالدوار، ولكني كتبت إحدى مسرحيات شيلر وعنوانها «اللصوص». وحلمت بأميركا.

من السفينة كانوا يقدمون لنا بطاطا وسمكاً مقدداً. كان للطعام مذاق كأنه السماد. وكانت تفوح من السفينة رائحة مرحاض هائل. ولكني كنت أشعر بالسعادة.

لقد أمضيت فترة عبور المحيط مرحاً. وفي إحدى الليالي اجتمعنا نحن المهاجرين الشباب للغناء. أحدهم، وهو روماني كان يملك أكورديوناً. ومنذ ذلك الحين أصبحنا أنا وذلك الشاب صديقين. وكنا كلينا أكثر الجميع مرحاً وسعادة.

كان صديقي سيلتقي بعمه الغني الذي يملك مشغلاً لصنع السيجار وله أعمال واسعة - كما قال لي - وعندما علم أنه ليس لي

أقرباء في أميركا، رجاني أن أرافقه لأعيش معه في بيت عمه. وافقت على ذلك. لقد أُعجبتُ بذلك الشاب.

ماذا أقول لكم عن سعادتنا عندما رأينا عمارات نيويورك، بعد أحد عشر يوماً في المحيط المقفر. كم هي جميلة وسعيدة هذه المدينة، أبنيتها المنتصبة كحجارة الدومينو، بدت كأنها مجموعة دمى تنتظر وصولي لألعب وأمرح فيها.

احتجزونا في جزيرة إليس طوال الليل، نمت على سرير ذي نوابض دون فراش ولا وسادة ولا غطاء، بدا لي ذلك رائعاً، ورحت أقفز على السرير بسعادة.

أحد الموجودين علمني أول كلمات إنكليزية عرفتها. وأمضيت أنا وصديقي يوسيل تلك الليلة ونحن نقفز على أطراف السرير ونكرر الكلمات الظريفة التي تعلمناها. كان يوسيل يصرخ منادياً عليَّ: «Potato» فأجيبه «Tomato» ثم نضحك كثيراً. فيقول لي «Match» وأجيبه «All right, go to hell». حتى تضايق كل من كان هناك، لأننا بضحكنا وصراخنا لم ندع أحداً ينام.

حضر في اليوم التالي عم يوسيل وأخذنا إلى بيته بعربة يجرها حصان.

وخلال الطريق كنت منشغلاً بالنظر إلى الشوارع لأرى كيف سأمرح في أميركا.

٤

حسناً، لا تريدون معرفة الانطباع السيئ الذي تركه في نفسي بيت صانع السيجار. لقد كان مجرد غرفة واسعة، قذرة ومظلمة.

في القسم الخلفي من المنزل - المشغل يصنع السيجار ويبيعه. ويعيش مع زوجته وأولاده الأربعة معاً في الغرفة نفسها.

لم يرق له بقائي هناك، ولكنه بسط الصحف القديمة على الأرض، ونمنا أنا ويوسيل فوقها.

ماذا يهم - قلت لنفسي - هذه ليست أميركا. فغداً صباحاً سأخرج إلى الشارع وأرى أميركا الحقيقية.

٥

في اليوم التالي قمنا - يوسيل وأنا - بجولة واسعة. وكيلا نتوه تمعّنا جيداً بسنٍ ذهبي كبير معلق على باب طبيب أسنان قرب مشغل السيجار.

رأينا أشياء كثيرة، ولن أقص عليكم ما رأينا، لأنكم تشاهدونه كل يوم، فقد رأينا الإيست سايد، لقد كان بالنسبة لي مشهداً غريباً. ولم أتمالك نفسي من التساؤل: إلى أين يذهب هؤلاء الناس راكضين؟ ماذا جرى لهم؟ ولماذا جميعهم جديون إلى هذا الحد؟ ومتى يبدأ المرح في أميركا؟

وصلنا إلى آلن ستريت، تحت القطار المعلق. لقد كنت قروياً لدرجة أنني أحببت القطار المعلق. لم أكن قد رأيت أشياء كهذه في رومانيا.

كنت ساذجاً، حتى أنني اعتقدت بأنني سألف أميركا كلها في هذا القطار، وسأصل به حتى شلالات نياغارا وأماكن أخرى. ركبناه وبقينا طوال النهار نصعد ونهبط. لقد دفعت أنا في كل الجولات.

بقيت معي بعض النقود، فاشتريت قبعتي ديربي من بائع متجول، قبعة ليوسيل وأخرى لي، كانتا واسعتين بعض الشيء، ولكن بكم من الكبرياء شعرنا ونحن نضع تلك القبعات الأميركية الظريفة على رأسينا.

لا أحد يستعمل قبعات مشابهة في رومانيا. التقطنا صوراً ونحن نضع القبعات، وبعثنا بصورنا إلى أهلنا.

٦

استمرينا بهذه الحماقات مدة أسبوعين. تبخرت في نهايتهما نقودي كلها، وطلب صانع السيجار مني أن أبحث عن عمل وأن أترك بيته، لم أتأخر في العثور على عمل في دكان مأكولات، حيث أعطوني سبعة دولارات في الشهر. لم أكن أخرج من الدكان. أستيقظ في الخامسة صباحاً وأنام في الثانية عشر ليلاً. انتفخت قدماي واحمرتا، لأني لم أكن أجلس طوال النهار. وصاحب الدكان - ليأكله الدود - لم يقدم لي طعاماً سوى الخبز اليابس والجبن المتعفن، وبعض المخلل ومأكولات منتهية الصلاحية. بعد وقت قصير سقطت مريضاً وتركت العمل.

قضيت أسبوعاً وأنا أتسكع في هيستر بارك دون أن آكل لقمة واحدة. كنت أنظر حولي، ولكني لم أشعر بالتعاسة، لأنني ما أزال موقناً بأن المرح سيبدأ بين لحظة وأخرى.

في أحد الأيام، وبعد أن أمضيت الليل على مقعد في حديقة عامة. شعرت بجوع جعلني أقرر الذهاب إلى ابن خالي سام كزافيتز. كنت أتألم لأني سأفعل ذلك، ولكني انهرت بفعل الجوع

والوهن. ذهبت إلى مشغله. ولكي أخفي عاري دخلت أضحك مقهقهاً.

- انظر يا سام إني هنا. لقد وصلت قبل قليل إلى أميركا، وأنا مستعد لجمع ثروة.

أعطاني ابن خالي عملاً في مشغله وكان يدفع لي خمسة وعشرين سنتاً في اليوم.

كان هناك ثلاثة رجال آخرون يعملون لابن خالي، وهو أيضاً كان يعمل. لقد بدا مريضاً ومعذباً وفقيراً. كم يختلف عن الصورة بقبعة الديربي التي أرسلها إلى رومانيا.

٧

أخيراً كان على والدكم أن يشتغل. لقد تخلصت من سذاجتي واقتنعت بأن أميركا ليست بلاد المرح للجميع، وتعلمت العمل كالآخرين، وصرت نحيلاً كابن خالي.

أجل، إن هذه البلاد ليست للمرح والسعادة، إنها أرض السرعة. ولا وجود للذهب في الشوارع. وقبعات ديربي ليست من أجل أيام الأعياد، وإنما لأيام العمل. وكان علي أن أعمل بيديّ، بكتفي، بأحشائي. وقد عملت.

٨

لقد اختار ابن خالي سام مصلحة جيدة. بآلاته القليلة كان يصنع عرى لحاملات السراويل. تلك العرى تصنع من القطن ولها

أهمية كبيرة. فيها تشبك الأزرار، وهكذا يثبتون السراويل. وهذا كما تعلمون مهم جداً.

أجل إنها صناعة جيدة، صناعة ضرورية. ويمكن أن تدر كثيراً من المال. لقد فهمت ذلك في الحال.

ولكن ابن خالي سام لم يكن بالرجل المناسب لهذا العمل. فالأرقام لا تدخل رأسه، وهو يقابل الجميع بوجه كالخل، ولم يكن أي من زبائنه يتعاطف معه.

وشيئاً فشيئاً بدأ يرسلني لأبحث عن زبائن. وكنت أقوم بهذا العمل على أحسن وجه. فالقسم الأعظم من أصحاب مصانع الحمالات كانوا رومانيين ويعرفون والدي. فكانوا يستقبلونني وكأني أحد أقربائهم. نتبادل المزاح والنكات ونشرب النبيذ معاً. ثم يطلبون مني طلبيات من العرى لأجل الحمالات التي يصنعونها.

وفي أحد الأيام، كان سام يلاحظ التقدم الذي طرأ على العمل، فقال لي:

- يجب أن تكون شريكي. إن عملنا يزدهر، فدع العمل على الآلة يا هيرمان. سأتولى أنا شؤون المشغل، وأنت تخرج كل يوم لتمزح مع زبائننا وتعقد معهم الصفقات.

وهكذا أصبحت شريكاً لابن خالي سام، وصرت سعيداً جداً، فقد بدأت أكسب حتى ثلاثين دولاراً في الأسبوع. أخيراً نجحت.

في أحد الأيام حضر إليَّ صاحب مصنع كبريت، وقال لي إنه علي أن أتزوج وأخذني لأتعرف على والدتكم. وعلمت أنها فتاة طيبة وعاملة مجدة. فقررت أن أتزوجها ليكون لي أبناء.

وهذا ما فعلت.

٩

في ذلك الوقت اقترفت أكبر خطأ في حياتي.

كنت أرغب على الدوام في مشاهدة الشلالات المعروفة بشلالات نياغارا، وقوس قزح، والهنود الحمر. وهكذا، عندما تزوجت، اصطحبت أمكما وذهبنا. أنفقت في الرحلة مرتبي في شهر. وعرّفت أمكما على أمريكا. لقد استمتعنا كثيراً.

بعد أسبوع رجعنا. وفي اليوم التالي ذهبت إلى المشغل لأستأنف عملي، ولكني لم أجد المحل، لقد اختفى. ولم أستطع العثور على سام، فقد سرق المشغل.

وبحثت عن سام وعن المشغل. كان قلبي مشبعاً بالحقد كقطعة اسفنج. وشعرت أنني مستعد لقتل ابن خالي. وأخيراً وجدته، وصرخت به: أيها اللص. ماذا فعلت؟

أخذ يضحك، وأبرز لي ورقة من محامٍ يؤكد فيها أن المشغل كان ملكاً له. كل عملي لم يفدني شيئاً. فقد جعلت سام ثرياً.

ماذا بوسعي أن أفعل؟ في انفعالي وجهت إليه لكمة جعلت الدم يسيل من أنفه، فخرج إلى الشارع يصرخ منادياً على شرطي. لحقت به وفي يدي عصا وضربته عدة ضربات. ولكن، ما فائدة ذلك؟ فالمشغل له في الواقع، وبقيت أنا في الفقر.

١٠

أنا الآن دهان. أدهن بيوتاً. أعمل للآخرين، أنا لست سيد نفسي. لقد وقعت في المصيدة. ولكني لست مهزوماً، فأنا رجل

لي إرادة قوية، ومازلت قادراً على فتح مشغل. يلزمني ثلاثمائة دولار فقط، وسأحصل عليها بطريقة ما.

أجل، أجل. سيرى الجميع كيف أستطيع إدارة مشغل لصنع عرى الحمالات. ولكن بلا شركاء. سأعمل بمفردي، وسترى أمكما كيف يستطيع رجل أن يجمع ثروة في أمريكا. فهذا ناثان شتراوس، وهذا أوتتو كوهن، كلاهما كان يبيع أربطة أحذية عندما وصلا إلى هنا. أما أنا فكانت لي بداية أفضل، وسأمضي أبعد من كليهما.

إنني متأكد من أني سأصبح ثرياً، وسأجعل منكِ يا إستر معلمة مدرسة. ستكون لديك ملابس أنيقة وستكونين بروفسورة. ألا يعجبك هذا يا إستر؟

- أجل يا بابا إنه يعجبني.

وأنت يا مايك ستكون طبيباً. إنه لشيء عظيم أن تصبح طبيباً. إن نيل المعرفة أفضل من جمع المال. أنا سأكسب نقوداً يا مايك، وسأجعل منك طبيباً. ما رأيك؟ هل تريد ذلك؟

- أجل يا بابا. قلت وأنا أكاد أغفو من النعاس.

الفصل العاشر

دموع دهّان

١

كان صيفاً. ووالدي يعمل على سقالة تحت الشمس. وفي أحد الأيام أصيب بمرض، كمعظم الدهانين، بتأثير المواد السامة الموجودة في الدهان. فعندما يمزج الطلاء، يُطلق الخليط غازا ساماً مشبعاً بالرصاص، ويضطر الدهان إلى استنشاق تلك الروائح. وتدخل هذه المواد السامة إلى الجسم عن طريق الجلد أيضاً وتُتلف معدة الدهان وأعصابه وتسمم عظامه.

لقد قاسى والدي من هذا التسمم الذي يصيب كثيرين من أبناء المهنة. وفي إحدى ليالي الصيف، وصل إلى البيت متأخراً على غير عادته، وجهه شاحب تحت بقع الدهان الخضراء والحمراء، كان يبدو مضحكاً، وكأنه يضع قناع راقص صيني. خلع نعليه في المطبخ وانهار على الكرسي وقال لأمي متقززاً:

- أعطني الصفيحة بسرعة يا كاتي.

وعندما أحضرت له الصفيحة، تقيأ. فأسندت أمي رأسه وأخذت تربت على كتفيه.

- لقد شعرت بالألم طوال بعد الظهر - قال متأوهاً.

- هيا، هيا. سيمضي هذا الألم سريعاً يا هيرمان - قالت والدتي برقة.

كانت آلام التقيؤ تسبب له تشنجات عنيفة، تجعله يبكي. لم تبكِ أمي قطّ، ولكن الدموع كانت تطفر من عيني والدي بسرعة.

في إحدى المرات، وهو مريض، قال والدي باكياً:

- لماذا عليَّ أن أعمل في هذه المهنة اللعينة. ألكي أسقط يوماً ما عن السقالة وأكسر رجلي. ثم أذهب بعد ذلك يومياً في ساعة الغداء لأتسول بعض المال من الدهانين الآخرين؟ كل يوم يأتينا دهان مريض.

- هيا، هيا يا هيرمان، لن يحدث لك شيئ من ذلك - قالت أمي مواسية.

فردَّ أبي وهو ينشج:

- بلى، سيحدث لي هذا. فأنا دائماً أكبر التعساء. وإذا لم أسقط عن السقالة فإني متأكد من أنني سأموت بهذا المرض الذي تسببه رائحة الدهان. أنا الذي كنت صاحب مشغل حمالات سراويل، في ذلك الحين كنت أعمل لنفسي، وكنت أعيش سعيداً. ولكني الآن سأموت، ليس ثمة وسيلة. اللعنة على كولومبوس. اللعنة على أمريكا، هذه اللصّة، هذا البلد الذي يعطي الحظ للقمل، بينما الرجال الطيبون يموتون جوعاً.

- هيا، هيا. اهدأ يا هيرمان - قالت والدتي بعذوبة وهي تلف المنشفة حول رأسه.

بعد العشاء أحسَّ بتحسن، ثم حضر عدد من أصدقائه ليروه،

فاجتمع في البيت حشد من الأصدقاء. لقد انصرف تفكيره عن مصائبه وعاد محدِّثاً يسعد مستمعيه. الحديث لا ينهك اليهود كما يحدث مع شعوب أخرى. وإنما على العكس، فهو ينعش أذهانهم. والأحاديث هي البيسبول، الغولف، البوكر، الحب والحرب بالنسبة للشعب اليهودي.

كان سكان العمارة جميعهم يتكلمون ويتناولون عشاءهم. ورجع ضجة المرور في الإيست سايد يأتي خافتاً بالمقارنة مع هذه الأحاديث الصاخبة: قرع صحون، بكاء أطفال، مواء قطط، خلافات بين رجال ونساء وأولاد يتسامرون وكأن قلوبهم ستنفجر. حتى ببغاء السيدة فينغرمان تثرثر أكثر من الببغاوات الأخرى. فزوجها، السيد فينغرمان، كان مريضاً لسنوات طويلة، وكان يسلي نفسه في أيامه الأخيرة بتعليم الببغاء أن تشتم باليدية. كنا نسمعه عندما نجلس لتناول العشاء وهو يشتم عدواً خيالياً:

- لص، قاطع طريق. إني أبصق عليك، لتسقط عليك صاعقة. فلتمت. غرا، غرا، غرا.

كان والدي يضحك من أعماقه ويقول:

- يا لها من يهودي طيب هذه الببغاء، إنها تشتم المسيحيين وتكرههم. أنا متأكد من أننا سنجدها يوم السبت القادم في الكنيس بين المصلين.

شرب والدي كأساً آخر من البيرة وضرب الطاولة بقبضته، وكأن الإلهام قد هبط عليه فجأة. وقال:

- فلنذهب إلى الحانة هذه الليلة أيها الشباب. لقد قضيت يوماً سيئاً، وعليَّ أن أمرح قليلاً.

وافق أصدقاؤه على الاقتراح. وأنا فرحت عندما قال والدي إنه سيأخذني معه، وأختي اعترضت، فقد أرادت أن تأتي معنا، ولكن والدي أعطاها خمسة سنتات وقبّلها ثم قال:

- الصغيرات يبقين مع ماما. وعليهن أن يكن طيبات.

٢

اليهود لا يسكرون عادة، ويعتقدون أن الشرب بكثرة هو عادة مسيحية مخجلة. ولكن النبيذ كان شيئاً ضرورياً في حياة اليهود على مر آلاف السنين. فهناك أعياد في السنة العبرية، يحملون فيها النبيذ إلى الكنيس، ويشرب شيوخ مسنون ومتدينون، ويرقصون ليظهروا سعادتهم أمام الرب.

والدي لم يكن يذهب إلى الحانة إلا في المناسبات، وليس كالأميركيين. كان يحب الاجتماعات في البيت عندما يحضر الأصدقاء مع زوجاتهم وأولادهم. وجميعهم يشربون النبيذ ويغنون، من الجدِّ المسن حتى الطفل ذي العام الواحد.

شرب النبيذ كان مسألة دينية، أو اجتماعية. فهناك عشرات الحانات الروسية أو الرومانية في الإيست سايد، مكتظة بالعائلات التي تجتمع فيها بعد الخروج من العمل. الناس يتحدثون ويضحكون، ويشربون النبيذ ويستمعون للموسيقا، ولا شيء غير ذلك. لا أحد يكسر المقاعد كما يفعل المسيحيون، ولا يشتمون أو يتشاجرون.

موسكوفيتز يملك الآن مطعماً شهيراً في الجادة الثانية. ولكنه، في ذلك الوقت، كان يملك قبواً لتخزين النبيذ في ريفنغتون ستريت. كان ذلك القبو مكاناً شعبياً للمهاجرين الرومانيين، ومن

بينهم والدي وأصدقاؤه. وقد كان موسكوفيتز، ولا يزال، عازفاً ماهراً على آلة السيمبالوم الرومانية الغجرية.

إني أذكر ذلك القبو. كان مكاناً ضيقاً وطويلاً، مضاء بمصابيح غاز معلقة كبالونات بيضاء. وبين المصابيح عُلقت عناقيد عنب اصطناعية وأوراق أشجار يابسة. وكانت هناك أيضاً مرايا كثيرة رسم عليها فنان مجهول مشاهد من الحياة الرومانية: رعاة غنم، فلاحون يدرسون القمح، سوق خيل، حفلة عرس.

في أحد أركان المكان وتحت علم أميركي كبير هناك رسم يمثل روزفلت وهو يهاجم مستوطنة سان خوان. وفي إحدى الزوايا يوجد موقد فحم، وفيه يشوون قطعاً من أضلاع الخراف وشرائح لحم البقر. إلى جانب الموقد وفوق منصة صغيرة يجلس موسكوفيتز إلى آلته الموسيقية، وفي متناول يديه إبريق نبيذ، يشرب منه كأساً كلما انتهى من عزف إحدى المقطوعات.

السيمبالوم الذي يعزف عليه هو عبارة عن آله أشبه بالقيثارة، يُعزف عليها بمطارق صغيرة من الأبنوس. إنها آلة غجرية دون شك. لأن الموسيقى التي تصدر عنها هي موسيقا هائجة ومتوحشة. عندما يعزف موسكوفيتز، يأخذ بإحناء رأسه شيئاً فشيئاً فوق الآلة. كان من المستحيل رؤية وجهه وهو يهبط. وكانت صلعته تلمع مثل مرآة، بعد ذلك يرفع يديه بعنف، فتتوقف الموسيقى. وعندئذ يصبح من الممكن رؤية وجهه الخجول بارز التقاطيع، وشاربه الرمادي. كان المستمعون يصفقون له استحساناً فيتناول موسكوفيتز كأس النبيذ كالمعتاد ويأخذ منه رشفة، ثم يبتسم بخجل ويعزف مقطوعة أخرى.

إنه فنان حقيقي، فبعد عشرين سنة مازال يعزف الموسيقا في مطعمه واضعاً فيها روحه. ولم يدخر شيئاً من المال.

هنالك حوالي مائة يهودي في القبو الذي يسبح في بحر من ضباب السجائر الأزرق. الرجال كانوا يضعون القبعات، بعضهم ذوو لحى، أو شباب صاخبون بوجوه سمراء كثمار الجوز. النساء البدينات يتعرقن ويقبلن أطفالهن، وموسكوفيتز يعزف، والندل يعملون كنحلات مخبولة. إبريق نبيذ روماني يزين كل منضدة. وآلة النقود ترن، والسيدة موسكوفيتز تقبض النقود. عناقيد العنب الاصطناعية تتأرجح وهي معلقة بالقصب. تيدي روزفلت يكشر عن أسنانه ويجعل الإسبان يهربون. موسكوفيتز يعزف لحنا قروياً حزيناً ورائعاً. رجل قصير له لحية حمراء ووجه منتفخ من البكاء يضرب كأسه على الطاولة وهو ينشج ويغني، وآخرون يحذون حذوه. جميع الموجودين في القبو يغنون.

وبعد ذلك يعودون إلى الأحاديث، يثرثرون ويثرثرون. ثرثرة حامية مع النبيذ ومشبعة برائحة العرق. إنه يوم إجازة لعبيد المصانع. فعبيد مصر القديمة كانوا يشربون النبيذ أيضاً في ذلك الوقت وهم يجلسون في ظلال الأهرامات، وكانوا يتكلمون كما يحدث الآن. هذا ما يقوله الكتاب المقدس. فالحديث يسكِّن الألم في قلوبهم. بينما موسكوفيتز يعزف على قيثارته البابلية.

نحن نجلس حول إبريق النبيذ ونلتقط من الصحون جوزاً وبطاطس مقلية أو خياراً. أنا شربت قليلاً. ولم أكن أتكلم إلا عند اللزوم.

- بابا إن هذا المكان يعجبني - قلت.

ابتسم والدي بزهو، وسأل أصدقاءه وهو ينحني ليقبلني:

- أليس ذكياً هذا الولد. ما قولكم؟

أحنى الأصدقاء رؤوسهم بوقار وكأني عبقري.

- سيصبح مليونيراً في أسوأ الأحوال - قال موتيك الأعمى وهو يطلق ضحكة خافتة. ضحكة صادقة، عذبة، وحمقاء.

كان يعمل خياطاً هذا الذي يسمونه أعمى. مع أنه لم يكن سوى أحول.

قال أبي:

- كلا، مايكل سيكون طبيباً، أنا سأكسب له نقوداً. فالمعرفة أفضل من الثروة، هذا وارد في التلمود يا موتيك.

قال موتيك بسرعة، وهو يبتسم مرة أخرى:

- معك حق، بكل تأكيد يا هيرمان. ولكن أليس بإمكانه أن يكون مليونيراً في الوقت نفسه؟

أنا لم أرفع نظري عن صلعة موسكوفيتز، ذاك الموسيقي البارع.

- بابا، ما الذي يعزفه الآن؟ -سألته.

فقال والدي مستغرباً:

- ألا تعرف؟

- لا.

تنهد والدي بعاطفية وقال:

- له، له، له. أرى يا مايكل أنك أصبحت أمريكياً حقاً. هذه يا ولدي أغنية يعزفها الرعاة بمزمارهم في رومانيا بينما هم يراقبون

أغنامهم. هذه الموسيقى اسمها «دوينا». كم من المرات سمعتها وأنا أهيم في الحقول أيام الصيف.

قال موتيك بقسوة:

- إنها أفضل بكثير من «جازكم» الأمريكي. إنها موسيقى حقيقية وليست كهذا التشن - تشن -تشن الأحمق.

- إنها موسيقا من الروح - قال والدي بشاعرية.

- حقاً - أضاف موتيك.

كان موتيك يحاول أن يكون متفقاً مع رأي والدي، فقد كان يعتبره رجلاً واسع الاطلاع.

والحقيقة أن أبي حين يشرب النبيذ مع أصدقائه يصبح عميقاً ودقيقاً وحكيماً، ويصبح حاداً جداً أيضاً. فحديثه يتراوح بين النكات البذيئة، وحكايات وأساطير التلمود.

كان والدي يحب إيراد مقاطع من التلمود في حديثه. وأنا متأكد الآن من أنه لم يقرأ في حياته هذا الكتاب الغريب عن الحكمة اليهودية في العصور الوسطى. والحقيقة أن الرابي صموئيل الذي يعيش معنا في العمارة نفسها اعتاد أن يحادثه بهذه الأمور. ووالدي كان يتذكرها ويوردها كلما أتيحت له الفرصة. وكان ذلك يبعث البهجة في روحه المسرحية.

- التلمود هو أعظم كتاب في الدنيا - هكذا يؤكد أبي بوقار، وهو يحتسي كأساً أخرى من النبيذ، ثم يتابع:

- ولماذا لا يكون كذلك؟ ألم يكتبه أعظم الحاخامات في التاريخ؟ لقد كلفهم ذلك وقتاً طويلاً. ليس أسبوعاً، ولا شهراً، وإنما مئات السنين. لم يكونوا متعجلين ككُتّاب هذه الأيام.

- بالطبع لم يكونوا مثلهم - يضيف موتيك.

ويتابع والدي قائلاً:

- التلمود يعلمنا جميع الأمور، فمثلاً: الملاك جبريل تلزمه سبع ضربات من أجنحته ليصل إلى الأرض. والملاك سيمون تلزمه أربع. أما ملاك الموت فلا يحتاج لأكثر من ضربة واحدة بجناحيه يا موتيك. إن هذا مكتوب في التلمود.

- رائع. إن معرفة كل هذا أمر رائع حقاً - هتف موتيك.

ولكن ميندل بام انفجر في الضحك وقال مناكفاً بصوت أبح:

- ها، ها. بإمكانكم الإيمان بالتلمود، أما أنا فكلا. إنها مجرد خرافات عجائز.

فقال والدي وهو يلقي عليه نظرة عميقة ومتعالية:

- أنت. أنت يا ميندل لست إلا متشرداً تنام في الحدائق، تتسول سندويشات الجبن، وتبيع روحك اليهودية للمبشرين المسيحيين مقابل بطاطس. ماذا يستطيع متشرد مثلك أن يفهم من التلمود؟ إن هذا الكتاب قد وضع لليهود وللبشر وليس للمتشردين.

- أجل يا هيرمان، ولكن استمع إلي - بدأ ميندل يتمرد على هذا الهجوم القاسي.

- اصمت أيها السفيه - صرخ والدي وهو يضرب المنضدة بقبضته.

أطلق ميندل قهقهة، ثم هز كتفيه. ولم يستمر في الجدال فهو لا يريد أن يُغضب أبي، لأنه يعيش في بيتنا مجاناً. وكان أذكى من أن يفقد طعامه المضمون من أجل شيء تافه كالتلمود.

شربنا النبيذ، وكسّرنا الجوز بأسناننا، وأكلنا خياراً، وتحدثنا،

وتابعنا الحديث. وموسكوفيتز يعزف على آلته الغجرية ومئة يهودي يضعون قبعات الديربي، ويملؤون المكان بالدخان والضحك.

٣

رفعني والدي إلى الطاولة كي ألقي قصيدة تعلمتها في المدرسة:

أحب اسم واشنطن،
وأحب بلدي أيضاً،
أحب رايتنا، رايتنا الحبيبة،
راية الأحمر والأبيض والأزرق.

صفقت أيدٍ مخشوشنة بفعل العمل، وامرأة سمينة لها وجه أحمر مشرق قرصتني بحنان. وجَّه موسكوفيتز إليّ ابتسامة، وكعلامة على استحسانه ضرب برفق على أوتار آلته بالمطارق. وضرب عدد من الأشخاص على منضدة أخرى كؤوسهم على سطح الطاولة. ساعدني والدي على النزول وقبَّل وجنتي الملتهبتين حماسة وقال باعتزاز:

- انظروا، هل سمعتم في حياتكم أحداً يتحدث الإنكليزية أفضل من هذا؟ إنه يتكلم الإنكليزية بطلاقة، بينما أنا الذي مضى على وجودي في هذه البلاد عشر سنوات لا أعرف أن أقول كلمة واحدة.

قال موتيك وهو يربت على رأسي بحنان:

- سيكون عالماً، بإمكانه أن يكون مليونيراً، ولكن من الأفضل أن يكون طبيباً ورجل علم.

بعد ذلك أخذ الحر والدخان والنبيذ يثقل جفوني، ولم يعد باستطاعتي إبقاء عيني مفتوحتين، فنمت في حضن والدي ورأسي مستند إلى المنضدة.

وفجأة وجدت نفسي واقفاً، كنت أفتح وأغمض عيني بفعل ضوء الغاز، كان موتيك يمسكني من يدي ويدعوني لأسير معه. «أين أبي؟» فكرت وأنا ألتفت محتاراً خلال الضباب.

- أين بابا؟ - سألت موتيك.

كانت تبدو على وجهه الأحمق والدمث إمارات عدم الارتياح. أشار إلى منضدة قرب الباب.

كان والدي هناك، يهز ذراعيه ويصرخ بوجه رجل قصير القامة وجهه مغطى بقروح الجدري، يلبس بدلة زرقاء وقبعة ديربي. الرجل القصير كان خائفاً، وعيناه جاحظتان وكأنهما ستقفزان من محجريهما، كعيني السمك، تعلوهما دموع الذل والمسكنة. حاول الرجل الوقوف ولكن والدي أجلسه على الكرسي بدفعة واحدة. وصرخ مخاطباً الموجودين وهو يمسك الرجل القصير من ياقة سترته.

- أيها اليهود، أيها الأصدقاء. أيها اليهود المحترمون، انظروا إلى هذا التعيس. إنه نصاب، قاتل، مصاص دماء. لقد أراد أن يدمرني، أن يأكل أحشائي. انظروا إليه يرتجف من الخوف. إنه يعرف أني سأنتقم منه.

ميندل، وآرون كاتز، وآخرون حاولوا إقناع أبي بألا يصرخ. كل من كان في القبو كان ينظر إلينا وأنا أرتجف من التأثر. كنت أريد مزاحمة الحشد لأصل إلى أبي وأساعده.

ولكن موتيك سحبني إلى الشارع دون أن يترك يدي، لم يتأخر والدي وأصدقاؤه عن اللحاق بنا. استمر الأصدقاء في محاولة تهدئة أبي الذي كان يصرخ. وافترقنا عنهم عند المنعطف، لنذهب إلى بيتنا وحدنا. كان والدي خارجاً عن وعيه. وقف ليمسح وجهه وهو يدمدم:

- هذا اللص، سام كرافيتز، لماذا لم أقتله؟ لماذا تركته ينعم بالنقود التي سرقها مني؟

كانت ليلة شديدة الحر. الشارع مزدحم بأناس يتمشون ذهاباً وإياباً. واجهات المحلات التجارية تتلألأ. بعض الباعة المتجولين لا يزالون ينادون على بضائعهم. القمر يبدو كاملاً في السماء السوداء فوق عمارات حينا السوداء. شعرت بصداع ودوار، وكأني قد قضيت اليوم كله في جزيرة كوني وقد أتخمت معدتي بالنقانق.

توقف أبي أمام إحدى الحانات، وعلى نور المصباح الكهربائي اللامع نظر إلي وعيناه متقدتان كقطعتي فحم. لقد أخافني.

وقال بصوت غريب:

- يا ولدي الصغير. إني رجل قد وقع في الفخ. لقد فقدتُ كل شيء، حتى إمكانية استدانة ثلاثمئة دولار.

- نعم يا بابا.

- عاهدني يا صغيري الحبيب.

- أجل يا بابا.

- عاهدني أنك ستكون طبيباً.

- أجل يا بابا.

- والدتك وأنا سنعمل حتى نموت، لنجعل منك شيئاً ذا قيمة،

كي لا تكون عاملاً فقيراً كوالدك التعيس، علينا أن نثبت لهذا اللص سام كرافيتز بأنه لم يقضِ علينا.

- أجل يا بابا.

- سأكسب نقوداً من أجلك يا ولدي، ولكن عليك أن تدرس. من الضروري أن تدع الولدنة جانباً، وأن تترك صداقة نيجر، فهو صبي سيئ، وسينتهي إلى السوء. ولكن عليك أن تتعلم.

- أجل يا بابا.

٤

ثلاث ساعات بعد ذلك كانت العمارة بأكملها قد نامت. الليل، تلك الأم العجوز، لم تنس الإيست سايد الذي نستريح في جوفه بسلام. القوادون ينامون، والشرطة ينامون، والمسنون الحالمون بالتلمود ينامون. جبال روكي، والمحيط الأطلنطي، وكريستي ستريت، وبرونكس بارك، جميعها تقبع في الظلمة.

أنا أنام مع الكوابيس. أحس أنني أطير في الفضاء، ثم أهوي فجأة إلى هاوية العدم السحيقة، ويتلو ذلك صوت انفجار عظيم، وخمس نجوم حمراء ضخمة تصطدم من حولي.

استيقظت وأنا أصرخ. عندئذ خرجت والدتي مندفعة من غرفة النوم. شاحبة كشبح وأشعلت مصباح الغاز. كل الأشياء المألوفة في المنزل بدت لي غريبة وشاذة، وكأني لم أستيقظ من الكابوس بعد. سمعت والدي يشتكي بصوت غريب:

- بسرعة، بسرعة. أحضروا الطبيب، إنني أموت.

استيقظت أختي وأخذت بالبكاء. ميندل وخالتي لينا استيقظا

أيضاً وارتديا ملابسهما. خرجنا، خالتي لينا وأنا، نركض بحثاً عن طبيب. طرقنا أولاً باب الدكتور آكسلرود، تأخر بالرد. انتظرنا في الظلام المقفر وقلوبنا تخفق. بعد هنيهة أخرج الطبيب رأسه المغطاة بقلنسوة النوم من النافذة وصرخ متذمراً:

- الطبيب ليس موجوداً. لا تقرعوا الجرس أكثر.

كنت متأكداً أنه الطبيب نفسه، ولكنه صفق النافذة، فلم أستطع أن أقول له ذلك.

بعد ذلك طرقنا - خالتي وأنا - باب الطبيب الآخر الذي في شارعنا وهو الدكتور الشاب سولوو. فحضر مسرعاً وهو يحمل حقيبة سوداء.

عندما أنهى الكشف على والدي أكد أنه لن يموت. وليس به ما يشكو منه إلا عسر هضم وتعب أعصاب. ووصف له بعض أقراص الدواء.

بعد التقائه بابن خاله سام كرافيتز في القبو، ظل والدي مريضاً ثلاثة أيام.

الفصل الحادي عشر

أم الأزعر

١

زعران كثيرون يهوون تربية الحمام على سطوح الإيست سايد. ويحبون الاجتماع في دكاكين بيع الطيور البيضاء، تلك الدكاكين التي تبدو كالقبور لبياضها وكثرة ما عليها من زرق الطيور، يجتمعون ليتباحثوا ويتناقشوا حول سوق الجريمة وسوق الحمام. كانت عبادة الحمام شائعة بين زعران نيويورك لحوالي خمسين سنة.

إننا نكره الزعران، كما نكره جميع المرتزقة. ورغم ذلك فإن كثيرين منهم ليسوا سوى بائسين. إنهم مخلوقات فاسدة خرجت من رحم العالم الفاسد.

«جيب» القاتل، الذي أُعدم على الكرسي الكهربائي لأنه قتل المراهن روزنثال، كان زميلي في المدرسة العامة، وهو النموذج المألوف لزعرنة الإيست سايد. وكان يمكن لأي منا أن ينتهي إلى الكرسي الكهربائي. أنا لا أستطيع أن أتفاخر بأني نجوت، فذلك مجرد حظ فحسب.

في السابعة عشرة من عمري تعاملت مع عدة زعران. وفي

صباي تعرفت على لويس الأعور الذي كان يربي الحمام على السطح المجاور لنا.

٢

استولى لويس الأعور على السطح بعد عراك. وللسطح أهمية عند الجيران. ولهذا كرهه الجميع.

في الصيف، تتحول الشمس إلى أزعر، تصفع العمال وأولادهم في الشارع. فكان السطح مأوى لنا.

مثل فئران تتسلق سطح سفينة تحترق، هكذا كنا نصعد إلى السطح في الليل. يا للخليط الذي يجتمع هناك تحت ضوء النجوم. أمهات، شيوخ مسنون، أولاد حيويون، آباء ممددون تعباً بعد يوم من العمل في المصانع، مسلولون يسعلون ويبصقون. جميعنا كنا نشخر معاً ونحن ممددون فوق جرائد أو فرش. ننام بسراويلنا وقمصاننا، مكومين كجثث، والمدينة ترتفع من حولنا.

كل عائلة كانت على قدر كافٍ من اللطف لتترك فراغاً بسيطاً بينها وبين العائلة التي تنام إلى جانبها، وهذا الفراغ هو الخصوصية الوحيدة المتوافرة على السطح. لقد استيقظت في إحدى ليالي الصيف ذات الحر الخانق ورأيت كل شيء ككابوس: رأيت أكواماً من اللحم الشاحب تتقلب وتتلوى في وجه مدينة لا واقعية. خفت، لم أعرف أين أنا، فأخذت أبكي وأنا أفكر، ماذا سيحدث لو رميت بنفسي عن السطح. سمعت أمي بكائي فهدأتني وعدت إلى النوم.

كان الهواء القادم من الأطلسي يلفحنا أحياناً، وفي أحيان

أخرى كان القمر الحالم الملتهب ينظر إلينا ويذكرنا بالصحراء العربية.

في بعض الليالي يهطل المطر. يشق البرق فجأة عنان السماء نازلاً نحو جسر بروكلين. ويكشف البرق عن رؤية خيالية لمدينة لا معقولة ذات أبراج هائلة. نيويورك.

نقفز جميعاً بهرج ومرج كبيرين. نصرخ، ونشتم المطر، وننادي الآخرين. نأخذ فراشنا ونهبط متعثرين إلى الفرن، إلى غرف نومنا. دائماً كان هناك من يبقى على السطح مفضلاً أن يبتل بالمطر على أن يعود إلى ذاك الجحيم.

يقال إن الفجر جميل، ولكن أين؟ على السطح لم يكن هناك من يبدي إعجابه بتلك الساعة التي يغطي بها اللون الأحمر الأرجواني السماء الشاحبة كخد رجل مسلول. ففي هذا الوقت تصل سحابات من الذباب، فلا يعود النوم ممكناً. وهكذا يبدأ اليوم الرطب ونعود إلى الواقع والفقر.

النساء ينشرن الغسيل على السطح. والعشاق يصعدون إليه بحثاً عن الكنز الذي لا يمكن العثور عليه في الإيست سايد: الخصوصية.

ونحن الأولاد نلعب على السطح حيث الهدوء أكثر من الشارع، ولكن الخطر نفسه. كنا نطيِّر الطيارات الورقية. أو نقوم باكتشاف الايسد سايد من الأعلى، قافزين من سطح إلى آخر. وكان ذلك يشكل رعباً للأمهات.

أجل، لقد كان السطح مهماً. جميع السطوح كانت تستعمل كصالونات اجتماعية وكغرف نوم. ومع ذلك فقد تمكن لويس الأعور من السيطرة على سطح العمارة. فكان صاحب جزيرة من

صفائح التنك ومن المداخن و الحمام. ولهذا كان مكروهاً.

٣

كان لويس شاباً، نحيل الجسم، رشيقاً كأفعى، له شعر كشعر هندي أحمر، وتقاطيع يهودي. كان من الممكن أن يكون جميلاً لولا عينه الناقصة، والتواءة الاحتقار الثابتة على فمه. هذان التشوهان كانا يبدوان في وجهه كجرحين. وقد كانا جرحين أصابه بهما المجتمع.

تقول الأسطورة، إنه كان للويس والد فظ. وفي الرابعة عشرة من عمره رأى لويس أباه وهو يضرب أمه، فرماه لويس من النافذة، وكاد يقتله. بسبب هذا الحادث أُرسل الصبي إلى الإصلاحية.

وهناك قامت الدولة «بإصلاحه». فعلمته بإتقان كيف يصبح مجرماً، وفقأت له إحدى عينيه.

هل هناك مجرم أكثر قساوة من الدولة؟ وهل هناك مجرم بلا قلب مثلها؟

كلا. فقد قام أحد الحراس بجلد لويس بحزام جلدي لساعة كاملة، لأن الصبي أخلَّ بإحدى «القواعد». وبإبزيم الحزام فقأ له عينه. أخذ لويس يتلوى من الألم. ولكن أزعر الحكومة المجنون ذاك تابع تنفيذ «العقاب».

ظل الصبي يدمي في زنزانته طوال الليل، كان في الرابعة عشرة من عمره. وفي الصباح كان قد هدأ، فحضر «طبيب» الدولة القاسي، وسمل العين التي لم تعد لها فائدة. ومنذ ذلك الوقت عُرف لويس بالأعور.

العين المتبقية بقيت صارت أكبر حجماً وأكثر وحشية. كانت سوداء، ومنها ينسكب الحقد، والجشع، والازدراء، والريبة. كأنها فانوس أبدي لاحتقار العالم.

الجميع يَرهبون لويس. فهو يحمل مسدساً على الدوام، وقد قتل عدة رجال. لقد جعلت الدولة من صبي خجول وبائس تلك الأفعى السامة التي توجه لدغة الموت أمام أدنى استفزاز.

أقام لويس على السطح قفصاً كبيراً لحمائمه، وكان يُخرجها من القفص مرتين في اليوم. كنا نختبئ خلف إحدى المداخن وننظر إليه وهو يقف على حافة السطح ويتطلع نحو السماء. وفوق السطوح الأخرى، هناك أسراب من الحمام ترتفع وتنخفض بسعادة لا متناهية. كنا نحسد الحمائم على جمالها وحريتها.

ولكن لويس الأعور يمد قصبة البامبو الطويلة إلى أعلى، ويطلق تلك الصفرات السحرية المعروفة لدى مربي الحمام، فتهبط الحمائم من السماء الزرقاء كسرب من الأسرى، وترجع بوداعة إلى سجنها. إنها ليست حرة. ويستولي علينا الذهول نحن الأولاد. ولكني الآن أعرف السر، فالحمائم كالبشر يمكن توجيهها بسهولة إذا ما قدمنا لها الطعام.

٤

في ذلك الحين كنت أحب خالتي لينا. كم كنت أتألم عندما كنت أمشي معها في الشارع وأرى الرجال يتطلعون إلى خالتي لينا ويغمزونها ويحاولون قرص ساقيها، أو يقولون لها كلمات بذيئة فلا أعود أستطيع النظر إلى وجهها. في إحدى المرات شدها أحد

القوادين من يدها وحاول أن يقبلها، ولكن خالتي صفعته بقوة مما جعل أحد رجال الشرطة ينقلب من الضحك.

لقد كانت محاطة بالرجال دوماً، فهي صبية فتية تشد إليها الأنظار أينما ذهبت، وتوقظ ما يشبه الحمى، كأنها مغناطيس. تكون الحياة مظلمة بلا أمل، ولكن عندما تصل، كمسيح مزيف، تجعل حتى أقسى الشرسين يحلمون.

كليم الجاموس. وهو شاب ألماني، يعمل خبازاً في شارعنا. كان يأتي كل صباح ليقدم لها «الولاء الخبزي»، أربعة أرغفة ساخنة يسرقها من المخبز يومياً. وآرون كاتز الخياط كان يصطحبها إلى مسارح الفودفيل. ضبطني لويس الأعور في إحدى المرات وأنا أراقب حمائمه، وقد فوجئت كثيراً لأنه لم يصفعني. ولكن ما فعله كان أسوأ من ذلك فقد سألني عن خالتي لينا.

٥

وصلت خالتي من هنغاريا في لحظة سوداء، في شتاء سيئ. وكان والدي بلا عمل، ووالدتي حزينة تملؤها الهموم. كان الثلج قد هطل طوال أسابيع كاملة، والشوارع ممتلئة بالماء الموحل. وكنا جميعنا مصابين بالزكام. في كل شارع كان ثمة مستأجر مطرود من بيته. وكان والدي يعلق مزمجراً: «سيأتي دورنا الآن».

ولكن خالتي لم تكن تهتم بذلك كله. كانت في السادسة عشرة، وكانت الهجرة هي مغامرتها الأولى. عندما وصلت كانت سعادتها غامرة.

ومن هو القادر على مقاومة الوقوع في حب تلك الريفية

الصغيرة. كانت لها وجنتا فلاحة باسمة، وجديلة من الشعر الأسود اللامع الذي تعتز به، تقف ساعات وهي تضفره. كانت تبدو ناضجة كامرأة، ولكن عينيها تبدوان كعيني طفلة. فهما صافيتان، طاهرتان، سعيدتان.

تنظف البيت دائماً وهي تتكلم بحماسة، وتهرول بمرح طفولي. كم هي مجنونة بأمريكا، بتلك الأشياء المألوفة لدينا والتي نعرفها تماماً: اللغة، والبيوت العالية، والناس. كل شيء كان يفتنها. عندما وصلت لم تكن تنام من فرط السعادة. تقفز من السرير وتبدأ بالغناء وهي تحضّر الفطور. ثم توقظنا جميعاً، وتضع شالاً أحمر وتخرج لتكتشف أميركا مرة أخرى.

أحياناً تأخذني معها. تلف المدينة كلها، من باتري بارك حتى سنترال بارك. نركب الترام، ونرى العابرين في الجادة الخامسة الذين يثيرون ذهولنا بسعادتهم. نتلهى ونحن نراقب الزوارق التي تمر جيئة وذهاباً في الإيست ريفر. وفي أوركارد ستريت نشهد مشاجرات الباعة المتجولين.

كل شيء كان يبدو رائعاً لخالتي لينا، أما والدتي فكانت تخاف عليها، فمن الممكن أن تضيع أو أن يخطفها أحد القوادين الذين يلاحقون الفتيات الغريرات الجميلات اللاتي يصلن حديثاً.

ولكن خالتي لينا لم تكن تخاف شيئاً، كانت تضحك لكل شيء، ونحن نضحك معها. كانت سعيدة في البداية وكانت تسعدنا جميعاً.

فيما بعد انتهى كل ذلك.

٦

في إحدى الليالي وبينما نحن نتناول العشاء. قالت أمي:

- اسمعي يا لينا.

- نعم يا كاتي؟

- لينا، ماذا سنفعل، فنحن لا نستطيع دفع إيجار البيت.

- لا تستطيعون! - قالت خالتي لينا مستغربة.

- إننا فقراء يا عزيزتي، ولولا أنه عليَّ أن أطبخ وأخيط وأعتني بالأولاد لكنت بحثت عن عمل. ألا تعتقدين أنه بإمكانك أن تبدئي البحث عن عمل لك؟

فقالت خالتي متسائلة وهي تبدو كطفلة:

- أنا يا كاتي عليَّ أن أشتغل؟ في بلدي لم أكن أشتغل أبداً.

- أجل، ولكننا فقراء هنا يا أختي. ليس لدينا أبقار ولا دجاج كما في هنغاريا، الجميع هنا يشتغلون. حتى الأطفال.

- ولكني أريد أن أمرح يا كاتي. أريد أن أرى أشياء جديدة.

بدت خالتي لينا وكأنها ستنفجر بالبكاء. وأنا حزنت كثيراً أيضاً. وتناولت حسائي بصعوبة. ولكنها راحت تضحك فجأة، وقالت:

- آه يا كاتي، إني حمقاء حقاً. طبعاً سأشتغل في النهار، ثم أمرح في الليل. سأذهب في الليل لأرى المراكب في النهر، أليس كذلك يا كاتي؟

- أجل يا أختي الصغيرة، في الليل ستشاهدين المراكب - قالت والدتي بعذوبة.

وهكذا بدأت خالتي لينا العمل في مخزن ملابس، حيث كان يُدفن هناك شباب وجمال ونشوة الإيست سايد. الروتين جعل منها امرأة أخرى. ففي الليل تعود منهوكة، وعليها أن تغسل وتكوى قمصانها لليوم التالي، ثم تقوم بحصتها من الأعمال المنزلية. منذ ذلك الحين لم نذهب إلا في مرات نادرة جداً لنرى المراكب في النهر أو عربات الباعة المتجولين في أوركارد ستريت والمشاهد الأخرى في أمريكا.

٧

دائماً كان يحضر إلى بيتنا رجال، وكان هؤلاء يسببون لي القلق المستمر. وفي إحدى المرات قلت لخالتي:

- أيتها الخالة لينا. أنت ستتزوجين مني عندما أكبر، أليس كذلك؟

- أجل يا عزيزي مايك، سأتزوج منك أنت فقط.

- هل تقسمين على ذلك؟

- أجل، انظر يا مايك - قالت وهي تقبل إصبعها الصغير، ثم تابعت:

- عندما تكبر وتصبح طبيباً مشهوراً سأتزوج منك. فقط منك يا مايك.

قبلتني، فخفق قلبي بعنف. لقد أيقظتْ جسداً جديداً، سيحيا ساعته على الأرض بسحر التأثر والألم.

٨

في أحد الأيام سقطت خالتي لينا مريضة ولازمت الفراش. كانت هناك طلبات مستعجلة في المشغل، وكان عليها أن تعمل فوق طاقتها، حيث كان العمل بنظام القطعة، وهو نظام استعبادي فرعوني، يسقط به أعتى الرجال كما لو أنه مصاب بالطاعون.

خالتي غدت شاحبة. وفي عينيها تبدو كآبة الألم. عندما رجعتُ من المدرسة، ابتسمت لي وقبلتني قائلة:

- مايك، بعد أن تتناول القهوة مع الخبز والزبدة سأطلب منك أن تؤدي لي خدمة.

- حاضر يا خالة لينا.

- خذ عشرة سنتات، واذهب إلى دكان بيع الآلات الموسيقية، واشتر لي كراساً يحتوي كلمات هذه الأغنيات وأنا سأغنيها، ولننسَ المشغل.

كتبت عناوين الأغنيات على ظرف قديم أعطتني إياه. لقد تعلمت خالتي الإنكليزية بسرعة. وبعد أن تناولتُ وجبتي، ذهبتُ إلى دكان الموسيقى واشتريت لها الأغاني.

دائماً كنت أطرب لسماعها تغني. أجلس إلى جانبها، تداعب شعري، فأشعر أني مرتبط بلذّه مؤلمة. والدتي خرجت من المطبخ أيضاً لسماعها. وقد شرحت لها خالتي معاني الأغنيات.

إحدى تلك الأغنيات كانت تسمى «كعصفور في قفص من ذهب». وكما قالت خالتي إنها قصة فتاة فقيرة تزوجت من رجل ثري لتساعد عائلتها، ولكنها لم تتحمل النفاق والعبودية اللذين

يفرضهما عليها ذلك الزوج، فأصبحت حزينة، حزينة جداً، وما
بعد وقت قصير.

هزت والدتي رأسها بأسى وقالت باليبدية:

- يا للمسكينة الصغيرة. إن هذا مؤلم ومؤثر.

أذكر أن الأغنية الأخرى كانت بعنوان «ابنة الحاخام». و
قصة حاخام عجوز متزمت وصارم، أحبت ابنته شاباً مسي
وتزوجت منه. الحاخام الذي حطم الألم قلبه، أتم التقليد اليهو
المرعب الخاص بحالة كهذه: أقام مأتماً لابنته.

وحاول العجوز أن ينسى، ولكنه لم يستطع. وظل حزيناً ح
مات مغموماً. عند ذلك حزنت ابنته وماتت غماً كذلك.

عادت والدتي تهز رأسها، وقد اغرورقت عيناها بالدموع.
هتفت قائلة:

- آه كم هو محزن ذلك. إنه محزن ورائع. إنه مشابه ا
يحدث في الحياة.

إني أتذكر الآن تلك اللحظات، وأنا أعرف أن تلك الأغ
كان يكتبها ساخر أو مهرج من برودوي ليثرى وهو يضحك
سره. اليوم اعتاد أحدنا أن يأخذ تلك الأغاني على محمل الهز
ولكنني أذكر خالتي لينا، مريضة من قسوة العمل وهي تغن
بصوتها العذب. وأذكر كذلك دموع والدتي.

٩

في تلك الأيام، أقدم بعض اللصوص الشبان على قتل ب
خضروات قرب بيتنا. وقد ظهر الحادث في جميع الصحف

وسمعتُ الجيران يتهامسون بأن عصابة لويس الأعور هي المسؤولة عن ذلك العمل.

بعد ذلك اغتصبوا طفلة في قبو قريب. فتاة صغيرة مسكينة، كانت تصرخ صرخات مفزعة.

فيما بعد وضع أحدهم قنبلة في بيت مهاجر إيطالي. سمعنا الانفجار في إحدى الليالي، فهربنا كلنا بملابسنا الداخلية، في الساعة الثالثة صباحاً. اهتزت العمارة بفعل الانفجار، وازدحم الشارع بأناس شبه عراة يتلفتون حولهم كمجانين، كان ذلك يبدو وكأنه يوم القيامة.

إنها عملية أخرى من عمليات «الكف الأسود»، ولكن الجيران كانوا يتهامسون بأن لويس الأعور هو الفاعل.

بدأ الجيران بتحميل لويس مسؤولية كل ما يحصل. ولم يكن لويس يبدي أدنى اهتمام. كان يمر مختالاً، يدفع الناس عن الرصيف كأنه ملك. لم يتوجه بكلمة طيبة إلى أحد أبداً. وكانت بعض سرقاته وقحة، كسرقات السياسيين، فهو يجبر أصحاب المتاجر أحياناً على شراء تذاكر لرحلات أو حفلات رقص وهمية. أو يأخذ الفاكهة من العربات ويمضي بكل هدوء دون أن يدفع ثمنها، وكأنه رجل شرطة.

الجيران يكرهونه، فيطلبون من البواب أن يطرده مع حمائمه وكل حاجاته. ولكن البواب السمين كان مدركاً للمسألة: «ليس بالإمكان طرد لويس، فهو يتمتع بحماية تاماني هول». وقد كان البواب محقاً في قوله.

طبعاً، إن لويس لا يشتغل أبداً، وقد دخل السجن عدة مرات، إنه بيضة فاسدة. لا يشعر بوجود شخص أقوى يجازف بمواجهته، لأنه يحمل مسدساً. وحتى لو استطاع أحد انتزاع المسدس منه وضربه، فإن باستطاعة عصابته تصفية الحساب فيما بعد مع من يضربه. لقد كان السيد المطلق في العمارة، ولهذا يكرهه الجيران جميعهم، ويلقون عليه اللوم في كل شيء.

والدته عجوز نصف مقعدة، تلف نفسها بشال قديم. إنها الشخص الوحيد الذي يحب لويس. تمضي في الشوارع والدكاكين وهي تعرج. وقد اعتادت أن توقف العابرين لتسألهم وهي تنظر إلى وجوههم بعينيها المطفأتين: «لماذا تقولون إن لويس ولد سيء؟ لويس صبي طيب. لماذا لا تتركونه بسلام؟ لويس ولد طيب».

ولويس على ما يبدو كان يحب أمه: فهو يساعدها على صعود السلالم، ويقوم بشراء ما تحتاجه في الصباح حتى لا تعاني الألم في ركبتيها المصابتين بالروماتيزم من المشي. ويعطيها النقود أسبوعياً. ويشتري لها الملابس.

في أحد الأيام كانت هناك حفلة للإيطاليين في الحي، وبين البيوت ارتفعت أقواس مزينة بمصابيح كهربائية، وكانت هناك فرقة موسيقية. وباعة كستناء وحلويات. وكان الإيطاليون يغرِزون أوراقاً نقدية من فئة الدولار بدبابيس على مقام قديس لهم.

وفجأة عمت الفوضى، ورأيتُ لويس دون مساعدة من أحد يمسك بثلاثة إيطاليين أشداء، كانوا قد شدّوا لحية عجوز يهودي غامر مثلنا بالحضور إلى هذه الأرض المسيحية.

١٠

في إحدى الليالي الحارة، صعدنا خالتي لينا وأنا، إلى السطح بحثاً عن الهواء النقي. خالتي كانت تلبس كيمونو. وكان شعرها الأسود الذي انتهت للتو من غسله وتصفيفه يبدو رائعاً على ظهرها. لم يكن هناك أحد على السطح، ماعدا لويس الذي كان يراقب طيران حمائمه في الغسق الصيفي.

عندما رأيته داخلني الرعب. أردت الرجوع، ولكن خالتي هدأتني. بسطنا بعض الصحف في أبعد مكان ممكن عنه وجلسنا.

نظر لويس إلينا بعينه الوحيدة. وقد تسارع نبض قلبي عندما اقترب منا. أعتقد أنه حاول الابتسام ولكن مسحة الاحتقار لا تمحى بسهولة من وجهه.

نادى خالتي قائلاً:

- أنت يا بنت. تعالي وانظري إلى حمائمي.

تكورت خالتي على نفسها من الخوف، اقترب لويس أكثر، وقال وهو يلوي فمه:

- اسمعي، أنا لدي حمائم رائعة، عندي واحدة لها ذيل كمروحة، وهي وحدها تساوي عشرة دولارات، ولدي ست حمامات برية، لقد سرقتها من رجل سافل في فورسيث ستريت حاول أن يقتلني.

انحنى لويس وداعب شعر خالتي بأصابعه، فتجمدت في مكانها كأنها مشلولة.

- انصرف من هنا يا مايك، أريد أن أتحدث مع خالتك.

نظرتُ إليه بطرف عيني، ولم أستطع أن أتحرك. كنت أشعر بشيء يدفعني لألقي بنفسي على ساقيه وأعضهما. أن أفعل أي شيء لإنقاذ خالتي. أمسك لويس بفستان خالتي وحاول تمزيقه. ولكنها انتفضت بقفزة واحدة، وغرزت أظافرها في وجهه وهي تصرخ. فشدها بعنف. ركضتُ نحو باب الدرج، وأخذتُ أصرخ طالباً النجدة.

وفجأة، لا أعرف كيف ولا لماذا، امتلأ السطح بالجيران. لا أستطيع أن أفهم كيف وصلوا بهذه السرعة. إن الناس تحتشد دائماً في الإيست سايد بسرعة انفجار الديناميت.

التقى جمع الجيران مع لويس وجهاً لوجه. ففوجئ، وتراجع نحو قفص حمائمه.

- ما الذي حدث؟ - سأل موريس، وهو شاب بدين يعمل خياطاً.

أخبرته خالتي. الجميع نظروا إلى لويس نظرات متوعدة، ولكنه كان قد استعاد سيطرته على نفسه قبل أن تنتهي خالتي من الشرح، فبدأ يدفع الناس.

- هيا، أخرجوا من سطحي - زمجر بوجهه الكريه الذي يشبه وجه الغوريلا.

تراجع الحشد ببطء مدمدماً. وفجأة، ألقى أحدهم من بعيد بصندوق فارغ على لويس فأصابه في وجهه، وجرحه بمسمار بارز تحت عينه الوحيدة، فبدأ ينزف.

أطلق لويس الزبد من فمه، وأخذ يزأر كحيوان مفترس، كمجنون، ثم صرخ وهو يخرج مسدسه:

- من الذي قذف هذا؟ - سأقتل ابن العاهرة الذي فعل ذلك. سأقتله الآن.

نظرنا إليه والرعب يسيطر علينا، كأننا ننظر إلى مجنون هارب من مستشفى الأمراض العقلية.

في تلك اللحظة، لست أدري من أين، ظهرت أمه. وصلت وهي تعرج إلى ولدها. ونظرت إليه بعينيها المطفأتين. وقالت بصوت ضعيف:

- أجريح أنت يا لويس؟ - ثم توجهت إلى الجيران قائلة:

- لماذا تعذبون ابني لويس؟ لويس صبي طيب، لا يؤذي أحداً.

لم ترَ المسدس، فقد دسه لويس بتصنع في جيبه، وهدَّأ والدته وهو يربت على ظهرها بحنان، وقال:

- لم يحدث شيء يا ماما، عودي إلى البيت.

أخرجت العجوز منديلاً، ومسحت الدم عن عينيه وهي تتمتم بالشكاوي ضد الشر في الدنيا. الجيران انسحبوا بخجل، وكأنهم هم المخطئون. وحمائم لويس التي لم يقم برعايتها خلال كل تلك الفترة، نزلت وهي ترفرف بأجنحتها ودخلت إلى القفص. إنهن سجينات مثلنا في الإيست سايد.

استمر الجميع على كراهيتهم للويس الأعور، وأنا كذلك. ولكنني الآن أكره أكثر من لويس، أولئك الذين أمسكوا بصبي في الإيست سايد وجعلوا منه وحشاً مفيداً لأرباب العمل في قمع إضرابات العمال، وللسياسيين أيام الانتخابات.

الفصل الثاني عشر

فطر برونكس بارك

١

صيف. لا يمكن التنفس. الشمس تلهبنا طوال النهار، وفي الليل تنفث حجارة الغيتو بخاراً. لم نكن نشعر بالراحة من وطأة الأثقال على رقابنا وجماجمنا. الناس يمرضون، والأطباء لا يتوقفون عن العمل.

الأطفال يولدون ويموتمون، والذباب يتكاثر. الجميع عصبيون. ودائماً هناك مشاجرات أمام مدخل العمارات، كنت أستيقظ في سكون الليل وأسمع الجيران يزمجرون ويتقلبون في غرف نومهم، أو يخرجون بحثاً عن مكان للنوم كأنهم يبحثون عن كنز. أشباح غائرة العيون تتسكع في الشوارع طوال الليل. عائلات كثيرة تنام على أرصفة الميناء أو في الحدائق أو على السطوح. لقد كانت الدنيا فرناً ملتهباً.

٢

في بعض الليالي كانت أمي تُخرج الفراش إلى الرصيف أمام

بيتنا، وبينما هي ووالدي يجلسان على درجات البيت، ويثرثران مع الجيران الآخرين، كنا - أختي وأنا - ننام في عرض الشارع.

حافلات الترام، والعربات، والأحاديث، وآلاف الأحذية تمضي مبتعدة على بلاط الرصيف، وصوت عجلة آلة صقل البلاط. كل ذلك لم يكن يقلق نومنا. ولكن في إحدى الليالي وقع حادث ترك في ذهني أثراً لا يمحى.

في ليلة الرابع من تموز، وما يثيره هذا التاريخ من فيضان مشاعر وطنية، حيث الأولاد في الشارع يطلقون المفرقعات. كان الليل مضاء بأنوار الألعاب النارية. إيطاليون شاحبون يطلقون مسدساتهم نحو السماء. بريق أحمر، وأزرق، وأصفر من الألعاب النارية. عجلة إطلاق مفرقعات تلف وتطلق الشرر. الشهب تلمع في السماء، والصواريخ تنطلق كأفاعٍ ذهبية مجنحة فوق البيوت. لقد كان ذلك ممتعاً جداً، ولكني تَعبت في النهاية ونمت على فراش مدّته أمي أمام العمارة.

كنت قد نمت مدة ساعة تقريباً عندما رمى شخص متهور مفرقعة من إحدى النوافذ، فانفجرت على الوسادة بجانب وجهي. نهضت قافزاً وأنا أصرخ مذعوراً، وركضت نحو أمي. وعندما رأيتُ أني أنزف أخذت أبكي وأرتجف. كان ثمة جرح في كتفي الأيسر، مازلت أحمل أثره حتى الآن.

التأم الجرح بسرعة، والدم الذي نزف نسيته بسرعة أيضاً. ولكن الذي لم يختف كان الرعب. فبعد ذلك الرابع من تموز بقيت لعدة أسابيع، أستيقظ وأنا أطلق الصرخات في كل ليلة. كنت أستعيد الانفجار في أحلامي. لم يعرف والداي ما يفعلان. الطبيب

آكسلرود أعطاني بعض الأقراص ذات اللون الوردي، ولكنها لم تنفعني بشيء. أما الطبيب سولوو النحيف الكئيب فقد همس شيئاً عن وجوب إرسالي إلى الريف. ولكن ذلك لم يكن ممكناً كما قال والدي، فوصف لي الطبيب دواء مائلاً إلى الخضرة. لم يفدني بأي شيء أيضاً.

بدأت أفقد الكثير من وزني، فنصحت إحدى الجارات أمي باستشارة المداوية. والفضل بشفائي يعود إلى «ماما سيما» تلك الطبيبة الساحرة.

٣

نساء كثيرات مثل تلك الطبيبة الساحرة يعملن في الإيست سايد. وكنَّ يعاملن باحترام كبير. فسكان الإيست سايد يوقرون الأطباء كثيراً، ولكن في بعض الحالات العصبية أو في المصائب الشخصية يعودون إلى أساليب العصور الوسطى.

العشاق يطلبون من العجائز - المامات - تعاويذ ليفوزا على منافسيهم في الحب. والزوجات المهجورات يدفعن لأولئك العجائز كي يصنعن دُمى شمعية تمثل أزواجهن ويقومون بتعذيب تلك الدمى حتى يعود الأزواج.

في إحدى الليالي الصيفية حضرت إلى بيتنا ماما سيما، وكنت أرقد شاحباً وضعيفاً من أشباح أفكاري. كانت عجوزاً حدباء، تضع منديلاً على رأسها وتلبس مريلة مطبخ، لها عينان حمراوان وكرش كبير، فمها خالٍ من الأسنان وأنفها ينزل إلى أسفل حتى يكاد يلامس ذقنها، تلبس ثياباً بائسة كأي شحاذ يقف على باب الكنيس،

جاءت وهي تلهث من صعود الدرجات، فقدمت لها والدتي شاياً، تحدثت قليلاً ثم تناولت بعض النشوق، ودخلت غرفة النوم لتراني.

قالت بحماسة وهي تمسح أنفها ووجهها بخرقة قماش أخرجتها من حقيبتها السحرية.

- حسناً، حسناً. إذا حدث هذا بسبب صاروخ مفرقع فأنا سأشفيه. لقد فزع الولد، وأنا سأسحب منه الفزع. وبعون الله سيشفى خلال أسابيع.

مددتني على بطني، ورسمت بسكين غير حادة إشارات سحرية على ظهري العاري وهي تردد:

«تانتي بيوفاتي. تانتي ساباتانو. تانتي كيلياتي. تانتي لاماتشتانو».

«له، ولها، ولنا. الأفعى والنار، المحيط والشمس. الرب هو يهوه، ويهوه هو الرب. روشيات، كوشيات. كام، تام، سام».

ومسحت ظهري بزيت حارق، ثم مسحت يديها. وهكذا انتهت جلسة العلاج الأولى. قدمت لها والدتي دولاراً، ودعتها لتناول الشاي.

شعرت العجوز فجأة بجوع نهم، فتناولت أربع كؤوس من الشاي مع مربى صنعته والدتي في البيت، وتناولت على الأقل دزينة من قطع الكعك، ثم ذهبت لزيارة مريض آخر.

التهبتُ بالارتياب والسخط، فهذه السذاجات لا تستطيع إقناعي أنا الولد الأميركي. شعرتُ بالخجل، وخشيت أن يعرف أفراد عصابتي بذلك فيسخرون مني. ولكن أمي داعبت رأسي وقالت:

- يا صغيري العزيز، لن يزعجك أحد. ألا تريد أن تشفى من

الخوف الذي يتولاك. ليس مستحسناً أن نخاف، فمع الخوف لا يستطيع أحدنا أن يفعل شيئاً في هذا العالم، لأن من يخاف ليس برجل. وهذه العجوز مداوية مشهورة، والدك يعرفها من رومانيا. إنها تعرف أكثر مما يعرف أغلب الأطباء، لقد تلقت تعليمها وحكمتها على يد زاديك مشهور. وهي متأكدة من شفائك.

في الزيارة التالية قامت ماما سيما بالطقوس نفسها، ثم شربت غالوناً آخر من الشاي مع دزينات أخرى من قطع الكعك. وفي الزيارة الثالثة تركت لنا قائمة تعليمات: على أمي أن تذهب إلى سوق أوركارد ستريت، وتشتري كأساً من أول دكان خردوات، ممنوع عليها أن تساوم في السعر. عليها أن تدفع أول سعر يطلبه البائع. وفي تلك الليلة كان عليَّ أن أحمل الكأس وأذهب إلى الإيست ريفر، فإذا كانت الليلة مقمرة يجب أن أشرب كأساً من ماء النهر، أما إذا لم تكن الليلة مقمرة فكأسين. ثم ألقي بالكأس إلى النهر، وأكرر كلمات: كام، تام، سام. وهكذا فعلت.

في الزيارة الرابعة طلبت الساحرة تحضير عجينة تصنع من روث حصان، تؤخذ من الشارع وتخلط بخيوط عنكبوت وعسل وزعتر وفلفل وكمية من بولي. بقيت هذه العجينة على جبهتي لمدة أسبوع كامل.

في الزيارة الخامسة، أحضرت في حقيبتها مجموعة أدوات، ورتبتها في المطبخ: دلو من الصفيح، ومغرفة، وقليل من القصدير. أذابت القصدير في المغرفة على نار الموقد وهي تهمس كلمات سحرية. ثم سكبت القصدير فاتخذ شكلاً غريباً له حواف مسننة. نظرت المشعوذة إلى القصدير بتمعن، وأخذ فكاها الخاليان

من الأسنان يتحركان، وعيناها تلمعان، ثم تناولت عدة أنفاس من النشوق. وأعلنت بلهجة المنتصر أخيراً:

- إنه حصان.

أفراد عائلتي الذين كانوا يتطلعون مشدوهين، على ضوء مصباح الغاز، أصابتهم رعشة.

- أعطوني كأساً أخرى من الشاي، لقد تحقق الشفاء. إنه حصان.

نظرنا جميعاً إلى قطعة القصدير. «أجل» قلنا أحدنا للآخر. لقد اتخذت شكل حصان. في الليلة التالية - تنفيذاً لتعليمات العجوز - وفي تمام الساعة الثانية عشرة، قادني والدي إلى مرآب العربات، واقتربنا من أحد الجياد، وهمستُ في أذنه وأنا أقدم له تفاحة، قضم نصفها وهو شبه نائم:

- لينتقل فزعي ورعبي إلى جسدك. الرب هو يهوه. كام، تام، سام.

هكذا عالجوني. الكوابيس لم تعد تظهر، ولم أعد أستيقظ في الليل صارخاً. ورغم ذلك بقيت مرتاباً، ولا أستطيع الإيمان بالسحر. سألت فاسا، الشاب الذي يحرس المرآب، عما إذا كان الحصان يستيقظ في الليل وهو يصرخ، فأجابني بالنفي. كل ما هنالك أني شفيت، وتلك العجوز الجشعة، القذرة، والغبية، تعرف بعض الأسرار العميقة، وقد شفتني. لم أخبر أحداً من أصدقائي لشدة خجلي من ذلك، ولكن الذهول استمر مسيطراً عليّ طيلة الصيف. حتى والداي لم يستطيعا تفسير ما حدث. فهما لم يسمعا بالشعوذة الكبرى التي نسميها: «الإيحاء».

٤

بعد شفائي عادت حياتنا العائلية إلى حالتها الطبيعية: في الصباح يتركنا والدي ويذهب للعمل، والدتي تطبخ وتعجن الخبز، وأختي إستر تلعب وتقفز بالحبلة مع صديقاتها الصغيرات. وأنا أمضي مع عصابتي: أتشاجر، وأسرق التفاح، وأقرأ مغامرات بوفالو بيل، أو أذهب للسباحة، أو أراقب المومسات، وفي الليل يقص والدي لأصدقائه ولمعجبيه حكايات الجنيات، ونشرب البيرة. بعد ذلك نبحث عن مكان للنوم على السطح أو على الرصيف. فالحر خانق.

في أيام الآحاد الصيفية، يشعر والدي برغبة لا تقاوم في الذهاب إلى أحد الأماكن للتنزه. فهو لا يريد أن يبدد يوم إجازته الوحيد، ولكن أمي مفطومة عن الرحلات. فعندما يذهب أبي إلى كوني آيلند ليستحم في البحر لم تكن والدتي ترافقه. فهي تكره الازدحام، ودفعات مليون إنسان متحمس. إنها تقول منرفزة:

- هذا بيت مجانين. ما الذي يجبرني أن أسير وسط ازدحام مزعج لكون اليوم هو يوم أحد؟ أُفضّل البقاء هنا، لأستريح على درجات المنزل.

كان والدي يغضب، فهو يحب السباحة والدخول عميقاً في البحر، ويعجبه أيضاً - كما يعجبني أنا - الطيش، والضجيج الآلي، والسعادة الوحشية في كوني آيلند.

قال أبي في إحدى المرات محاولاً إقناعها:

- إن التذكرة رخيصة، خمسة سنتات لا غير. ليس بإمكاننا الذهاب إلى أي مكان آخر بهذا السعر.

فقالت أمي:

- هذا لا يهمني، إن كوني آيلند بيت مجانين، إنه المكان الطبيعي للقرود.

فهتف والدي بازدراء:

- أوف. إنك تبدين كجدة عجوز، تقضين حياتك جالسة إلى جانب الموقد.

أجابته بهدوء:

- كلا، فهناك في هنغاريا كنت أذهب إلى أماكن كثيرة. هناك اعتدت أن أمضي بين الحقول والغابات. أما كوني آيلند فشيء آخر، إنها ليست حقلاً.

فقال والدي بسخط:

- حسناً، فلنذهب إلى الحقول إذن. يوم الأحد القادم سآخذكم إلى برونكس بارك.

- هل هناك غابات؟ - سألته أمي.

- أجل توجد هناك غابات - أجاب والدي.

- حسناً، سننظر في الأمر، ربما نذهب - قالت والدتي دون إعطاء أهمية للأمر.

لم تُبدِ كثيراً من الحماسة، كان عندها نفور الفلاح من الرحلات. وفي هنغاريا لم يكن أحد يقوم برحلة طويلة إلا إذا ذهب إلى أميركا. والآن فإن الإيست سايد هو قريتها، وليس هناك مبرر للخروج منه حتى ولو ليوم واحد. لم تزل تعيش في الإيست سايد، في الشارع نفسه، في العمارة نفسها. لم تخرج من نيويورك أبداً. هناك ملايين من الفلاحين مثلها في نيويورك.

٥

جاء يوم الأحد الموعود، وكانت أمي قد قررت نهائياً أن تقوم بالرحلة إلى برونكس بارك. استيقظت في الساعة السابعة كي تحضّر اللوازم، فقامت بكيٍّ فستان لأختي إستر، وقميصي، ورفت جوربي، وصرّت الطعام المؤلف من سندويشات نقانق وخيار ودجاج، وبرتقال وبيض مسلوق، ثم كنست البيت. وصرخت أخيراً وهي تنزع عنا الأغطية دفعة واحدة:

- انهضوا.

- ولماذا تيقظيننا في هذا الوقت المبكر - زمجر أبي وهو يتثاءب.

- سنذهب إلى برونكس بارك. هل نسيت.

خلال تناول الفطور لم نستطع، أختي وأنا، أن نحتفظ بهدوئنا من البهجة. وكان على والدتي أن تصفعنا، فقد كانت مرتبكة. إن فكرة الرحلة تثير قلقها.

في القطار المعلق، احمر وجهها بفعل الحر والارتباك. كان القطار أسوأ من شاحنة ماشية، مزدحماً بأناس يثيرون التقزز: نساء ثائرات، آباء مثقلون بسلال الطعام الكبيرة. أولاد يصرخون ويتقيؤون، ويركضون بين أقدام الكبار. عجوز يتجادل مع المفتش. مجموعة من الأولاد الأيرلنديين يرتدون لباس البيسبول. أجساد متعرقة وأعصاب ساخطة. القطار يهدر ويهتز، ويقف فجأة فيجعل مئات الأجساد تصطدم بعنف بعضها ببعض. ارتطامات أيد وأقدام،

عطاس وبصاق، لعنات وتنهدات. إن القطار يبدو أشبه بعمارة تغص بالجيران فوق العجلات.

كنا نتوجه شمالاً إلى برونكس. وفي كل محطة تصعد عائلات جديدة متحمسة ومحملة بالسلال، والأولاد يدخلون من الأبواب وليس هناك أمكنة لهم، ولكنهم يحاولون إيجادها بإلقاء أنفسهم فوقنا.

والدي كان يطلق اللعنات كلما داست على قدمه أو سقطت على حضنه عجوز مبللة بالعرق.

هذه هي نيويورك في أيام الآحاد. جميع القطارات وحافلات الترام تمضي ممتلئة بالناس. سبعة ملايين إنسان يهرعون بحثاً عن قليل من الهواء النقي.

- في رومانيا يسير أحدنا أربع خطوات فيصل إلى الحقول، هنا تلزمنا مصارعة بالأيدي. يا لهذا البلد السخيف - قال أبي.

أما أمي فكانت متحمسة لأن القطار يتقدم. تطلعت من خلال النافذة وابتسمت. فالعمارات التي تبدو كالأسنان الراسخة قد اختفت، والآن تظهر بيوت صغيرة معزولة ومحاطة بعشب أخضر وأشجار. قالت والدتي:

- أي سعادة تغمرني وأنا أرى شيئاً أخضر مرة أخرى. أنظر إلى الشجرة هناك. إني سعيدة لخروجي في هذه الرحلة يا هيرمان. وعندما نصل إلى برونكس بارك سأخلع حذائي وأمشي حافية على الأعشاب، فمنذ خمس عشرة سنة لم أفعل هذا.

- سيقبضون عليكِ - زمجر والدي وهو يلقي نظرة قاسية إلى اليهودية البدينة الواقفة إلى جانبه.

- أريد أن أقطف أزهار الأقحوان - صرخت أختي.

- أجل، أجل يا حلوتي. أزهار وفطر أيضاً. سأعلمك البحث عن الفطر. وهذا مسلٍ أكثر من جمع الأزهار - قالت أمي.

٦

وصلنا أخيراً إلى برونكس بارك. اشترى لنا أبي بوشاراً، وبالونات حمراء. بعد ذلك مشينا عبر حقل أخضر. والدتي تنهدت لاستنشاقها الهواء النقي. وقالت بسعادة:

- آه. إن هذا يشبه هنغاريا. فهنا يوجد فراغ كبير، والسماء واسعة شديدة الزرقة. إن التنفس ممكن هنا.

تابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى حديقة حيوانات. رأينا بعض القرود تقوم بحركات رشيقة في أقفاصها، قدمنا لها الفول السوداني لنرى كيف تنتزع قشورها. بعد ذلك رأينا أسداً، ونمرين، ودباً أبيض، وأفاعيَ مختلفة، وعصافير وفيلة. وقدمنا لجميع الحيوانات الفول السوداني.

بعدئذ مشياً حتى وصلنا إلى حقل منعزل، لم يكن هناك أي كائن بشري. وعلى أحد الأطراف وجدنا غابة صغيرة، بحثنا بنظرنا عن إعلانات تقول: «ممنوع المشي على العشب» فلم نجد شيئاً منها، دخلنا، وهناك وجدنا شجرة جميلة، استولينا عليها في الحال.

فرشنا أوراق الصحف في ظل الشجرة، وأخرجت أمي الطعام، فقد كانت لدينا شهية كبيرة بعد تلك المسيرة الطويلة. أكلنا سندويشات النقانق ومأكولات أخرى جيدة.

شرب أبي زجاجات من البيرة، ثم تمدد على ظهره وغنى أغنيات الرعاة الرومانية وهو يتطلع نحو السماء ويأخذ أنفاساً عميقة من غليونه، وبعد ذلك استغرق في النوم وأخذ يشخر.

والدتي جمعت الصحف. وتأكدت من عدم وجود حراس بالقرب منا، فخلعت حذاءها وجوربيها، وسارت حافية على الأعشاب.

أختي وأنا تركناها وحيدة ومضينا لنجمع أزهار الأقحوان. ومنها صنعت لنا أمي إكليلاً مثل تلك التي يصنعها الأطفال في هنغاريا. ثم قالت لنا بصوت خافت وهي تأخذ بأيدينا:

- تعالا معي، بينما بابا نائم، سنذهب إلى الغابة لنبحث عن فطر.

سمعها والدي، فانقطع شخيره فجأة، وتمتم دون أن يفتح عينيه الحالمتين:

- احذروا أن تضلوا الطريق.

- أعرف هذا. وهل يمكن أن أضل أنا في الغابة. - قالت أمي.

- حسناً. - أجاب والدي وهو يدير وجهه ويعود إلى الشخير.

٧

الدخول إلى الغابة الخضراء الباردة أشبه بالدخول إلى بيت سحري. فالأشجار كالجدران، والأوراق تشكل السقف. تصل إلى أسماعنا أصوات عذبة صافية، إنها العصافير التي تعيش في هذا

البيت. النمل الصغير والصراصير تتسلق على أقدامنا، إنها تعيش على أرض البيت أيضاً.

رأيتُ عملة ذهبية كبيرة في زاوية خضراء، اقتربت لأدقق النظر، وعرفت أني خدعت، لقد كانت بقعة من ضوء الشمس. فالشمس ترسم خطوطاً ودوائر أخرى بلون ذهبي. وصل إلى أسماعنا خرير الماء.

أمي تسير أمامنا. تبدو كأنها صبية، تقفز بين الحين والحين قفزات سحرية وتستنشق الهواء. وتقول شارحة لنا:

- إني أشم رائحة الفطر، إني أعرف رائحته جيداً، لقد تعلمت ذلك في هنغاريا. فكل نوع من الفطر له رائحته الخاصة، وأفضل الأنواع تنمو تحت الأشجار.

- أنا أريد أن أقطف الفطر - قالت إستر بدلع.

فهتفت أمي بحماسة:

- كلا. لا تفعلي ذلك أبداً. فأنت طفلة أميركية، ولا تعرفين شيئاً عن هذه الأمور، فهناك أنواع من الفطر السام، ويمكن أن تقتلك. لا تقطفي الفطر أبداً.

- إنها تخرج من الأرض على شكل باقات، أليس كذلك؟ - سألت أنا.

فقالت أمي شارحة:

- الفطر الذي يبيعونه في المتجر يكون هكذا. يا لأميركا القذرة، فالأطفال لا يعرفون سوى الفطر الناشف والميت في دكاكين المأكولات. انتظروا، الآن سأريكم.

وجهها الأحمر كوجه غجرية، ازداد احمراراً من الحماسة.

نحن الذين كنا نعرف والدتنا من قبل: بطيئة جداً، وحذرة في حركاتها، نراها الآن تقفز فوق مجاري الماء، وتصعد على الحاجز ضاحكة كصبية.

- قفا. أعتقد أن هنالك فطر تحت هذه الأوراق. اتركاني ألقي نظرة. أجل، أجل. هل تلاحظان، إني لم أفقد القدرة على تمييز الرائحة بعد كل هذه السنوات. كم هو جميل هذا الفطر، إنه يبدو كالفضة. إنه من نوع البتولا، إنه من شجرة البتولا التي ترونها هنا. وعندما ينمو الفطر قرب أشجار الصنوبر، يكون أخضر وله طعم الصنوبر.

أعطتنا لنقضم قطعاً صغيرة من ذلك الفطر وتابعت قائلة:

- مذاق الفطر يكون أفضل مع الملح. ولكن فطر البلوط هو أفضل الجميع، فله لون محمر رائع، كم هو لذيذ. وكم يختلف عن القمامة التي يجمعونها هناك في الأقبية ويبيعونها في الدكاكين. الفطر الأميركي لا يساوي شيئاً، إن طعمه كالورق. الفطر الحقيقي يجب أن يكون له طعم التراب أو طعم الشجرة التي ينمو قريباً منها، فنحن نعرفه تماماً في هنغاريا.

لحقنا بها، بينما هي تمضي حول الأشجار بحثاً عن فطرها الحبيب. وجدت كثيراً، فرفعت طرفي ثوبها ووضعت فيه ما جمعت. كل فطر تجده يذكرها بهنغاريا، فتحكي لنا أشياء لم تكن قد قصتها علينا من قبل. تتكلم بصوت خافت، وبرقة بالغة. تنحني فوق الفطر وعيناها تلمعان كعيني طفل.

- آه. كم يحب الناس في هنغاريا الفطر. فعندما يأتي الموسم، يذهب الجميع إلى الغابة حاملين سلالهم. ونحن كانت

لنا أماكننا المفضلة التي نذهب إليها كل سنة. لم نكن ننتزع الفطر من جذوره، وإنما كنا نقطعه عند مستوى الأرض. فبهذه الطريقة يمكن أن ينمو مرة أخرى في السنة التالية. كنت أخرج دائماً مع صبيتين من صديقاتي لنجمع الفطر.

- ماما، هل يستطيع الفطر أن يتكلم مع فطر آخر؟

- هناك من يؤكد هذا، وآخرون يقولون إن الفطر في الليل لا يتكلم فحسب، وإنما يرقص، يتحول إلى شيخ مرح بلحية. وفي الصباح يتحول مرة أخرى إلى فطر. يقولون إن العصافير تتكلم أيضاً، وأنا في الماضي كنت أعرف أسماء جميع العصافير وأغنياتها، وأميز بين الأفاعي الخبيثة والأفاعي الخيّرة، فأقتل السيئ منها بالعصا. وكنت أعرف أين أجد السعادة، فقد كنت أستطيع السير عشرين ميلاً في الغابة دون أن أضل الطريق. في إحدى المرات فتاتان وأنا ضللنا الطريق في الغابة لعدة أيام، وفي النهاية وجدنا الطريق. آه، كم كنا سعداء في هنغاريا.

وفجأة حضنتنا بين ذراعيها، أختي إستر وأنا، وقبلتنا وهتفت:

- يا الله كم أنا سعيدة في الغابة. أنتم الأولاد الأميركيون لا تعرفون ما يعني هذا. كم أنا سعيدة.

الفصل الثالث عشر

يهود ومسيحيون

١

لم تكن الأحذية تروق لوالدتي. فقد لبستها لمرات قليلة فقط في هنغاريا. ولم تكن ترى مبرراً للبس الأحذية هنا. وقد اعتادت أن تسأل:

- هل هناك من يلبس حذاء في يديه؟ كيف نستطيع أن نشتغل ونحن ننتعل أحذية؟ إن الأحذية صنعت لأولئك الذين يحبون التظاهر.

ولهذا كانت تمضي هنا وهناك حافية. وكان هذا يزعج والدي، ولا سيما في فترة طموحه. فعدم لبس الأحذية بالنسبة له كان بمثابة الاعتراف بالفقر. أما والدتي فلم تكن تشعر بهذا التكبر الزائف. كانت تمشي حافية حتى في الشارع.

اشترى لها والدي يوماً، بالتقسيط، خاتماً من الماس. فعل هذا في إحدى فترات شعوره بالعظمة. كان قد كسب كثيراً في ذلك الأسبوع، وكان رب العمل قد ألمح له بأنه سيعينه رئيساً للعمال.

في يوم السبت ذاك، بقي والدي يشرب البيرة مع زملائه.

وعندما عاد إلى البيت نشواناً، قام بحركة كحركات المشعوذين، وأخرج الخاتم من جيب سترته ووضعه في إصبع أمي، ثم قال وهو يقبلها كما في المراسم:

- أخيراً يا كاتي. أخيراً أصبح لديك خاتم ماسي. صار بإمكانك الآن أن تكتبي لأهلك في هنغاريا وتخبريهم بأنك أيضاً تلبسين الماس في أميركا.

- يا للحماقة! قالت والدتي وهي تدفعه عنها دون إزعاجه. ثم خلعت الخاتم وكأنه يحرق إصبعها.

- حماقة؟ وهل لبس المجوهرات حماقة؟ - قال والدي ساخطاً.

فأجابت أمي العنيدة:

- أجل.

- ولكن الجميع يضعون الحلي الماسية. جميع الذين لديهم شيء من عزة النفس.

- لتكن عزة النفس للآخرين. أما أنا فحمارة عتالة.

بصق والدي مستنكراً، ثم خرج باحثاً عن كائن ذكي.

الخاتم بقي بحوزة العائلة. كان رأسمالنا الوحيد، وكنا نحتفظ به في علبة بين أغطية الفراش والمناشف. وفي أوقات الشدة، عندما لا يكون لدينا ما نأكل، أو لا نستطيع دفع الإيجار، نأخذه لنرهنه. إن عائلات كثيرة في الإيست سايد تتشوق لاقتناء المجوهرات لهذا الغرض. فالنقود تختفي، أما المجوهرات فتبقى. كان هذا هو نظام الإقراض البدائي في الإيست سايد.

٢

كانت والدتي مولعة بتسمية نفسها «حمارة عتالة». فهي تشعر بالفخر لقيامها بأعمال قاسية. لم تكن بحاجة لخاتم ماسي، ولا لملابس غالية، لأن لديها إحساساً مرهفاً بالواقع، وتدرك أنه بالعمل فقط يمكن الخروج قليلاً من الفقر. ولكن والدي كان رومنسياً، كان يحلم بمستقبل سهل ولامع.

آه، أيتها الأم المتواضعة والسعيدة!

كيف أستطيع نسيان تلك المرأة الصغيرة، ذات العيون الجميلة، التي ترقص طوال النهار متنقلة من مكان إلى آخر بقدمين عاريتين، صارخة بيديشية أصيلة، مستعملة كلمات لا يستعملها الناس عادة. تأكلنا بالقبلات وتجلدنا، تتشاجر مع الجيران وتساعدهم. تمضي في البيت من الصباح حتى المساء مناضلة من أجل الحياة.

كان من الممكن أن تسرق أو حتى أن تقتل من أجلنا. كان من الممكن أن تلقي بنفسها أمام قطار لو أن هذا يفيدنا بشيء. إنها تحبنا جميعاً بالحنان الوحشي لذئبة.

أمي، ماما، أشعر أني ما أزال متحداً بك برباط قوي. لا أستطيع أن أنساك. يجب عليَّ أن أبقى مخلصاً للفقراء، لأني لا أستطيع أن أخونك. أؤمن بالفقراء لأني عرفتك. العالم يجب أن يكون كريماً مع الفقراء. أنت علمتني ذلك يا أماه.

٣

أي حياة قاسية عانت. فمنذ العاشرة من عمرها لم تفعل شيئاً سوى الشغل. لقد مات والدها في ذلك الحين، وفي العائلة التي خَلَّفها كانت هي أكبر إخوتها. دخلت للعمل في مخبز، بعد ذلك قامت بعمل رجل في إحدى المزارع.

وعندما أتمت الثامنة عشرة، جمع أقاربها خمساً وسبعين قطعة عملة ذهبية وبعثوها إلى أميركا. فقد كان هذا هو الأمل الأخير للعائلة. وبدأت تشتغل هنا لتتمكن من إحضار إخوتها فيما بعد.

لقد ترك عبور المحيط هوة عميقة في روحها. قضت سبعة عشر يوماً قاسية، بين مهاجرين يأكلون السمك المقدد والبطاطس فقط، لأنهم في الباخرة لا يقدمون طعاماً «كوشير».

في الليلة الأولى لوصولها إلى أميركا، نامت في قبو مزدحم بالمهاجرين يسمونه «بيت العبيد».

وفي الصباح حضر أحد أقربائها ليبحث عنها. ثم وجد لها عملاً في أحد مطاعم الإيست سايد، حيث كانوا يدفعون لها خمسة دولارات في الشهر بالإضافة إلى طعامها، والنوم على فرشة في المطبخ العابق برائحة الزيوت المنفرة. أما ساعات العمل فكانت تستمر من الخامسة صباحاً حتى منتصف الليل.

خلال سنة استطاعت أن توفر من النقود ما يكفي لثمن تذكرة الباخرة لإحضار أخيها الأكبر من هنغاريا. تقول لنا وتعلو وجهها ابتسامة مرَّة وهي تحدثنا عن تلك الفترة:

- أجل، لقد تمتعت ومرحت كثيراً في أميركا. فقد أمضيت تلك السنة بشكل رائع بين القدور والمقالي، إنها لمعجزة أني ما أزال على قيد الحياة حتى الآن. إن أميركا بلد عظيم، ولكن ليس للفقراء. وعندما يأتي المسيح المخلِّص إلى أميركا فمن الأفضل أن يأتي في عربة أنيقة مع دزينة من الخدم. لأنه إذا حضر على حمار أبيض، فسيظن الناس أنه مهاجر فقير آخر، وربما جعلوه يجلي الصحون في أحد المطاعم.

٤

هي وأبي تزوجا حسب الطريقة اليهودية القديمة. فقد تعارفا عن طريق وكيل زواج، تقاضى من كليهما أجراً مقابل خدماته. إنها طريقة للزواج كأي طريقة أخرى. وقد توصل والداي إلى أن يتحابا بعاطفة أكثر من جميع الرومانسيين. إني متأكد من أن والدي كان مستعداً لتقديم حياته من أجل أمي.

والدتي كانت مهووسة، تحاول إصلاح الجميع، وتتشاجر مع الناس لأنهم أشرار، وتقول بصراحة ما يعتمل في ذهنها وترشد الجميع إلى طريق الواجب. دائماً كانت مشغولة بمناقشة حول الأخلاق، وكان على والدي أن يسمع منها جميع التفاصيل.

وهي تجد دائماً أناساً بحاجة إلى مساعدتها، فتساعدهم لأيام، لأسابيع أو شهور، بالنقود وبالطعام والنصائح وحتى بعمل يديها.

كانت تقوم بدور القابلة في كثير من الولادات المفاجئة، وبدور الممرضة في كثير من الحالات. وهي وسيطة للمصالحة في كثير من المعارك العائلية.

وتعرف جيداً كيف تشفي الدمامل بلزقات مصنوعة من خبز ممضوغ وصابون. وتعرف كيف تعالج الرشح بالكيروسين، وتعرف كذلك استعمالات مختلفة للأعشاب والخلطات الفلاحيّة. وكانت طاهية ماهرة، تصنع خبزاً رائعاً. وتتقاسم كل هذه المعارف والأسرار مع الجيران.

عندما تسقط إحدى النساء مريضة، يهرع الزوج مرتعداً إلى والدتي، فتذهب لأسابيع بكاملها مرتين في اليوم لتطبخ وتنظف بيت المريضة، وتغسل الأطفال، وتمزح، وتتحدث، وتزمجر، وتوزع حبها وقوتها وكرمها في البيت الحزين.

كانت تغضب إذا ما حاول أحدهم أن يدفع لها مقابل تلك الخدمات. فهذا ببساطة هو واجبها تجاه الجيران.

في إحدى الفترات كانت تعيش في شارعنا امرأة نصف مخبولة، فزوجها، وهو صانع سجائر، هجرها وترك لها صبيين صغيرين. كانت المرأة المسكينة تعاني نوبات صرع وتمضي الليالي مسهدة. وقد اعتادت والدتي أن تنام معها لأنها تخشى أن تقتل أولادها في إحدى نوباتها.

لقد نامت والدتي هناك كل الليالي خلال أكثر من شهر.

كم من المرات رأيتها تهرع لنجدة عائلات تكاد تُطرد من مسكنها لأنها لا تستطيع دفع الإيجار. فهي تحمل شالها وتمضي من بيت إلى بيت تطلب نقوداً، تصعد وتهبط إلى أكثر من مئة بيت، وتقص في كل بيت القصة المحزنة بإثارة جديدة، وتطلب نقوداً لمساعدة العائلة المنكوبة.

إنها عادة قديمة في الإيست سايد. فدائماً عندما تكون هناك عائلة مهددة بالطرد من مسكنها، تحمل إحدى الجارات شالاً وتمضي من باب لباب طالبة المساعدة.

٥

والدي المسكين، المشغول بثقل تناقضاته الخاصة، كان عليه أن يستمع إلى تفاصيل كل تلك المآسي المريعة. فوالدتي تستطيع اكتشاف كثير من المرضى، وكثير من السيئين الذين من الواجب إرشادهم إلى الطريق القويم. ولذا لم يكن غريباً أن والدي يكثر من شرب البيرة، لم يكن غريباً أن يمسك رأسه بين يديه ويصرخ:

- كفى! إنك تسببين لي صداعاً. لا أستطيع أن أستمع إليك أكثر.

- ليس رأسك، وإنما أنانيتك.

- من الواجب أن نكون أنانيين في أميركا، فالإنسان في نظر الإنسان هنا ذئب. أما أنت فتهملين أسرتك لتساعدي أول مجهول يطلب منك ذلك.

- أوف، يا للكذب. متى أهملت أولادي؟

- ولكن قولي لي من أجل حب الرب، أليس لدينا ما يكفي من الهموم؟ فأنت كمسلول لا يكتفي بما لديه من السل، بل يمضي ليتزلج ويكسر ساقه أيضاً.

- أستطيع أن أتحمل الحياة برجل مكسورة. فماذا تعني ساق مكسورة عندما نرى كل هذا البؤس في العالم.

٦

كانت أمي عدوة للإيطاليين، والأيرلنديين، والألمان، والمسيحيين المحيطين بنا. فهي تقول والشرر يتطاير من عينيها:

- لتنزل بهم صاعقة، إنهم يعيشون كالخنازير، لقد أفسدوا الدنيا، وهم يكرهون اليهود ويقتلونهم. يستطيعون التظاهر بصداقتنا، ولكنهم من وراء ظهورنا يسخرون منا، فأنا أعرفهم جيداً، لقد رأيتهم في هنغاريا.

وفجأة هتف والدي وهو يضرب الطاولة بقبضته:

- حادث قطار آخر. كاتي، لقد قلت دائماً أنه من الخطر السفر في قطارات أميركا اللعينة هذه.

- ماذا حدث؟ - سألت والدتي وهي تخرج من المطبخ مبللة الوجه واليدين.

- وتسألين ما الذي حدث؟ -كرر والدي بلهجة مدعي المعرفة وتابع قائلاً:

- الذي حدث هو أن سبعة عشر شخصاً قتلوا في حادث قطار في نيوجيرسي. ومن المسؤول؟

ارتعدت والدتي، ومسحت وجهها بمئزرها ودمدمت:

- ليساعدنا الرب ويحمينا. هل هناك يهود بين القتلى؟

تفحص والدي قائمة الضحايا بسرعة.

- كلا، جميع القتلى من المسيحيين.

تنهدت والدتي براحة وعادت إلى المطبخ، فذلك لا يهمها. لم

تكن تعتبر المسيحيين بشراً عاديين، بل تجريديين. كانوا يمثلون الأعداء الذين يتوجب كرههم والخوف منهم وإلقاء اللعنات عليهم. في إحدى المرات، في هنغاريا، سخرت ثلاث فلاحات مسيحيات من أمي، وقد عاقبهن الله بإغراقهم لأنهن سخرن منها. وفي مرة أخرى عاقب الله أحد المسيحيين بإنزال صاعقة عليه لأنه سرق خبز يهودي. كانت والدتي ممتلئة بحكايات كهذه.

لا يمكن نسيان أوروبا في الإيست سايد، فنحن الأولاد كنا نسمع قصصاً لا تنتهي عن المذابح الأوروبية. جوي كوهين، الذي ولد في روسيا، يذكر إحدى تلك المذابح. فالمسيحيون قتلوا عمه بأن دقوا مسماراً في رأسه. وعندما نمر أمام كنيسة مسيحية كنا نبصق ثلاث مرات، لأننا إذا لم نفعل ذلك، فبكل تأكيد ستنزل بنا مصيبة. كنا مذهولين من الحكايات المرعبة التي نسمعها. فالمسيحيون يخطفون الأطفال اليهود، ويَسِمونهم بعلامة الصليب على خدودهم بواسطة حديد محمي. ويقطعون آذانهم ليصنعوا منها الحساء. ونيجر رأى في إحدى المرات آذان يهود معلقة في واجهة جزار مسيحي.

تقول والدتي:

- في الأزمنة القديمة، كان المسيحيون يلاحقون اليهود كالأرانب، ليعمدوهم بقوة السيف. وكان اليهود يرفضون طبعاً، فيقوم المسيحيون بإحراقهم فوق محارق كبيرة وهم يضحكون ويرقصون من حولهم، وينظرون إلى اليهود المساكين يذوبون كالشموع. هكذا هم المسيحيون. وهكذا سيُحرقون في يوم من الأيام.

إن هذه الانطباعات تبقى عالقة في أعماقي، وفي ليالي الصيف الحارة، أحلم بمسيحيين متوحشين كالغيلان، لهم حجم العمارات يجلسون على صدري ويضغطون على عنقي بقساوة أصابعهم اللزجة وهم يصرخون: «يهودي، يهودي، يهودي!»

بعد ذلك، خلال النهار، أقضي ساعات وساعات وأنا أفكر: لماذا يكرهنا المسيحيون بهذا القدر؟ وأقوم بوضع خطط كيف سأقود جيشاً شجاعاً لأحمي اليهود.

٧

ولكن والدتي لم تكن قادرة على الشعور بكراهية حقيقية تجاه أي كان. وعلى الرغم من التناقض الذي ينطوي عليه ذلك، فقد كانت لها صداقات مع الجارات الإيطاليات والأيرلنديات. وكانت تعطي تفسيراً لهذه العلاقات بقولها: «إنهن لسن مثل المسيحيات الأخريات، فهن نساء طيبات».

كيف يمكن لوالدتي أن تقسو وهي ترى إنساناً يتألم؟ كيف يمكنها عدم المبالاة بينما هنالك من يمر بفترة عصيبة. فقد كانت من طبيعة تمكنها من توزيع حنانها على الجميع، دون تحيز أو أفكار مسبقة. لقد كانت كراهيتها للمسيحيين في الواقع صرخة روح الأمومة ضد قسوة الحياة.

بيتسي، الإيطالية التي تعيش في العمارة المجاورة، كان لها وجه طويل نحيف تملأه الشامات، وتظهر عليها آثار المعاناة والمرض والشيخوخة. عيناها بلون القهوة، تبدوان كأنهما مغطاتان بحجاب، كانت كأنها تخفي سراً رهيباً. تمضي في الشارع متسربلة

بشالها الأسود الطويل، تسير خلسة، معتقدة أن الجميع ينظرون إليها.

زوجها كان في السجن لارتكابه جريمة قتل. ففي إحدى ليالي الصيف - لا يمكنني نسيان ذلك أبداً - خرج إلى الشارع وبيده مسدس وهو يصرخ كمخبول. كنا نجلس على درجات الباب، ونتناول بهدوء بعض المرطبات. منظر ذلك الإيطالي المتوحش الذي يرتدي قميصاً داخلياً ويصرخ شاهراً مسدسه، أثار فينا الرعب. مرَّ كالشهاب من أمامنا، ثم نزل إلى قبو إحدى البنايات. تجمع الناس في الشارع، وحضر شرطي لم تكن لديه الشجاعة الكافية ليدخل إلى القبو وراء الإيطالي، وإنما بقي متردداً على الرصيف يصرخ: «أخرج من مكانك وإلا سأطلق النار». أخيراً ظهر الإيطالي وهو ينشج كطفل. كان وجهه البرونزي القاسي مضحكاً، وكان يلوي يديه ويضرب على صدره، ويخمش وجهه بأظافره حتى يدميه. لم أكن قد سمعت في حياتي من قبل مثل تلك الشهقات الحيوانية. إنه الاحتضار القاسي والخطير لذئب يموت. لقد قتل الرجل أخاه بسبب خلاف دبَّ بينهما وهما يلعبان الورق.

ذلك القاتل الذي أعماه الانفعال هو زوج بيتسي. وبقيت المرأة المسكينة مع ثلاثة أولاد، وبلا أصدقاء. لا تعرف التحدث بغير الإيطالية. ذهبت والدتي لزيارتها بدافع الشفقة، وبعد عدة زيارات تعلمت أن ترطن بعض الكلمات الإيطالية. كان رائعاً تصور والدتي وهي تقوم بمحادثة تدوم ساعة مع تلك المرأة، بتعدد لغات مضحك، يقوم على مزيج من الإيطالية، واليبدية، والهنغارية، والإنكليزية. ولكن المشكلة أنهما كانتا تتفاهمان.

عثرت لها والدتي على مشغل ملابس قدّم لها عملاً تقوم به في بيتها. وساعدت تلك المسيحية بطرق كثيرة. فأصبحت بيتسي تعبدها. ففي وسط بؤسها وجدت وقتاً لتصنع شالاً بالصنارة وتقدمه لأمي كهدية مفاجئة. أحضرته إلى البيت في إحدى الليالي، وبكت وقالت بالإيطالية أشياء لم أفهمها، ثم قبلت يديّ أمي. أمي بكت وقبلتها أيضاً. أما نحن فلم نستطع اصطياد كلمة واحدة مما تقولان، ولكن والدتي كانت تقول بين لحظة وأخرى باليدية: «كم هي طيبة هذه المرأة. كم هي طيبة».

إن والدتي تقدّر ذلك الشال أكثر من أي شيء آخر، وتحب أن تريه للجميع وتروي قصته وكيف صنعته بيتسي.

إن شالاً كهذا يساوي أكثر من عشرة دولارات. وبيتسي لا تستطيع كسب هذا المبلغ في ثمانية أيام. يجب أن يكون قد كلفها أسابيع كثيرة من العمل، وليال كثيرة من السهر، بعد ست عشرة ساعة من العمل في مشغل الملابس. إن هذا النوع من الهدايا يستحق كل التقدير. إنها هدايا مشغولة بالحب.

٨

في الطابق العلوي من عمارتنا، كانت تعيش عائلة أيرلندية. المستر أوبرين، رجل عملاق كئيب، له وجه أحمر قاس وكأنه مصنوع من جلد سمكة قرش. يكسب عيشه من العمل كسائق شاحنة، ويعود من عمله بين التاسعة والعاشرة ليلاً. كان قوياً، كثيف الشعر، يرتدي أفرهولاً أزرق كالذي يلبسه الميكانيكيون. يصعد الدرج بعنف، وإذا كنا نلعب، ينظر إلينا عابساً ويزمجر:

- ابتعدوا من الطريق. اللعنة، إنكم أكثر إزعاجاً من البق.

فكنا نبتعد عن قدمي ذلك العملاق المسيحي القاسي.

زوجته كانت ضخمة أيضاً، لها وجه أحمر، وجسدها يبدو كجبل من اللحم الأبيض المترهل، تمشي متمايلة من جانب إلى آخر وهي تحمل سلالاً من الثياب لغسلها. جميع النساء المسيحيات كنَّ يشتغلن بغسل الثياب باستثناء الإيطاليات. والسيدة أوبرين كانت تعطف على الأولاد أكثر من زوجها، رغم أننا كنا نخشاها بالقدر نفسه تقريباً.

هذان الزوجان كانا إحدى الفضائح في عمارتنا. فليلة إثر ليلة، وبينما العمارة تغط في نومها القلق، كنا نسمع، وكأن ذلك في كابوس مشترك، الصرخات الكئيبة للأم الأيرلندية، فزوجها المخمور يضربها وهي تصرخ:

- لا يا جاك، لا. سترعب الولد.

كان لهما ولد سحري، لم يره أحد على الإطلاق. والأم تذكره دائماً في تلك المشاجرات الليلية الوحشية.

- ليذهب الولد إلى الجحيم - يخور الرجل كثور هائج.

بووم! لقد ألقى بها على المنضدة. النوافذ تُفتح في المنور بعنف، ومن جميع الجهات تطل رؤوس متطفلة. لقد استيقظت العمارة. ونسمع نشيج طفل مرتعب، ثم، بام! ضربة قوية أخرى تهوي على جسد المرأة.

- لا يا جاك، لا. سيسمعنا الجيران.

- ليذهبوا جميعهم إلى الجحيم. سأشعل ناراً في البيت وأجعل هؤلاء اليهود الخنازير يهربون كالفئران.

بووم، بام، صرخات. الجيران يستمعون بهلع. هؤلاء هم المسيحيون، ليس هناك يهودي قاس هكذا، وليس هناك يهودي يضرب امرأة.

والدتي النشيطة دائماً، قامت بحملة ضد الزوجين الأيرلنديين لكي تجبر صاحب العمارة على طردهما. فهي تقول:

- إن وجود مسيحيين في العمارة أسوأ من وجود مومسات. أسوأ بكثير.

٩

ولكن في إحدى الأمسيات الهادئة، هرعت الغسالة الأيرلندية إلى المطبخ عند والدتي شاحبة ومتلعثمة من الفزع وقالت:

- بسرعة، ابني يختنق، ساعدوني، أحضروا الطبيب.

دون أن تقول لها أمي كلمة واحدة، خرجت تركض صاعدة السلم كإطفائي، لتساعد الطفل الذي ابتلع حسكة سمكة. وهي خبيرة وشجاعة في مثل هذه الحالات الطارئة. أدخلت إصبعها في حلق الطفل وسحبت الحسكة، ثم تحدثت طويلاً مع المرأة الأيرلندية.

في تلك الليلة، وبينما والدي المنهك من العمل يحاول أن يأكل شريحة اللحم المعدّة للعشاء ويقرأ الجريدة، ويشرب البيرة، ويبحث عن حل لتناقضاته، ويدخن، ويتحدث، يقوم بذلك كله في آن واحد. أخرجته أمي من أفكاره بتنهداتها العميقة.

- آه يا هيرمان، إن هذه الأيرلندية تمر بمصائب كثيرة.

فهتف والدي باحتقار:

- وماذا؟ وأنا أيضاً لدي مصائبي.

قالت والدتي:

- إنها امرأة طيبة، مع أنها مسيحية. فزوجها يضربها، ولكنها ترثي لحاله. إنها ليست شريرة، بل حزينة فقط.

فزمجر والدي مشمئزاً من هذا المنطق النسوي:

- أتمنى أن يضربك أنتِ أيضاً.

فقالت والدتي حالمة:

- لقد كان زوجها مزارعاً في أيرلندا. إنها تكره حياة المدينة هذه، ولكنهم لا يملكون النقود ليذهبوا إلى الريف. وابنها مريض منذ سنوات. كل ما يكسبونه يدفعونه للأطباء، ولهذا فهو يسكر ويضربها. ولكنها تشفق عليه.

فصرخ والدي وهو يشد شعره:

- كفى، كفى! ستصيبينني بالجنون.

لاحظت والدتي أنه قد غضب حقاً، ودون أن تقول شيئاً حملت الصحون الفارغة إلى المطبخ. وهناك خفقت شيئاً في القدر، ثم فتحت الفرن لتخرج صينية معكرونة وأحضرتها إلى المائدة.

قالت ساهمة والصينية الساخنة بين يديها:

- وكانت هذه المرأة يا هيرمان تجمع الفطر من الغابات في أيرلندا، مثلما كنت أفعل في هنغاريا.

١٠

كنت ألعب مع الأولاد، وقد استولت علينا الحماسة ونحن

نرسم الخيول بالطباشير على الرصيف. ثار خصام لأن جوي كوهين كتب تحت حصانه «نيجر يحب ليّا». وكتب العبارة نفسها أيضاً على شاحنة صغيرة، وعلى درجات البيت، وعلى لوحة دعاية للبيرة موجودة أمام الحانة. كاد نيجر أن يوجه قبضته إلى أنف جوي عندما اقتربت السيدة أوبرين منا وهي تتمايل حاملة سلة ثياب بين ذراعيها. وقالت لنا بصوت مسيحي لطيف:

- ليس مستحباً أن تتشاجروا أيها الصغار. هل يريد أحدكم أن يقدم لي معروفاً؟ سأعطي نيكلاً لمن يريد الصعود واللعب مع طفلي، إنه مريض.

وقفنا ننظر مشدوهين وأفواهنا مفتوحة. حتى نيجر كان خائفاً.

السيدة أوبرين ثبتت نظرها عليَّ وقالت:

- هل تريد أن تأتي أنت؟

انطلقت أعدو وكأني رأيت عفريتاً. والأطفال الآخرون ابتعدوا أيضاً. فتنهدت السيدة أوبرين وتناولت السلة الثقيلة بين ذراعيها وتابعت طريقها.

في الليل سألت والدتي عن معنى هذا. وإذا ما كانت المرأة المسيحية تحاول أن تنصب لي فخاً لترسم صليباً على وجهي بالحديد المحمي.

فقالت أمي وهي ساهمة:

- كلا، إصعد إليها وسيكون ذلك عملاً صالحاً. فالولد المسكين يعيش وحيداً. ولن يحدث لك شيء.

في اليوم التالي رافقتني والدتي. ولم أجد هناك شيئاً أخشاه. كان الصباح رطباً غائماً. وفي ظلام الغرفة الضيقة كتابوت، كان

يرقد في السرير ولد له خدان غائران، وجبهته شاحبة كالمرمر، فيها أخاديد أوردة زرقاء منتفخة وكبيرة بالنسبة لرأسه. والرأس بدوره كان كبيراً بالنسبة لجسمه. ومع أن الرأس مثبت بواسطة جهاز حديدي يحيط بالرقبة، فقد كان يهتز كلما انتحب الطفل.

نظر إليَّ بعينيه الواسعتين الحزينتين، وجعد أنفه وانطلق يبكي. فقالت والدته:

- لا تفزع يا جوني، هذا الولد صديقك وقد أتى ليلعب معك.

لففت الخيط حول الخدروف وألقيت به فأخذ يلف على الأرض. حاول الولد سحب رقبته ليرى الخدروف، فأعطيته إياه وحاولت تعليمه كيفية استعماله. ولكن المسكين كان ضعيفاً لا يمكنه أن يلعب، فانطلق يبكي مرة أخرى. شعرت بالأسى، وفكرت: هل هذا واحد من المسيحيين القتلة؟

الفصل الرابع عشر

بوفالو بيل والمسيح المنتظر

١

يا لمزيج الأجناس والأديان الجنوني الذي في شارعي. في طفولتي كنت أسمع تشكيلة عجيبة من اللغات. فدائماً يعيش بيننا نحن اليهود، بعض الأجانب: ألمان، بولنديون، روس، أرمن، أيرلنديون، صينيون.

جاء والدي في إحدى المرات، يملؤه الغرور، وقد دعا للعشاء معه شخصاً زنجياً.

- لا تفزعي يا كاتي، هذا الأسود واحد منا، إنه يهودي أفريقي قابلته في الكنيس. تصوري أنه يصلي مثلنا.

كان الزنجي طويلاً، قاسياً لا يبتسم، ويبدو غامضاً كالموت في ملابسه السوداء. قبَّل الميزوزة التي كنا نعلقها على الباب من الداخل. ثم انحنى حتى كاد يلامس الأرض بجبهته، وحيا والدتي بكثير من الوقار:

- شالوم عليخم.

- عليخم شالوم.

وقبل الجلوس إلى المائدة غسل الزنجي الغريب يديه، ثم تمتم دعاء بالعبرية. وقبل تناول كل طبق كان يتلو الدعاء المناسب. يا له من يهودي ورع. والدتي قدرت كل تلك التقوى في شخص أسود. فانسلت من البيت للحظات بين تناول الحساء والسمك، لتنقل الخبر إلى الجيران. فحضر الرابي صامويل، وآخرون ليشهدوا المعجزة.

وبعد العشاء، استجوبوا الرجل الغريب. وعرفنا أنه تتاري، وقبل أن تنتهي السهرة تشاجر مع الجميع. فقد حاول بفظاظة وإصرار أن يكون يهودياً أكثر من جميع الحاضرين. فقال إنه ينحدر من سلالة الملك سليمان وملكة سبأ. وقال عنَّا إننا، نحن الذين تهنا بين الوثنيين، قد فسدنا، بينما حافظت ملته على إيمانها النقي. فنحن مثلاً نصلي في الصباح والمساء فقط، بينما جماعته يصلون أربع مرات في اليوم. ونحن نلف شريط التيفيلين سبع لفات فقط، وهم يلفونه تسع لفات. واستمر يقارن على هذا النحو. كان مغالياً في جموده العقائدي، يقاطع الجميع ويسكتهم. أصاب الرابي صامويل الذهول. أما والدي فقد أحنى رأسه خجلاً.

وأخيراً غادرنا الزنجي بخطوات متعجرفة، وقبَّل الميزوزة مرة أخرى. ومن تصرفاته فهمنا أنه يحتقرنا جميعاً كمرتدين، وأننا أدنى من أن ننال لقب يهود.

٢

في صيف إحدى السنوات عسكرت جماعة من الغجر في متجر شاغر في شارعنا. كان عددهم إثني عشر شخصاً بين رجال ونساء،

بالإضافة إلى حوالي عشرين ولداً قذراً. لقد أعطوا لشارعنا مسحة من السعادة.

كنت أرى من نوافذ بيتنا الخلفية كيف يعيشون. ليس لديهم أثاث، وهم ينامون في الليل على الأرض. وعندما يأكلون، يجلسون القرفصاء مشكلين ثلاث دوائر حول جرائد مبسوطة على الأرض. الرجال يجلسون في الدائرة الأولى الأقرب إلى الطعام، ومن ورائهم النساء ثم الأولاد الذين يراقبون بعيون يقظة ويخطفون كالكلاب الفتات الذي يُرمى إليهم. جميعهم يصرخون ويضحكون ويتشاجرون وهم ينتزعون قطع لحم من الطبق الكبير المشترك.

أثار الغجر موجة اضطراب في شارعنا. كانوا يدخلون دكاكين الجزارين والمتاجر، وبينما تُلهي غجريةٌ البائع وهي تحكي له أموراً بمنتهى السخافة يقوم الآخرون بأخذ بعض الأغراض. وكان رجالهم يلحمون الطناجر والقدور المثقوبة. والنساء يقرأن الطالع ويكشفن المستقبل في راحة اليد.

كثير من الناس ذهبوا لزيارة الغجر، وهناك فقدوا ساعاتهم ومحافظ نقودهم، فأصبح الجميع يخشونهم. وعلى الرغم من ذلك يبتسمون لهم بمودة عندما يمرون بثيابهم ذات الألوان الصارخة المرحة.

- إن هذا كما في أوربا.

كانت أمي تشعر بالحنين إلى وطنها عندما تراهم. فقد عرفت الغجر في هنغاريا، وتعرف بضع كلمات غجرية.

في إحدى الليالي، ظلت مصابيح الكيروسين مضاءة في متجر الغجر. تطلعتُ من النافذة فرأيتهم يحتفلون، وقد اجتمعوا في دائرة

ترقص وسطها غجرية تضع على خصرها شالاً أحمر، والأولاد المستندون إلى الحائط يصفقون لها بإيقاع منتظم.

ومثل جميع النساء في الشارع، حذرتني أمي من اللعب مع أولاد الغجر.

- إحذر اللعب معهم، فهم ممتلئون بالقمل.

ولكنها هي نفسها كانت تلعب مع الغجر في هنغاريا، حسبما اعترفت لي.

في أحد أيام الربيع الدافئة توقفت أمام المتجر الذي يشغله الغجر عربة كبيرة، ركبوا فيها جميعاً، مع قدورهم وأغطيتهم وقملهم، وابتعدوا وسط صرخات الوداع والورود من الناس المحتشدين.

٣

كان شارعنا قريباً من الحي الصيني. وبين حين وآخر يأتي أحد الصينيين ليعيش في عمارتنا. وفي إحدى المرات انتقلت إلى إحدى الشقق مجموعة من خمسة عشر نادلاً صينياً يعملون في المقاهي. ومنذ البداية كانوا يسببون الإزعاج، يبدو أنهم ما كانوا ينامون أبداً، إذ يقضون الليالي وهم يستمعون إلى الموسيقى، ويقومون بمناقشات طويلة ساخنة تستمر حتى الصباح. يتشاجرون، ويلعبون الورق، ويطهون أطعمة غريبة تنتشر رائحتها الحلوة الباعثة على الغثيان في العمارة.

كان بعض الجيران يقولون إن البيت قد تحول إلى وكر لتعاطي الأفيون، وبعضهم الآخر يقول إنه بيت قمار.

في صباح أحد الأيام حضرت الشرطة، فوجدوا الشقة محطمة، وقد اختفى منها الصينيون مخلفين وراءهم جسد فتاة بيضاء عارياً وممدداً على الأرض، لقد أعطوها سماً لقتل الفئران.

٤

زنوج، صينيون، غجر، أتراك، ألمان، أيرلنديون، يهود. بل كانت هناك أيضاً امرأة أمريكية في شارعنا.

اسمها ماري شوغاربوم، جاءت من بوسطن. كانت عجوزاً متشردة تعمل أحياناً في تنظيف المكاتب، ولكنها في أكثر الأيام تسكر وتقوم بالفضائح.

تنام ماري في زاوية فارغة بمرآب العربات. وكان فاسا، حارس المرآب، عجوزاً بولندياً لطيفاً، ليس له سوى عين واحدة، أما عينه الأخرى فاقتلعتها رفسة الحصان الذي يجر العربة الجنائزية. وقد تعهد فاسا بتأمين قطعة قنب لتنام عليها ماري، ووفر لها كذلك غطاء للشتاء.

كثيراً ما كان بعض السكارى يمارسون الحب مع ماري، ويقدمون لها مقابل ذلك ويسكي بخمس سنتات. إنهم يأخذونها إلى زقاق ضيق، وهي تشتمهم مطالبة بالمزيد من الويسكي. وكنا نحن الأطفال نتابع هذه الدراما المتكررة.

الجميع يعرفون ماري. بقبعتها التي تغطي عينيها، وشعرها المشعث، وتنورتها التي تتجرجر بين أقدامها المشوهة المضحكة. كانت تظهر في شارعنا وهي تصرخ طوال المساء، وفي الحال يتجمع أناس، وتطل من النوافذ رؤوسٌ متطفلة، ويحتشد متفرجون في الشارع ويغرق الجميع في الضحك.

كانت ماري تغني أغنيات قديمة بصوت حاد وغريب كصوت قطة، وتدور حول نفسها وهي تمسك تنورتها برفق. وتقذف أحياناً إحدى ساقيها في الهواء كراقصات الملاهي كاشفة أشياءها الداخلية الفظيعة، والجميع من حولها يقهقهون. بعد ذلك تلقي بنفسها في الوحل وتفقد القدرة على النهوض، فهي مخمورة جداً. عندئذ نشكل نحن الأولاد دائرة حولها ونستفزها ونحن نغني:

ماري الكسلانة، هل ستنهضين؟

هل ستنهضين اليوم؟

كان ذلك يستفزها، فتطاردنا مترنحة، وتتعثر في كل خطوة كطائر مكسور الجناحين، وجهها مغطى بالوحل، وعيناها تطلقان الشرر، الوردة التي على قبعتها تهتز بصورة مضحكة.

أين ثوب زفافك يا ماري؟

أين زوجك يا ماري؟

نسألها صارخين. فتتحول ماري إلى مجنونة وتلحق بنا.

أما عندما تكون صاحية، فتحب أن تتحدث عن زوجها الأول، وعن ثوب الزفاف الأنيق الذي أهداها إياه عندما تزوجا. كان عمرها حينئذ ستة عشر عاماً. وذلك الزواج هو الحدث الرومنسي الوحيد في حياتها. الجميع يعرفون ذلك، بمن فيهم نحن الأطفال. وكان تذكيرها بذلك أسوأ سخرية تخرجها عن طورها.

في أشد نوباتها عصبية كانت تُخرج سكيناً وتصرخ:

- سأنتزع قلوب جميع الرجال في العالم.

عندئذ يكون على خمسة من سائقي العربات أن يمسكوا بهذه

المرأة الأميركية ويحملوها إلى مرآب العربات ويمددونها في ركنها لتنام.

٥

في زمن آخر، كان الهنود الحمر سكان الإيست سايد. ثم جاء الهولنديون والإنكليز والأيرلنديون والألمان والإيطاليون واليهود. ووراء كل شعب رواسبه، كما يحدث في الجيولوجيا.

لقد بقي في تقاطع الجادة الثانية مع الشارع الخامس أثراً ألمانياً بين اليهود. وكان ذلك الأثر كنيسة لوثرية: بناء من القرميد له باب من طراز قديم.

في صباح أحد الأيام رأيت هناك مشهداً مثيراً للفضول. فأمام الكنيسة اجتمع حشد من الناس يضحكون ويصفرون. وكان بين الحشد المعربد بعض اليهود الوقورين ذوي اللحى البيضاء يضحكون كأولاد صغار. ما أثار ضحكات ذلك الحشد شيء عجيب تعجز الكلمات عن وصفه. فمساعد راعي الكنيسة الذي له وجه كوجه البوم، كان يغسل أمام الباب بالماء والصابون تمثالاً للمسيح مصنوعاً من الخشب. كان المتفرجون يصرخون:

- المسيح يستحم.

- معبودهم متسخ وبحاجة إلى الاستحمام.

وكان المسنون اليهود أكثر الساخرين.

- من أجل قطعة الخشب هذه كُنّا نُذبح في أوربا - يقول عجوز ملتحٍ لآخر.

راح الحشد يتكاثر بسرعة. وأخيراً، حضر شرطي وفرقهم. ولولا ذلك، لحدث ما لا تحمد عقباه: تراشق بالحجارة أو تمرد. ولن تكون المرة الأولى التي يقع فيها شغب كهذا.

ففي إحدى المرات قامت جماعة من الشباب اليهود الملحدين باستعراض أمام الكنيس في يوم عيد الغفران، وهذا يوم صيام، وهو العيد الأكثر قدسية في السنة. فكان الملحدون يأكلون سندويشات من لحم الخنزير المقدد، ويصرخون بشتائم الكفر، ستة منهم نُقلوا إلى المستشفى وهم يعانون جراحاً خطيرة.

وفي مرة أخرى، هاجم بعض الرعاع من المتدينين اليهود جنازة فتاة يهودية تزوجت من إيطالي وتحولت عن ديانتها. كانت الفتاة ستدفن في مقبرة كاثوليكية، وكان راهبها المضطرب يقود المراسم عندما أرادت جماعة الرعاع خطف الجثة ليحولوا دون تدنيسها. ولكنهم انطلقوا هاربين عندما حضرت الشرطة.

لقد كان الدين قضية جدية في الإيست سايد. فكل شعبٍ مُلاحق ومكروه يتحول إلى شعب متعصب.

٦

ماكس، أخو أمي الأكبر، كان شديد التعصب. وعندما تزوج والداي، حاول ماكس طوال شهور أن يقنع أمي بأن تحلق رأسها وتضع الباروكة التقليدية التي تضعها النسوة المتزوجات. ولكن والدي ناضل ضد هذه الفكرة. كان يفضل شعر والدتي الطبيعي. ووالدتي لم تكن راغبة في العمل ضد مشيئته. وكانت النتيجة أن فقدت صداقة أخيها مدى الحياة.

ومع ذلك، كانت أمي متدينة أيضاً. فهي تلتزم بكل الصغائر والتفاصيل اليهودية التقليدية المزعجة. هناك طقوس تؤثر على أتفه ما يقوم به أحدنا، وتُعقِّد حياتنا وتملؤها بالنوبات العصبية.

فوالدتي تصلي صلاة الصبح وصلاة الليل. أما والدي فلا يصلي ولا يضع طاقية الصلاة، ولا يذهب إلى الكنيس أيام السبت. ولكنه يذهب إليه فقط في المناسبات الكبيرة الوقورة. وحتى إنه يدخن في أيام السبت ويقترف خطايا أخرى من هذا النوع. لقد كان يهمل الدين كإهماله لأمور أخرى كثيرة.

حضرت إلى بيتنا ذات يوم لجنة من الكنيس. جلس أعضاؤها في غرفة الجلوس، وكانوا يلبسون قبعات الديربي. أحدهم عاتب والدي بقسوة ووقار لأنه لا يحضر صلوات السبت. وقال له:

- إن هذه خطيئة كبيرة يا أخ. إهمال صلاة السبت خطيئة.

فقال والدي متباهياً:

- أعرف ذلك، ولكني أظن أن الرب سيسامحني، فهو يعلم أن لدي أسباباً قوية تمنعني من الذهاب إلى الصلاة.

وفي الحال قصَّ عليهم حكاية:

- كان هناك رجل غني، طلب من الرب أن يقدم إليه جميلاً. وقد وهبه الرب ذلك في الحال. وفي اليوم التالي طلب منه رجلٌ فقير شيئاً، ولكن الرب رفض طلبه فوراً. استغرب الأمرَ ملاكٌ شاب كان يجلس إلى جانب عرش الرب، وسأله: كيف يحدث هذا؟ هل هذه عدالة؟ انظر، فذاك الرجل الغني ليس بحاجة إلى مساعدة ولكنك قدمت إليه ما طلب، أما الفقير فقد طردته. أيها الرب إني أسألك بصراحة: هل هذه عدالة؟

فقال الرب مبتسماً:

- أجل، فهذا الفقير كالطاعون، كل يوم يأتي ليطلب مني شيئاً، بينما الغني يطلب مني في فترات متباعدة. فليأخذ إذاً ما يطلبه، لأنه لن يعود لإزعاجي لفترة طويلة.

ثم توجه والدي بالخلاصة لأعضاء اللجنة قائلاً:

- هكذا هي الأمور يا إخوتي، فكما ترون إنني رجل فقير ولا أريد أن أدوخ الرب كثيراً بتوسلاتي. ولماذا أزعجه؟

داعب أعضاء اللجنة لحاهم كثيراً، ثم خرجوا من بيتنا تملؤهم الشكوك السوداء.

رغم هذه الحوادث، فإن والدي كان يهودياً صالحاً. ففي البيت توجد جميع لوازم شريعة موسى. هناك ميزوزة معلقة على الباب يقبّلها والدي كل صباح قبل الخروج إلى العمل. وهو يشارك في طقوس يوم الغفران ليكفر عن ذنوبه، فيضرب صدره ويئن مع الحشد المجتمع. وفي ليلة الفصح يلبس قميصاً أبيض بلا أكمام ويرأس المائدة المقدسة في البيت.

٧

العجوز بارني واحد من أغرب الشخصيات في شارعنا. إنه يهودي في السبعينات من عمره، يعمل بواباً في مشغل لصنع الأسِرَّة النحاسية، وكان عمله في قبو المشغل. وهو يلبس صيفاً وشتاءً عباءة خضراء تملؤها الرقع، لا يخلعها عن جسده حتى في قسوة الصيف. وعندما يحمل حديد الأسِرَّة الثقيل كان يتعرق بصورة رهيبة ولكنه يظل وفياً لأسماله النتنة.

دائماً هناك فضوليون يتطلعون إلى بارني بينما هو يشتغل أو عندما يجلس على الدرجات ليستريح وعكازه الطويل في يده.

البعض يهمس بأنه عجوز جشع، وأنه يملك نقوداً كثيرة مخبأة بين رقع أسماله، وآخرون يقولون إنه مجنون، وهم مقتنعون بأنهم في كامل قواهم العقلية يتناقشون معه بإسهاب ليؤكدوا له أنه من غير الطبيعي أن يحمل المرء ثلاثين كيلوغراماً من الرقع البالية في الصيف. ولكن العجوز بارني لا يجادلهم أبداً، ويستمر على إخلاصه لرقعه.

سائقو العربات يحاولون استفزازه بمزاح بذيء. ولكن بارني ينظر إليهم بعينيه الكئيبتين ويحيِّرهم بصمته الوقور. الناس يضحكون منه. وعلى الرغم من ذلك، كان في وجه ذلك العجوز المجنون شيء يبعث على الاحترام، بصبره، بمقاومته، بوحدته.

سؤال واحد كان يجعله يتكلم.

نقترب نحن الأولاد منه ضاحكين وقافزين ونسأله:

- ما الذي تنتظره هنا يا بارني؟

فيلتفت إلينا العجوز بعينيه الساهيتين الوقورتين، ويجيب بتمهل:

- إني أنتظر المسيح يا أولادي.

- وماذا سيجلب لك المسيح يا بارني؟

- كأساً من الصودا - يجيب العجوز.

فتفلت منا القهقهات وننطلق هاربين. لم يكن العجوز يغضب من ضحكنا، ويستمر بالانتظار. أنا كنت أوجه إليه أحياناً أسئلة أخرى، لأني أؤمن بأن المسيح سيأتي. فهذه هي النقطة الوحيدة

التي فهمتها بوضوح من الديانة اليهودية. فنحن لا يوجد لدينا سانتا كلوز، ولكن لدينا المسيح المنتظر.

٨

كانت الأعياد اليهودية تفتن الأطفال - كأنها دزينة من أعياد الميلاد في السنة الواحدة - أنا كنت معجباً بمهرجان حانوكاه واحتفالات رأس السنة العبرية. أحببت عيد المظلة الرومنسي، إذ تبنى أكواخ بدائية بسقوف من البردى في فناء العمارات، يحتفل فيها اليهود إحياءً لذكرى سنوات التيه في الصحراء العربية.

كانت صلوات الكنيس مسلية أحياناً. إنها تشبه المسرح. ينفخ الرابي في بوق على شكل قرن، بينما يترنح مائة رجل ملتحٍ يعتمرون أوشحة في اختلاجات أشبه بحالة الاحتضار. يهدرون، ويجهشون، ويضربون صدورهم على ألحان شرقية غريبة عمرها ألفا سنة، ولكنها مازالت تحرك مشاعر اليهود.

كان الأطفال يفزعون من تلك العواطف. ولكن غالبية الحضور يدندنون لساعات طويلة بعبارات عبرية خالية من المعنى. كانت تفوح من الكنيس رائحة عفونة، فالنوافذ مغلقة دائماً. الناس يثرثرون، يتثاءبون، يتجشؤون، يتحدثون عن أعمالهم ويبصقون على الأرض. حتى الكبار يشعرون بالملل. وليس مستغرباً أن يتملص ولد من جانب والده في ذلك الجو ويجلس على الباب ليلعب بالنرد مع أطفال آخرين ضجرين مثله.

بدأت أهتم لأمر المسيح في أحد أيام الصيف. كان أفراد عصابتي قد ذهبوا إلى أحد أرصفة النهر ليصطادوا السمك، وأنا لم

أصل في الوقت المحدد لأرافقهم. كنت وحيداً في الشارع لا أدري ماذا أفعل. مشيت نحو شارع بويري، فهناك تحدث أمور تستحق المشاهدة دائماً.

وقفت أمام أبواب الحانات. استمعت إلى صراخ الرجال وصوت موسيقى البيانو. ثم تجرأت على السير قليلاً إلى الأمام نحو النزل، حيث يدفعون عشرة أو عشرين سنتاً مقابل الليلة. كان هناك متشردون يرتدون قمصاناً زرقاء ويتسكعون حول المكان. وجَّه إليَّ أحدهم نظرة، فانطلقت أعدو مبتعداً. وصلت إلى مكتب العمل. يوجد على المدخل عدة رجال مكلفين باصطياد العمال الذين ينظرون إلى إعلانات عروض العمل، فيدفعونهم إلى الداخل ليتم إرسالهم في الحال إلى العمل.

حاولت تهجية الإعلانات المكتوبة بالطباشير: يلزمنا ستين رجلاً لنشر الخشب. يلزمنا عمال لشق الطرق. كنت أفكر ما الذي يعنيه نشر الخشب وشق الطرق عندما رأيت رجلين مخمورين يتبادلان اللكمات. وقع أحدهما على الأرض، وظل الآخر يضربه بقدمه على وجهه حتى حوله إلى كتلة مدماة. أتى شرطي واعتقلهما. بعد دقائق وصلت سيارة شرطة وقُذف بالرجلين المخمورين في السيارة كحطبتين. ودعهما الجمع المحتشد بالضحك والصفير.

كان معي سِنتان. قررت التوجه إلى الحي الصيني لأشتري قصب السكر. ستكون مغامرة كبرى، وسأرى إن كنت شجاعاً. سأذهب من خلال مولبيري ستريت، وتلك هي أرض العدو التاريخي: الإيطاليون يقطنون في ذلك الشارع، وبإمكانهم أن

يقتلوني. ولكن لو كان بوفالو بيل مكاني لذهب إلى مولبيري ستريت. عليَّ أن أكون شجاعاً مثل بوفالو بيل. كان هو بطلي المفضل في تلك الفترة، كنت أقرأ الكتب الصغيرة التي تروي مغامراته.

نزلت من هيستر ستريت متوجهاً إلى مولبيري. أجل، إن ذلك المكان يبدو مثل الغرب الأميركي الجامح. تحت الشمس الحارقة، بوفالو بيل وأنا لحقنا بثيران البوفالو في السهول الفسيحة. كانت الثيران تتساقط أمامنا بالمئات. بعد ذلك تلقينا رسالة سرية من فتاة بيضاء جميلة، كانت أسيرة في معسكر للهنود الحمر. وكان ذوو الجلود الحمراء يتحضرون لتعذيبها. فانطلقنا بوفالو بيل وأنا. وصلنا لإنقاذ الفتاة في آخر لحظة. مئتان من ذوي الجلود الحمراء عضوا التراب أمام بنادقنا التي لا تخطئ. أنقذنا الفتاة البيضاء وانطلقنا نعدو على صهوات جيادنا.

لماذا أخاف من هؤلاء الصبية الإيطاليين؟ رأيتُ اثنين منهم يدفعان دولاباً حديدياً. ارتجفت ركبتاي. وحاولت أن أقنع نفسي بأني جاسوس، وتابعت سيري كأنني أنفذ مهمة خاصة. نظرت حولي بلا مبالاة. رأيت عربات الباعة المتجولين الإيطاليين، كانت ممتلئة بخضروات غريبة لم أكن قد رأيتها من قبل. رأيت أيضاً عجوزاً إيطالياً يضع أقراطاً. ورأيت بعض المسيحيين وهم يأكلون المحار والأصداف البحرية أمام كشك صغير، لقد سمعت من قبل أنهم يأكلون أشياء كهذه، ولكني لم أكن أصدق ذلك. رأيت كذلك رأس خنزير معروضاً في واجهة دكان جزار، شيء قذر آخر، رغم أنه ساحر، يأكله المسيحيون.

بوم. لقد ضربوني بقوة على رأسي. قفزت في الهواء من المفاجأة وأدرت ظهري لأرى من ضربني. لقد وقعت في يد العدو. ثمانية صبية إيطاليين مسلحين بالعصيّ أحاطوا بي وهم يصرخون كالهنود الحمر. كانوا ثائرين كوحوش، وعيونهم تطلق الشرر. لقد وقع أكثر ما كنت أخشاه.

زعيمهم، وهو ولد كبير وقوي، أمسكني من ياقة سترتي وسألني متوعداً: «من أي شارع أنت؟»

لقد كنت مشوشاً، واقترفت خطأً تكتيكياً جسيماً. لقد قلت له الحقيقة: «من كريستي ستريت».

«هورا، إنه يهودي!» صرخ ووجهه يلمع بسعادة قاسية.

بدأ يضربني بالعصا. الآخرون أخذوا يصرخون وهم يحذون حذوه. سقطتُ على الرصيف، ثم وبمجهود كبير استطعت الوقوف وانطلقت أعدو. ركضت عبر مولبيري ستريت وهم يرشقونني بالحجارة والطوب والخضروات.

«قاتل المسيح!» صرخ أحدهم. وأخذ البقية يرددون تلك الصرخة القديمة. تكاثر بعدها الرعاع، هناك الآن أكثر من خمسين صبياً يلاحقونني. أصابني حجر في صدغي، وأحسست بطعم الدم على شفتي. وأحدثت قطعة طوب جرحاً في مرفقي الأيمن. كانت أضلاعي تؤلمني من ضربات العصي. وقميصي ملوث بالبراز والخضروات المتعفنة. لم يكن باستطاعتي التنفس، شعرت بوخرات في رئتي كوخزات الإبر.

اصطف الكبار على طرف الرصيف متابعين المطاردة دون اهتمام. بعضهم كان يضحك من مآسي الطفولة. بينما أنا أبكي

وأركض. شعرت بالضعف. وأخيراً وصلت إلى بويري وعبرت إلى وطني اليهودي.

خاف الإيطاليون من اجتياز بويري واللحاق بي، فأفراد عصابتي يستطيعون مهاجمتهم هنا. وقفوا على حدودهم وعادوا يصرخون للمرة الأخيرة «قاتل المسيح!» بينما كنت أهرول إلى المنزل.

٩

جلستُ أنشج في حضن أمي وهي تغسل الدم والقذارة. كانت تعنفني وتقبلني وتشتم المسيحيين مسببي تلك المصيبة.

- من هو المسيح يا ماما؟

- إنه مسيحهم المزيف! - قالت أمي بمرارة.

- ولكني لم أقتله! لماذا يقولون أني أنا قاتله؟

- بالطبع لم تقتله يا حبيبي، لا تبك هكذا. لقد قتله المسيحيون، وهم الآن يلقون بالمسؤولية علينا.

- ولكن من هو المسيح يا ماما؟

- لقد كان مشعوذاً أراد أن يوهم اليهود بأنه هو المسيح المنتظر، ولكنه لم يستطع ذلك. وبما أننا نحن اليهود سخرنا منه، فقد حقد علينا وخاننا مع الوثنيين.

- ألم يكن هو المسيح المنتظر الحقيقي؟

- طبعاً لا. فعندما يجيء المسيح الحقيقي سينقذ العالم، سيجعل كل شيء يسير على ما يرام. أما هذا المسيح المزيف فلم يفعل إلا زيادة الأمور سوءاً. أنظر إلى العالم، إنه مليء بالمحتالين

واللصوص، حروب وجرائم وأطفال تدهسهم عربات الترام! أما عندما يأتي المسيح الحقيقي فسيبدّل كل هذه الأحوال.

- ومتى سيأتي هذا المسيح يا ماما؟

- لست أدري. اسأل الرابي صمويل فربما يستطيع إخبارك.

لقد شغلتني هذه الفكرة. وفي المساء، ذهبت إلى مشغل مظلات الرابي صمويل وسألته. قال لي إن المسيح ربما لن يأتي لسنوات طويلة. ولكنه سيصل راكباً حصاناً أبيض وسيضع حداً لجميع أعداء اليهود.

- هل سيكون شبيهاً ببوفالو بيل؟ - استفسرت.

- كلا. سيكون شاباً شاحباً ومسالماً. لن يقتل الناس بالطلقات النارية، وإنما سيهزمهم بقوة الحب.

لقد خيب هذا أملي. فقد كنت أريد مسيحاً مثل بوفالو بيل يستطيع إبادة أعدائنا. تحدثت عدة مرات مع الرابي صمويل حول هذا الأمر.

الفصل الخامس عشر

قديس مشغل المظلات

١

دون أن يتوقف عن عمله على الآلة، كان الرابي صامويل يدندن أناشيد تشاسديك[١] محاولاً أن ينسى أمريكا، ولكن من يستطيع ذلك؟ إن أمريكا تزأر في الشارع وتقاتل ضده على يد أولاده أنفسهم. حتى إنها وصلت إلى الكنيس وتهجمت على ربه.

وأمريكا هذه توصلت في النهاية إلى هزيمة هذا الرجل العجوز وكسر ظهره لأنه لم يستطع الانحناء.

إنه طويل القامة، ضئيل صارم. وكان للرابي صامويل وقار جعله محترماً بين الجميع. وجهه الأبيض كالثلج السيبيري فيه بساطة وصفاء كوجه طفل، ولحيته ناصعة البياض كوجهه. له بشرة شفافة كأنه لا يأكل أبداً. وعيناه واسعتان وزرقاوان تنظران بهدوء ينم عن طمأنينة روحية. كان محاطاً بذلك الجلال الذي يحيط بكثير من اليهود الورعين الذين لم تعد تثيرهم الدنيا، فقد رأوا كل شيء وعانوا كل شيء.

---

(١) Chassidic حركة دينية أطلقها يهود بولندا في القرن الثامن عشر.

الرابي صامويل لا يتسرع ولا يغضب أبداً. كان يمضي وسط قذارة وضوضاء شارعنا متكئاً على عكازه كأمير في المنفى. يستشهد في أحاديثه العادية بنصوص من التلمود. وعندما يبكي أحد أولاده يحاول التخفيف عنه باقتباسات من أقوال الحاخامات الكبار. تحيط به هالة من الوقار، حتى وهو في مشغله البائس منكباً على إصلاح المظلات.

كان يسعده أن أذهب إليه في مشغله وأن نتحدث بينما هو يعمل. لقد كان جدي لأمي في هنغاريا شاسديك مثل الرابي صامويل. وكان العجوز يذكرني بذلك ويحثني على أن أكون مخلصاً لتقاليد عائلتي.

الشاسديم هي طائفة تمردت منذ حوالي ثلاثمائة عام ضد الشكلانية المتزمتة التي هوت فيها الديانة اليهودية. وكان الشاسديم غامضين إلى حد الهستيريا، ومازالوا حتى الآن في كنيسهم يقفزون ويرقصون ويغنون والغبطة تملؤهم باحثين عن «الدفيكوس» أي النشوة التي يتحد بها الإنسان بالرب.

وكان الشاسديميون يزدرون اليهود المتعصبين ويسمونهم «مسناكديم» الدنيويين والدخلاء. ويهزأ هؤلاء بدورهم من الشاسديم ويسمونهم مجانين وسكارى.

- ولكننا لسنا سكارى، صحيح أننا نتناول النبيذ والطعام لنظهر ابتهاجنا بالرب، فالطعام مقدس وكذلك النبيذ. إن الرب موجود في كل مكان، حتى بين هذه المظلات التي أخيطها. هل تفهم يا مايكل؟ -يقول لي بكل هدوء.

- أجل أيها الرابي صامويل.

- يجب أن تتعلم كيف تكون خيّراً، لأن كل عمل خير نقوم به يعجّل قدوم المسيح. أنت تريده أن يكون شبيهاً ببوفالو بيل. سأخبرك بأن المسيح لن يكون شبيهاً ببوفالو بيل ولن يقتل أحداً. سيأتي لإنقاذ العالم وليس لتدميره مثلما فعل مسيح النصارى المزيف. سينقذ اليهود أولاً وبعدها سينقذ الأمم الأخرى. ولهذا علينا أن نعاني الآن أكثر من بقية البشرية. ولهذا يشعر الشاسديم بالابتهاج وسط هذه المعاناة. نحن اليهود شعب المختارين ولهذا فإننا محظوظون. هل تفهم ما أعلمك إياه يا بني؟

- أجل أيها الرابي صامويل.

- والآن ردد معي هذه الكلمات: أنا أؤمن...

- أنا أؤمن - قلت مرتلاً بالعبرية.

- بقدوم المسيح...

- بقدوم المسيح...

- وحتى لو تأخر سأنتظر مجيئه كل يوم.

- وحتى لو تأخر سأنتظر مجيئه كل يوم - ردّدتُ مرتلاً.

ربت الرابي صامويل على رأسي وقال:

- جيد، ستكون يهودياً أفضل من أولادي العنيدين. لديك قلب يهودي. غداً سأعلمك بقية العقيدة.

يتزعم الرابي صامويل جماعة روحية صغيرة من الشاسديم كثيراً ما يأتون إلى منزله ليتناقشوا ويغنوا، بينما أنا أجلس بهدوء وأستمع.

كانوا يفتنونني. فهم غامضون كأبطال الحكايات الخرافية التي يقصها والدي، وكأنهم ليسوا نجارين وخياطين وبائعين في الإيست سايد، وإنما سحرة وأرواح. يشربون كؤوساً صغيرة من البراندي ثم

يرقصون في دائرة مصفقين بأيديهم. لحاهم تتأرجح وعيونهم ممتلئة بالنشوة، تنتفخ أوردة أعناقهم عندما يغنون ألحان الصحراء. لقد كانت غرابة ذلك كله تُحرك شيئاً في داخلي.

٢

حاول الرابي صامويل في البداية أن يدير مشغل المظلات، ولكن رأسه لم يكن يصلح للأرقام، لقد كان أسمى من هذه التفاهات وكان يؤمن بنبل جميع البشر، ولهذا بدأ يخسر في عمله وكان على زوجته أن تتولى أمر إدارة المشغل بينما بقي الرابي صامويل يشتغل على الآلة، وكان سعيداً بهذا الإجراء الذي جعل روحه حرة لتهتم بأمور الدين.

ولكن ذلك كان قاسياً على زوجته السيدة أشكينازي. كانت امرأة ضئيلة، شعرها رمادي، ولا يتجاوز وزنها الأربعين كيلوغراماً، وبسبب زيادة الشغل أصبحت جافة كسمكة مقددة. جفونها منتفخة من قلة النوم، تعمل كجارية منذ مطلع الفجر حتى منتصف الليل، تطبخ وتنظف البيت أولاً، ثم تساعد زوجها بالعمل في المشغل. وكانت وهي في الأربعين من عمرها تبدو كأنها في السبعين. إنها منهوكة دائماً، ولكن روحها عذبة وكريمة، لا تتذمر من شيء، وتقدس عائلتها، وتحترم زوجها الذي لا يصلح للحياة العملية.

المشغل عبارة عن جحر مظلم تنبعث منه روائح كريهة كالبالوعة، روائح الغراء والدباغ والقماش الرطب والأجساد البشرية. هناك ثلاث فتيات يعملن على الآلات إلى جانب الرابي صامويل، يخطن المظلات. ابنته الكبرى راشيل عمرها خمسة عشر

عاماً تقوم بعمل ثقوب في قبضات المظلات. وزوجته الضئيلة تقوم بتثبيت القماش على الأسياخ بتعريضها للبخار في قدر نحاسي كبير.

الآلات تهدر، البخار يصفر، والفتيات يثرثرن أو يعطسن، زبائن يدخلون ويخرجون مساومين على الأسعار. يبدو المكان في جميع الأوقات كمستشفى للمجانين حيث المآسي والعبودية. المشغل مجرد واحد من آلاف الأعمال المذلة التي يمارسها سكان الإست سايد لإبقاء عائلة على قيد الحياة.

في الأيام المطيرة يحتشد باعة المظلات في المشغل، يستلمون رزماً من المظلات على الحساب ليبيعوها في المحطات وفي زوايا الشوارع. وكان على زوجة الرابي صامويل تسليم هذه الرزم لباعة من الشباب اليهود شبه المتسكعين، والمحتالين والكذابين الذين يجدون متعة في خداع زوجة الرابي. وهكذا تعلمت المرأة الصغيرة الخجولة أن تناقش بوقاحة، وأن تناضل وتدافع عن عائلتها بشجاعة.

وكان الرابي صامويل يبدو هادئاً وسط تلك الضوضاء، لا يتدخل مطلقاً في مباحثات زوجته. ولا يشغل تفكيره أبداً إذا ما مرَّ أسبوع بلا مطر. فهذه كلها مجرد أمور دنيوية تهتم بها زوجته، أما هو فله اهتمامات أكثر جدية.

٣

لم يكن لجماعة الرابي كنيسها الخاص، فهم يجتمعون كل مرة في بيت واحد منهم للعبادة. وفي أيام الأعياد يستأجرون صالة رقص أو كوخاً لأداء صلواتهم. ولم يكن لهم حاخام. أحياناً يتنهد الرابي صامويل قائلاً:

- آه، إن كل شيء يغرق شيئاً فشيئاً.

فقد كانت تقع حوادث لم يُعرف لها مثيل في حياة اليهود. لقد غزت أميركا كل شيء، حتى الشاسديم، آخر حصون الرب في هذا البلد كانت تنهار أمام العدو.

والرابي صامويل يتحمل أمريكا بصبر، فقد خضع لها كما خضع من قبل للمذابح الأوروبية. لقد رأى يهوداً يعملون يوم السبت، ويأكلون لحم الخنزير، ويقترفون خطايا أخرى من هذا النوع. وتعلم أن يهز كتفيه بصمت.

أقدم أحد أعضاء جماعته الدينية على حلق لحيته، لأن اللحى في أمريكا تجعل من صاحبها أضحوكة. كان هذا فوق الاحتمال. عندئذ أعلن الرابي الحالم عن معارضته لذلك السلوك وطالب بطرد المجرم من الجماعة.

ولكن المتهم، وهو تاجر أقمشة ماكر، نهض وسط الاجتماع وقدم شرحاً محاولاً الدفاع عن نفسه:

- أيها الإخوان، إنني لم أخرق شريعة موسى عندما حلقت لحيتي، وأستطيع إثبات ذلك. ما الذي تقوله الشريعة بخصوص هذه النقطة يا إخوان؟ تقول بوضوح: «لا تحلقوا لحاكم أو تقصوها» ما معنى هذا؟ كيف يحلق أحدنا لحيته أو يقصها؟ طبعاً، بمقص أو موسى حلاقة. هذا ما كان يفكر فيه نبينا المُشرِّع موسى عندما سن هذا القانون. ولكن يا إخوان، هل استعملتُ مقصاً أو موسى لحلق لحيتي؟ كلا. لقد استعملت مسحوقاً أبيض. فقد اخترعوا في أمريكا هذا المسحوق الأبيض لانتزاع اللحية بدون

قصها أو حلقها. وهذا المسحوق الذي استعملته، يستعمله حاخام شهير في برونكس، وكثيرون من اليهود المتدينين يستعملونه أيضاً. إن هذا ليس ممنوعاً أيها الإخوان. وما أنا إلا شاسديك صالح كالرابي صامويل. وليعاقب الرب أولادي إن كنت استعملت مقصاً أو موسى حلاقة.

أثار هذا الدفاع الجريء والحماسي عواطف الجماعة المتدينة. فكثير منهم يعرفون من خلال تجربتهم في أمريكا أن اللحية الطويلة تشكل عائقاً، وهم يشعرون في داخلهم برغبة قوية للحصول على أي وسيلة شرعية تتيح لهم التخلص من لحاهم.

لم يُطرد تاجر الأقمشة من الجماعة. وبعد أسبوع من هذا الحدث ظهر عضوان آخران من الجماعة دون لحاهم. لقد استعملوا أيضاً مسحوقاً مزيلاً للشعر. اهتزت روح الرابي صامويل من أعماق أعماقها، ولم يعد باستطاعة العجوز المسكين النوم خلال الليل من أساه.

ناقش المسألة مع جماعة أخرى من المتدينين الموثوقين، وتوصلوا في النتيجة إلى ضرورة إقامة كنيس خاص في الحال، والعمل على إحضار حاخام ليكون زعيماً في الحرب ضد أمريكا. ومنذ ذلك الحين ولمدة خمس سنوات كان أولئك النجارون وصانعو المظلات والعمال البائسون يقتطعون من طعام أولادهم وعائلاتهم ليتمكنوا من إقامة كنيس دائم وليحضروا حاخاماً من أوروبا، حاخاماً حقيقياً وليس كهؤلاء الحاخامات الأميركيين الذين يقبلون التسويات.

وقد اختاروا حفيدَ حفيدِ حاخام له شهرة واسعة في بولندا

وليتوانيا وروسيا. يتحدر من جماعة حاخامات ذاع صيتهم باسم حكماء بني إسرائيل الذين يشكلون آخر بقايا الأسباط اليهودية التائهة، ممن تاهوا حول العالم ويظهرون في الأوقات الحرجة حين يكون الشعب اليهودي بأمس الحاجة إليهم.

وكان ذلك الحاخام المشهور قد حقق معجزات في العام ١٨١٠ . وقد ورث الفضيلة عن أجداده الذين عاشوا في المنطقة نفسها خلال قرنين من الزمن، ويحققون المعجزات نفسها. وقد عرف الرابي صامويل وزملاؤه أن الوريث الحالي للحاخام الشهير يرغب في القدوم إلى أمريكا لأن الظروف سيئة في أوربا، وجماعته تموت جوعاً، وهو شخصياً لم يكن سعيداً جداً.

أرسلوا إليه تذكرة سفر بالباخرة وبعض النقود، وانتظروه كما ينتظرون المسيح.

- آه، عندما يأتي الحاخام شماريا سيتغير كل شيء - هذا ما كان يقوله الرابي صامويل.

٤

وأخيراً تحقق الحلم. ففي صباح أحد أيام الصيف، انطلق من شارعنا موكب غريب كمواكب العصور الوسطى. فقد كان الحاخام الجديد يتوجه تحت الحراسة إلى الكنيس الجديد.

لقد رأيت صوراً للمواكب الدينية في الهند. مواكب استعراضية مسرحية غريبة ورهيبة تحتدم فيها العواطف. وقد ذكّرتني بذلك الموكب الصيفي الذي مرّ في شارعي. حوالي مائة يهودي ملتح،

يلفون أنفسهم بعباءات صلاة بيضاء، كانوا يمرون ببطء. نوافذ العمارات وأرصفة الشارع غصت بالمتفرجين. وكان الشاسديم كالمجانين من السعادة، فهم يقفزون كالأولاد، يغنون، يصفقون، ويقبّلون بعضهم البعض بنشوة وطرب. والرابي صامويل يمضي على رأس حشد المتصوفين المنتشي. كان شاحباً من البهجة وهو يحمل بين يديه التوراة الخاص بالكنيس. إنه كتاب مغلف بالحرير والذهب كأمير. لقد كان ثقيلاً. ولكنه الشريعة المقدسة، والعجوز يحتضنه برفق بين ذراعيه وهو يغني بصوت عال مرتجف.

أخيراً، أخيراً! وصل الأمل إلى الإيست سايد. وقرر الرب أن ينظر إلى كريستي ستريت. أجهش بعض الشاسديم المسنين بالبكاء. وأخذوا يقفزون ويتلوون بطريقة مضحكة، مطلقين الصرخات، وغير مبالين بضحكات المتفرجين المستهترين وسخريتهم. ما أهمية الوقار الآن؟ فالرب سيقطن في أمريكا.

في وسط الموكب، ومتكئاً على وسائد مترفة في عربة مكشوفة تجرها أربعة جياد، ظهر حفيد الحاخام صاحب المعجزات، المتحدر من سلالة الحكماء الذين يشكلون آخر بقايا الأسباط اليهودية التائهة: إنه الحاخام شماريا بشخصه.

لقد أصبتُ بخيبة أمل بعد رؤيتي الحاخام. فحسب إطراء الرابي صامويل ووصفه كنت قد تصورت حاخاماً متألقاً كالملائكة، يرتدي ملابس بيضاء وتحيط به هالة ذهبية. ولكن من رأيت كان رجلاً بديناً له وجه منتفخ، يرتدي قفطاناً وقبعة، ويبدو أنه كان معتداً بقبعته العالية لأنه لا ينفك يمسحها بكفيه بين لحظة وأخرى. وجهه لا يعكس أي نوع من الهيبة، وإنما مجرد تصنع أحمق.

كان ينحني إلى الخلف، متخماً، كملك أفريقي. وهو يرمش بعينيه بين حين وآخر، وينظر بلا أدنى تأثر نحو المومسات والباعة المتجولين ونحو رواد الحانات ونحو المسنين وجميع اليهود البائسين رجالاً ونساءً الذين يحيطون به. هؤلاء هم رعيته، ولم يكن من الصعب التكهن كيف سيقودهم. لم يكن يقطع الهدوء المهيب سوى الصبية المشاغبين الذين يشقون طريقهم بين الحشد ليصافحوه. كان يدفع الأولاد ليبتعدوا عنه. ولكن أحدهم، وكان أجرأ من الآخرين، تلقى صفعة من الحاخام. إنه لا يحب الأطفال بلا شك.

تابعتُ الموكب حتى الكنيس في فورسيث ستريت، في الطابق الأرضي من عمارة كبيرة. ومن هناك شاهدت بذكاء طفولي قاس الحاخام وسط رعيته.

استمر الشاسديم يثرثرون ويضحكون ويقبلون بعضهم البعض. منهم من بكى متأثراً، وآخرون أقاموا حلقة في إحدى زوايا الكنيس وأخذوا يرقصون رقصة مقدسة على أنغام إنشادهم. وبإيقاع محدد يرفعون أيديهم نحو السقف ويطلقون صرخة هي مزيج من السعادة والألم، ثم يتابعون الرقص. لقد وصلوا إلى حد الهذيان.

ولكن الحاخام لم يشارك في ذلك الحفل المقدس. لقد كان مشغولاً بالتهام الطعام. جلس إلى مائدة الطعام وبدأ يلتهم السمك المشوي وفطائر التفاح والزبيب. ولكثرة ما أكل، بدت عيناه وكأنهما ستقفزان من محجريهما، وغطى العرق وجهه.

لقد أزعجتني شراهته. ليس ذلك لأسباب جمالية أو دينية إنما لأني كنت آمل أن أتناول بعضاً من الطعام، أنا وصبية آخرون ممن

تربطهم علاقة بالشاسديم. ولكن الحاخام، على ما يبدو، كان مستعداً لأن يلتهم كل ما هنالك من طعام.

عثرتُ على الرابي صامويل وهو يقفز بوقار مع جماعة المتدينين، فجذبته من جلبابه وقلت له منفعلاً:

- أيها الرابي صامويل إن الحاخام الجديد سيأكل كل الطعام. لن يبقي على شيء.

خرج الرابي صامويل من نشوته الصوفية، ورماني بنظرة ملتهبة، وسحبني إلى ركن بعيد، ثم هددني وهو يهز إصبعه بينما احتقن وجهه غضباً، لم أر الرابي صامويل بمثل هذا الغضب من قبل. وقال لي:

- انصرف إلى البيت. لقد ارتكبت إثماً بتحدثك بهذه الحماقات عن حاخامنا شماريا. وكعقاب لك ستذهب إلى البيت حالاً.

لقد سبب لي ذلك ألماً. فأنا أحب الرابي صامويل كثيراً، ولا أريد إغضابه. ولكني فعلت ذلك عن غير قصد، لم يبدُ لي مناسباً أن أنصرف دون أن أتذوق شيئاً من أكوام الجوز والزبيب والتفاح والحلويات التي ترتفع فوق الموائد. ما هو العذر الذي أستطيع تقديمه للرابي صامويل؟ أليس صحيحاً أن الحاخام كان يأكل كل الطعام؟

بقيت للحظات واقفاً على حافة الحشد. ولكن الرابي صامويل اكتشفني من جديد، فأومأ لي أن أنصرف. ولم يعد لي من مفر سوى الذهاب، فانصرفتُ وأنا غاضب من الحاخام الجديد الذي أفسد متعتي، وبسببه لم آكل لقمة واحدة.

آه من الرابي صامويل. إن الانطباعات البسيطة لطفل جعلته يغضب. ولكني كنت محقاً في تقديري للحاخام الجديد، وكان هو المخطئ.

فذلك الحاخام الذي كان مقدساً وصاحب معجزات في أوربا، قد تغير تماماً في هواء أمريكا الكهربائي.

أولاً، بدأ مستوى حياته يرتفع بقفزات سريعة. فهو يتقدم بطلبات ورغبات دائمة إلى جماعته الصغيرة. أهمل الرابي صامويل مشغله تماماً وتفرغ أسابيع وشهوراً لجمع النقود من هنا وهناك كي يشتري للحاخام بيتاً في بروكلين. ثم طالب الحاخام أن يحضروا زوجته وأولاده من أوروبا، فكان لابد من جمع مزيد من النقود. وعائلة الحاخام بحاجة إلى خادمة، مزيداً من النقود.

لم يكن الرابي صامويل يضن على الحاخام بشيء من ذلك الترف، فهو وجماعته بحاجة إلى هذا الرجل العظيم. كان الرابي صامويل يزداد شحوباً وهزالاً، بينما الشهور تمضي والحاخام لم يأخذ مسألة اللحى على محمل الجد بعد. ومع أن الرابي صامويل كان قادراً على مفاتحته بالموضوع إلا أن آخرين من الجماعة كانوا يتهامسون بأن الحاخام ينظر بعين الرضى إلى الفئة التي تستعمل المسحوق المزيل للشعر. وكانت هذه هي الفئة الغنية من رواد الكنيس، ويبدو أن الحاخام الجديد يميل نحو الأغنياء.

بلغت الأحداث ذروتها بعد سنة من وصول الحاخام. فقد هجر الحاخام رعيته بعد أن حصل على فرصة عمل أفضل لدى

جماعة غنية غير متدينة في البرونكس. فكتب ملاحظة قصيرة إلى أتباعه واختفى نهائياً.

لقد صدمت هذه الصفعة معلمي، الرابي صامويل، فجعلته ينطوي على نفسه. يقضي وقته شارد الفكر، ولم يعد يتكلم إلا نادراً، سواء في البيت أم المشغل. فقدت عيناه الطمأنينة. ولم يعد وجهه يعكس مسحة الخلود السابقة. لقد تحول إلى عجوز يهودي منهوك، مذهول ومنعزل.

في إحدى الليالي، وبعد الانتهاء من إحدى الاجتماعات الدينية التي لا يدور بها سوى الشجار والخلاف، فتح باب بيته وبقي مسمراً على العتبة. كان وجهه مكسواً بالمرارة. رفعت زوجته بصرها عن الموقد ونظرت إليه باستغراب منتظرة دخوله. ولكنه لم يتحرك وبدت على وجهه فجأة ملامح مبهمة، وسقط عكازه على الأرض، ثم وضع بيديه على موضع قلبه، وصرخ بصوت مخنوق:

- ما هذا الذي يحدث؟ ماذا يحدث؟

هوى على الأرض قبل أن تتمكن زوجته من الإمساك به. حاول الكلام ولكن لسانه انعقد. وأطلق عدة صرخات غريبة، رهيبة كعواء حيوان. وأجهش بالبكاء باذلا جهده ليتكلم إلى زوجته بلا أي أمل. ولم يعد قادراً على الوقوف، ولا تحريك يديه أو ساقيه. وبعد أن فحصه الدكتور آكسلرود، قال إن الرابي صامويل مصاب بالشلل وتلزمه فترة طويلة من الراحة.

٦

خلال الأعوام العشرة التالية، وبينما كنت أكبر، كان الرابي

صامويل مجبراً على ملازمة الفراش والراحة. لم يكن قادراً على الحركة، ولا على الكلام إلا بصوت يكاد لا يسمع. يعيش على البسكويت والحليب. وشيئاً فشيئاً أخذ لونه يصبح أكثر بياضاً وهو يتحول إلى هيكل عظمي.

وصار على زوجته الصغيرة أن تستيقظ قبل عادتها بساعة، لتفرك جسمه بقطعة إسفنج وتقدم له الطعام بملعقة صغيرة كالأطفال، وتضع له مبولة السرير وحاجيات أخرى، ثم تمضي إلى العمل في مشغل المظلات وترجع عند الظهر لتعتني به مجدداً.

كان سرير الرابي صامويل إلى جانب النافذة، وقد قام والدي بوضع ثلاث مرايا بحيث يمكن لإحداها، وهي معلقة في السقف، أن تعكس جميع الأحداث التي تجري في الشارع. وهكذا كان الرابي صامويل، دون أن يحرك رأسه، شاهداً على كل هذه الكوميديا اللانهائية. لقد كان شبحاً يراقب عالمنا المجنون.

ولكنه لم يزل يحتفظ برقته. كان يبتسم ويهمس قائلاً: «آه من أمريكا! من يستطيع أن يفهم أمريكا؟». كل ليلة كانت زوجته تحدثه عن أولاده وعن مشاكل المشغل، وهو يشجعها ويقدم لها النصائح.

وعندما ماتَ حزن جميع سكان الشارع وخرجوا في جنازته.

قال بعضهم وهم يهزون رؤوسهم:

- آه. لقد كان الرابي صامويل رجلاً طيباً ومتديناً. من الصعب أن تجد رجالاً مثله في أمريكا. كان يقتات من صناعة المظلات، ولكن له قلب قديس.

الفصل السادس عشر

كيف تصبح مليونيراً

١

كان والدي يمر بإحدى فترات الكآبة والشعور بأنه فاشل في أمريكا، فيشتم، ويزمجر، ويشرب ويدخن ويتأجج بالطموح.

- ماذا فعلت؟ أمضيتُ خمس عشرة سنة في هذا البلد ولم أزل دهاناً، بينما ناثان سكيف يزداد ثراء كل يوم. وصورة باروتش غولدفارب تظهر في الصحف - كان يتساءل وهو يضرب صدره بينما نحن نتناول العشاء.

فتقول والدتي بحدّة:

- وماذا في ذلك؟ تناول الحساء الآن.

فيقول بمأساوية:

- أي حساء هذا. الحساء لا يرضي طموحي. إنني عبد.

صرخت والدتي:

- اللعنة على طموحك، لدي من الهموم ما يكفي. ماذا تريد؟ لسنا أغنياء، ولكن لا ينقصنا الخبز، ولدينا سقف يأوينا، والأولاد صحتهم جيدة، جميعنا أحياء والحمد لله. ماذا تريد أكثر من هذا؟

- أريد أن أصبح رب عمل. إن امرأة لا تستطيع تفهم هذه الأمور.

- هل أغضبك معلمك اليوم مرة أخرى؟ - سألته أمي بحنان.

فقال والدي وهو يقضم قطعة مخلل بغضب:

- يا له من وغد. لقد ظل يزن في أذني لدرجة أني كنت مستعداً لسحقه. لو أنكِ سمعتِه وهو يقول: «هيرمان، إنك تبدد الكثير من الدهان. هيرمان، إنك تذهب كثيراً إلى المرحاض. هيرمان، إنك تضيع الكثير من الوقت وأنت تدخن الغليون. ألا تفهم أنك تسبب لي الضرر، إنك تقتل رجلاً بريئاً مثلي» تباً له من معلم.

فقالت والدتي بهدوء:

- ابحث عن آخر. إنها ليست المرة الأولى التي تبدل فيها عملك.

صرخ والدي:

- لا أريد أرباب عمل. لقد قلت لكِ، لا أريد أن يأمرني أحد، أريد أن أكون سيد نفسي. سأذهب لأرى باروتش غولدفارب هذه الليلة، فربما يقرضني ثلاثمئة دولار لأفتتح من جديد مشغلاً لحمالات السراويل. سأصاب بالجنون إذا بقيت تابعاً لأحد.

- إنك مجنون منذ الآن - قالت والدتي - و باروتش غولدفارب هذا سيساعدك كما في المرة الماضية: بإحداث جرح في رأسك.

- سنرى ذلك - قال والدي.

٢

لم تكن والدتي معجبة بباروتش غولدفارب ولا تثق به. إنه شخصية مرموقة في الإيست سايد، وله منصب سياسي في تاماني هول، وهو زعيم صهيوني وصاحب متجر قماش كبير.

لقد كان صبياً فقيراً كوالدي ومن المدينة الرومانية نفسها. وهاجرا في الفترة نفسها. ولهذا كان أبي يعتبر باروتش صديقاً له.

أذكر أن باروتش حضر إلى منزلنا في إحدى المرات، وأغرى والدي بأن يصوت له في الانتخابات:

- الأمر سهل جداً، فغداً سأجعلك مواطناً، وفي اليوم التالي تقترع. هل هناك ما هو أسهل من هذا؟

- إنه يبدو سهلاً - أجاب والدي مفتوناً.

فتابع الرجل العظيم وهو يربت على ظهر أبي:

- طبعاً، كل ما عليك عمله هو أن تضع إشارة تحت النجمة. تحت النجمة، لا تنس ذلك. ستكسب ثلاث دولارات وتصبح ديمقراطياً، إنه لشيء عظيم أن تكون ديمقراطياً في أميركا يا هيرمان، فهذا يجلب لك النقود والأصدقاء.

وهكذا ذهب أبي للتصويت في الانتخابات. عارضت أمي تلك التجربة. ولكن من يستطيع إيقاف أبي إذا ما فتنه شيء؟ أحد رجال باروتش أخذ والدي للتصويت في ثلاثة أمكنة مختلفة. في المكان الثالث، وكان عبارة عن صالون حلاقة، قام رجل بضرب آخر بهراوة. حاول أبي الخروج من هناك بسرعة، ولكنه تلقى ضربة عند الباب من رجل آخر. لماذا؟ لم يعرف السبب أبداً.

وهكذا شقوا رأسه وحملوه في سيارة إسعاف. عاد إلى البيت ملفوفاً بالأضمدة، وفاقداً الإيمان بالانتخابات إلى الأبد.

- معكِ حق يا كاتي. إن هذه الانتخابات عمل لا يصلح إلا للسكيرين الايرلنديين. لن أُقدم مجدداً على عمل خطير كهذا في حياتي.

ولكن باروتش غولدفارب عاد مرة أخرى إلى البيت، وقدم تفسيراً بسيطاً لما سمّاه «الحادث». وظل والدي يثق به، أما أمي فلا.

٣

في تلك الليلة رافقتُ أبي لزيارة باروتش غولدفارب. استقبلنا الرجل العظيم بحرارة في مكتب متجره.

- لديك ولد جميل يا هيرمان. خذ هذا نيكل لك، اشتري مثلجات. ولك يا هيرمان هذا السيجار الجيد. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

دخل والدي مباشرة في الموضوع وحكى قصة حياته، وقصة مشغل حمالات السراويل، ومعاناته في عمله كدهان، ورغبته في أن يصبح رب عمل. ثم طلب من باروتش أن يقرضه ثلاثمئة دولار.

تأخر باروتش بالإجابة، وبقي ساهماً يتأمل، وكست ظلال تفكيره وجهه الأحمر الممتلئ بالقتامة، وفي النهاية قال وهو ينفض رماد سيجاره:

- سأفعل ذلك. تستطيع أن تعتمد عليّ من أجل هذه النقود يا هيرمان. ولكن ليس هذا الأسبوع، وربما ليس في الأسبوع القادم،

ولكن قريباً. فأنا أعاني في هذا الوقت بالتحديد بعض الضيق، وعليّ أن أسدد ديوناً كثيرة. ألم نكن أصدقاء في رومانيا؟ ألم نذهب معاً لنسرق التفاح والخوخ من البساتين، ولنسبح في الدانوب سوية؟ إن أموراً كهذه لا يمكن نسيانها أبداً. سأساعدك يا صديقي.

ثم استغل باروتش غبطة والدي ليعرض عليه الانضمام إلى جمعية قام هو بتنظيمها، واسمها: «جمعية باروتش غولدفارب الخيرية للمناسبات الاجتماعية والمآتم». تكاليف العضوية عشر دولارات في السنة فقط، وفوائدها كثيرة: عندما يمرض أحد الأعضاء فإنه يتلقى ثمانية دولارات في الأسبوع، وتزوره لجنة من الجمعية لمواساته. وعندما يموت، لن تشيعه لجنة بسيطة فقط، بل جميع الأعضاء في الجمعية، وسيدفن في مدفن خاص في مقبرة الجمعية، وتقام لكل عضو جنازة لائقة. وتتلقى الأرملة خمسمئة دولار تجمع من المشتركين.

تقيم الجمعية أيضاً حفلات راقصة. وتصوت لصالح الديمقراطيين في جميع الانتخابات. والأفضل من ذلك أن المشتركين يلتزمون بمساعدة بعضهم بعضاً في مجال الأعمال.

انضم والدي إلى الجمعية طبعاً. وكيف يستطيع أن يقاوم إغراءً قيماً كهذا؟

في أحد أيام الآحاد، بعد أسابيع من ذلك، أخذنا أبي لزيارة المقبرة. وأرى والدتي باعتزاز المدفن الذي خصص له. حاول إقناعها بالانضمام إلى الجناح النسائي في الجمعية ليخصصوا لها مدفناً إلى جانبه. فقالت والدتي بهدوء:

- أجل أريد أن أدفن بجانبك يا هيرمان. وهذه المقبرة لائقة

أيضاً. إنما دعنا نرى أولاً إذا كان باروتش غولدفارب سيساعدك في عملك، فإذا فعل ذلك سأصدقه وأنضم إلى الجمعية.

والدي لم تكن لديه شكوك كهذه. فقد أصبح باروتش غولدفارب معبوده، وصارت الجمعية هاجسه وشغله الشاغل. لقد كانت تثير حماسته طقوس الاجتماعات في الجمعية: كلمات السر، الأوشحة الذهبية والأرجوانية، القفازات البيضاء والحركات المسرحية. فمهنة الدهان كانت مملة، ولكن في المساء هناك اجتماع الجمعية. وبعد عدة جلسات بدأ بالذهاب إلى مقاهي الجادة الثانية مع باروتش ومسؤولين مهمين في الجمعية، وهذا ملأه بالفخر.

كان يقول لوالدتي مبتهجاً:

- إنهم عظماء، جميعهم من رجال الأعمال. من الجيد مرافقة أناس كهؤلاء، فهكذا يتعلم أحدنا كيف يجمع النقود. ولن تصدقي كم من الأمور يعرفون. هل تعرفين ما هو منصب مساعد العمدة يا كاتي؟

- كلا، ولا تهمني معرفته.

- يجب أن تهتمي بعض الشيء، إنها السياسة. هذه الليلة أخبروني ما هو مساعد العمدة وكم يكسب. وقد شرحوا لي أنه يحق فقط لمن ولد في أميركا أن يصل إلى الرئاسة. أنا لا يمكنني أن أصبح رئيساً يا كاتي، ولكن صغيرنا مايك يستطيع ذلك، فكري في الأمر.

- إنني أفكر - قالت أمي.

وتابع والدي حديثه بابتهاج، قائلاً:

- باروتش هذا ليس رجل أعمال ورئيس جمعيتنا فقط، ولكنه

أيضا سكرتير ناد صهيوني ووصي على كنيس. وهذا برأيه يساعده في السياسة. ويقول أيضاً إنه من الواجب الإيمان بالله. وإنه ليس لليهود بلد. وأن أراضي براونسفيل سيرتفع سعرها كثيراً. وهو خبير في العقارات أيضاً، قال لي إنه سيبيعني قطعة أرض رائعة.

- لا بأس، هذا رائع. ولكن قل لي، هل فعل باروتش هذا شيئاً لمساعدتك على فتح المشغل؟ استفهمت والدتي.

فأجاب والدي متفائلاً:

- ليس بعد. ولكنه يقول إنه لم ينس.

باروتش لم يساعده قط، فهو يقدم وعوداً ببساطة ثم ينساها ببساطة. ولكن أشياء أخرى حدثت لوالدي.

٤

التقى أبي في مقر الجمعية بمتعهد دهان اسمه زكريا كوهين. لقد أثر هذا الرجل في والدي.

وقد استخدمه عنده كدهان، وبما أنهما أعضاء في الجمعية نفسها، فقد طلب من والدي أن يراقب العمال الآخرين، وأن يبلغه عن أي تقصير في العمل. قبل أبي مهمة الجاسوس هذه بترحيب كبير. كان يقول متباهياً:

- إن زكريا يثق بي، وقريباً سيطرد آبي توتشمان وسيعينني مكانه كرئيس للعمال. تصوري يا كاتي، إني في طريقي إلى المجد. كل شيء ممكن في أميركا.

وتوتشمان هو رجلٌ يناهز الأربعين، قصير القامة، أصلع، ضعيف البنية ويعاني من المرض الذي يعاني منه أبي وجميع

الدهانين. وهو يعمل عند زكريا منذ أكثر من عشر سنوات.

- زكريا يقول إن توتشمان يتعامل مع العمال برقة بالغة. ورئيس عمال يتصرف بهذه الطريقة يكلّف رب العمل كثيراً. بالإضافة إلى أنه بطيء في العمل ومريض دائماً. سترون كيف سأصبح قريباً رئيس عمال.

هكذا كان يقول أبي مبتسماً.

وفي إحدى الليالي دخل إلى المطبخ باندفاع وقبل والدتي بشدة كمنتصر. وقال هاتفاً:

- أخيراً صرت رئيس عمال. لقد عينني زكرياً رئيساً لعماله اليوم.

- أنا سعيدة بسماع ذلك - قالت أمي وهي تنظر إليه بطرف عينها ثم تابعت: وذلك الرجل المسكين، هل طردوه؟

- أي رجل مسكين؟ هل اكتشفتِ أشخاصاً آخرين لمساعدتهم؟

- أنت تعرف تماماً من أعني، آبي توتشمان.

فصرخ والدي وقد فقد صبره:

- لقد طُرد طبعاً، إنه خامل جداً.

أدارت والدتي له ظهرها. فسألها:

- ما الذي حدث ؟

فأجابته أمي:

- سأقول لك، ليس عدلاً أن يطردوا رجلاً مريضاً لديه عائلة بهذه البساطة بعد أن عمل عندهم عشر سنوات.

فانفجر والدي صارخاً:

- أيتها المرأة اعتني بمطبخك. فلست سوى امرأة.
- أجل. - قالت أمي، ولم تعد تتحدث عن هذه القضية أبداً.

٥

لم أر أحداً يضع كل ذلك الاهتمام بعمله كما فعل والدي في الشهور التالية. فهو لم يعد يفكر بمشغل حمالات السراويل. وقد اختفت من حياته الأيام الكئيبة التي كان يسمي نفسه فيها: «الرجل الذي وقع في المصيدة». صار الآن يقفز من فراشه في الصباح ويلقي برأسه تحت صنبور الماء البارد، وينطلق إلى العمل وهو يصفر. ولم يعد لديه متسع من الوقت في المساء ليقص علينا حكاياته الرومانية، فهو مشغول بمشاريع عظيمة.

لم تكن أمي تشاطره سعادته. وقد اتهمها بأنها جبانة متشائمة. وكانت تكتفي بهز كتفيها. لقد كانت تشعر في الواقع بالخوف دائما عندما يتملكه هذا الطموح. فلدى والدتي تلك الغريزة البروليتارية التي تجعلها ترتاب بكل شيء عندما يتعلق الأمر بجمع النقود.

كان أبي أكثر طفولية. فهو يختال في مشيته ويتكلم بطريقة خطابية شاعراً بالسعادة كصبي فرح بألعابه الجديدة. لقد صار على طريق النجاح الأميركي. واكتشف الخلطة السحرية لناثان سكيف وأوتو كاهان. إن أحداً لم يقم ببناء قلاع شامخة على أرضية هشة كما فعل والدي. وأنا متأكد الآن من أنه ولد ليكون ممثلاً. لقد أصبح يدخن السيجار ويشرب النبيذ ويلبس بذلة سوداء في كل ليلة بعد انتهائه من العمل.

لقد نسي باروتش غولفارب، وصار الآن يعبد تلك الشخصية

الذكية اللامعة: زكريا كوهين، أعظم متعهدي ورشات الدهان. يكرر الدعابات التي يرويها معلمه، ويشرح لنا بإسهاب عن إستراتيجية المعلم وأعماله التجارية الباهرة. لقد أجبرنا على احترام معلمه.

٦

إن سكان الإيست سايد يتغيرون كل عشر سنوات. فعندما يجمع جيل منهم بعض النقود، ينتقل إلى حي آخر من أحياء المدينة أفضل من الإيست سايد. في ذلك الوقت كان اليهود الذين يجمعون نقوداً قليلة ينتقلون إلى برونكس أو إلى أحياء في بروكلين. فتلك المناطق تعيش ازدهاراً عمرانياً. وقد دخل زكريا كوهين، مثل الكثيرين من جامعي الأموال، في تجارة العقارات. كانت أمواله موظفة في قطاع من بروكلين يسمى بورو بارك.

وفي إحدى الليالي أعلن والدي:

- سننتقل من الإيست سايد. لقد نصحني رب عملي بأن ننتقل إلى بورو بارك، حيث يعيش هو نفسه. وهو مستعد لأن يبيعنا بيتاً ندفع ثمنه على أقساط. ويقول إن رجلاً ذو مستقبل يجب أن يعيش خارج الإيست سايد.

- ولكن جميع صديقاتي يعشن هنا، سأفتقدهن. وفي بورو بارك يعيش من يملكون النقود فقط - قالت والدتي.

- وما أهمية ذلك، فأنا قريباً سأكون غنياً أيضاً.

٧

وذات يوم أحد، ذهبنا جميعاً إلى بورو بارك لنرى البيت الذي أقنع زكريا والدي بشرائه.

كان يوماً جافاً من أيام الخريف. هذه الضاحية مليئة ببيوت غير منتهية تبدو كهياكل عظمية، وتُشاهد فيها أكوام من الخشب والطوب. الشوارع المرصوفة تمتد في الفراغ حيث لا شيء سوى الأعشاب البرية. وفي جميع الأنحاء هناك إعلانات مغروسة في الأرض. فوق مزبلة مملوءة بصفائح صدئة ترتفع لوحة إعلان كُتب عليها: «قطعة الأرض الرائعة هذه للبيع، تصلح لبناء فندق». ولوحة أخرى مغروسة في مستنقع آسن يمرح فيه سرب من البط، يُقرأ عليها: «لماذا دفع الإيجار؟ شيدوا منزلكم الخاص في بلد الرب».

بعد مسيرة كيلومترين تقريباً في تلك المنطقة، وصلنا إلى ضاحية موحشة، حيث توجد بعض الحوانيت. أمي كانت كئيبة، ولكن والدي كان يثرثر بمرح. قال متسائلاً:

- أليس هذا المكان جيداً؟ زكريا يقول إن جميع الذين يشترون أرضاً هنا سيصبحون أثرياء خلال عشر سنوات.

أخيراً وصلنا إلى بيت زكريا. كان بيتاً كبيراً، أخضر اللون، وله عين سحرية في الباب. قرع أبي الجرس وانتظرنا في المدخل. فتح زكريا الباب وحيانا بحرارة. كان رجلاً سميناً، له ساقان قصيرتان، يتحرك بصعوبة ككلب بولدوغ مصاب بالربو، عيناه كعيني منغولي، وتغطي أنفه الدقيق ثقوب جدري فيبدو كقطعة جبن.

هتف وهو يشد على يد والدي:

- أهلاً وسهلاً. ها قد حضرتَ أخيراً يا هيرمان.

- أجل - أجاب والدي يملؤه الفخر بهذا الاستقبال الودي. ثم تابع مشيراً إلينا: هؤلاء زوجتي وابناي.

- ابناكَ لطيفان وصحتهما جيدة. تفضلوا بالدخول، لا تخجلوا فالدخول مجاني.

عندما دخلنا سمعنا من بعيد صوت امرأة تقول:

- هل مسحوا أحذيتهم يا زكريا؟ تأكد من ذلك.

ألقى رب العمل نظرة غير واثقة على أحذيتنا، وقال لنا هامساً:

- إن زوجتي متشددة جداً في بعض الأمور - ثم تابع بصوت مرتفع مرح - أجل لقد مسحوا أحذيتهم يا سارة، إن عائلة رئيس عمالي نظيفة جداً، مثلنا. أليس كذلك يا هيرمان؟

قام بوكز والدي بمرفقه. وأمام هذا التآلف العائلي توهجت حماسة أبي. دخلنا إلى صالة مرتبة بذوق ينم عن التكلّف، جدرانها مغطاة بورق جدران أحمر صارخ، ممتلئة بطاولات وكراسي وصوفايات وخزائن وأشياء مختلفة أخرى كواجهات متاجر الأثاث.

٨

السيدة كوهين، امرأة بدينة في خريف عمرها، كانت ممدة على الصوفا، وتتألق بالحلي. ساقاها الممتلئتان تستريحان على وسادة حمراء. وشعرها الأشقر يلمع بقطع ألماس ويستند إلى وسادة خضراء. وهي ترتدي صدرية من الحرير الأرجواني المزين بشرائط وخرز. تضع في أذنيها قرطين من الماس وخاتماً ماسياً في كل إصبع. كان لها مظهر عاهرة سوقية، ولكنها بكل بساطة الزوجة النموذجية ليهودي حديث الثراء.

كانت تعصب جبهتها بمنشفة، وتبدو على وجهها المترهل امارات الأسى. وجهت إلينا نظرة عداء سافرة.

- زوجتي تعاني آلاماً في الرأس، لذا لا أجرؤ على أن أطلب منكم البقاء هنا -قال زكريا شارحاً.

تنهدت المرأة وقالت:

- يستطيعون البقاء على ألا يُحدث الصغيران أي ضجة. لأن الطبيب يقول إن طبيعتي عصبية جداً.

نهض والدي عن مقعده وقال:

- لا نريد إزعاجك أيتها السيدة، سنذهب في الحال، لقد حضرنا فقط لرؤية البيت الذي سأشتريه من زكريا.

ولكن زكريا قال بلهجة حميمة:

- هذا لا يجوز. يجب أن تبقوا. أولاً سنشرب البراندي، وبعد ذلك أريكم غرف بيتي، ثم نذهب لرؤية البيت. أجل، أريدك أن ترى أثاثي الفخم، ولوحاتي الزيتية التي أرسمها بنفسي، والمرحاض الحديث، يجب أن ترى كل شيء. عندما تصبح غنياً مثلي يا هيرمان ستقتني أشياء كهذه.

شربا بسرعة قليلاً من البراندي. ثم لحق أبي برب عمله في جولة على البيت. وبقينا نحن مع السيدة كوهين التي كانت تشد المنشفة على جبهتها، وتنهدت كشهيدة، ثم قالت:

- أوف، رأسي يؤلمني، كم أعاني من هذا الصداع. الطبيب يقول إن هذا يصيبني لأني آكل كثيراً، ولكني لا آكل أكثر من صديقاتي. في الليلة الماضية تناولت العشاء في مطعم لوربير، وكان مؤلفاً من عشرة أطباق، كلفتني ثلاث دولارات وخمسين سنتاً. يجب أن أمتنع عن الأكل في المطاعم لأني أجد طعام طباختنا أفضل، إنني من طبيعة عصبية جداً. عندنا طباخة جيدة، ندفع لها

ثمانين دولاراً في الشهر بالإضافة إلى حساب دكان الأغذية ودكان الجزار الذي يصل إلى مئة وخمسين دولار في الشهر. ففي بيت جيد يجب أن تكون هناك طاهية جيدة. بناء هذا البيت كلف زوجي عشرين ألف دولار، إنه أغلى بيت في بورو بارك. كم كلفتك هذه الصدرية التي ترتدينها؟

- دولارين - أجابت أمي بتلعثم.

فقالت المرأة الأرستقراطية:

- هذا ما تصورته. فبمبلغ ضئيل كهذا لا تحصلين إلا على خرقة. صدريتي تكلفني دائماً ثلاثين أو أربعين دولاراً على الأقل، وأحذيتي اثنا عشر دولاراً، وقبعاتي من خمسين دولاراً فما فوق. الناس الذين في مثل وضعنا عليهم أن يلبسوا بصورة لائقة. وكما أقول لزوجي، إن هذه الأغراض الغالية ستكون أرخص على المدى الطويل لأنها تعيش وقتاً أطول، ألا تعتقدين ذلك؟

- بلى - وافقت والدتي مترددة.

عاد والدي وقد أعجبته ممتلكات زكريا. شربا كأساً أخرى من البراندي. ثم تركنا السيدة كوهين على الصوفا وحيدة مع ألم رأسها وخيالها السخيف، خيال امرأة تملك الأموال.

٩

انطلقنا نمشي بين الأعشاب البرية تحت السماء الرطبة. وبعد مسير عشرين دقيقة وصلنا إلى مجموعة منازل مؤلفة من ثمانية بيوت خشبية، جميعها متشابهة تماماً وبنفس القبح. فرك زكريا كفيه يملؤه شعور بالرضا وقال باندفاع:

- هذا هو. انظر يا هيرمان. إنها أفضل منطقة في بروكلين. خلال خمس سنوات سيتضاعف سعر هذا البيت. وفقط لأنك رئيس عمالي، وأريد أن أجعل منك رجلاً، فإني أتيح لك هذه الفرصة. جميع رجال الأعمال اليهود الناجحين ينتقلون إلى هنا. إرفينغ شينرمان اشترى واحداً من هذه البيوت، إنه يملك متجراً ضخماً لبيع الخردوات في ريفنغتون ستريت. بالإضافة إلى آخرين مثله ينتقلون إلى هنا.

فتح زكريا واحداً من تلك البيوت ودعا أبي إلى الدخول، والدتي لم تدخل، وظلت واقفة على الباب كمتسولة تنظر بعيون قلقة إلى الضاحية، إلى الأرض المغطاة بالأعشاب وتلك البيوت الثمانية المقيتة.

دخلتُ وراء والدي إلى البيت الجديد، كان لا يزال يعبق برائحة الطلاء والخشب. سمعت رب العمل يخاطب والدي قائلاً:

- الأرضية خشبية يا هيرمان، مطبخ من الدرجة الأولى، نور كهربائي. ومرحاض حديث، أووه، يا له من مرحاض، فقط في أميركا توجد مراحيض بهذا الشكل، هل رأيت مثلها في أوروبا؟

بدا والدي متحمساً مثل رب عمله. استفسر عن شروط البيع، وهنا قال رب العمل:

- من السهل عمل ذلك. سأخصم نصف راتبك خلال الشهور الأربعة القادمة، وهكذا تكون قد دفعت القسط الأول المؤلف من ثلاثمائة دولار. بعد ذلك أخصم فقط عشرة دولارات في الأسبوع. وبعد تسع سنوات يصبح البيت ملكك. لقد قمتُ بإجراء جميع الحسابات من أجلك يا هيرمان.

شكره والدي بإفراط.

وفي طريق العودة سأل والدي أمي:

- حسناً ما رأيك يا كاتي؟

- لم يعجبني - أجابت أمي.

فقال والدي مغتاظاً:

- ولم لا؟ هل تعشقين بالوعات الإيست سايد إلى هذا الحدّ؟

- لا، ولكني سأجد نفسي وحيدة هنا. إني معتادة على التعامل مع أناس بسطاء. لا أحتمل فراق جيراني في كريستي ستريت.

- ولكن سيكون لك جيران هنا أيضاً.

- هيرمان، لا تجبرني على الانتقال، لا أستطيع أن أفعل ذلك يا هيرمان. إن قلبي ينقبض بمجرد التفكير في ذلك - قالت أمي راجية.

ولكن والدي أردف وهو يعض على سيجاره:

- حماقات. سننتقل للعيش هنا، لن توقفيني عن ذلك. ولن أرضخ للبقاء طوال حياتي شحاذاً في الإيست سايد. هل تسمعين.

أدارت أمي وجهها، وأخذت تتأمل الأعشاب والأوحال ولوحات الإعلانات الموزعة في بورو بارك.

١٠

بعد شهرين، وفي مساء يوم جمعة، أشعلت أمي شموع السبت وباركتها وقد غطت رأسها بمنديل. كان بيتنا نظيف وهادئاً، كنا نشعر بسكينة قدسية أيام السبت التي يستقبلها اليهود كاستقبالهم لعروس. رائحة العشاء تفوح من الموقد، ونحن الأولاد كنا

جائعين. ولكن والدي لم يرجع من عمله بعد. وبما أنها ليلة جمعة فإنه قد تأخر كثيراً.

ثبتت والدتي الشموع فوق المائدة، ووضعت الأطباق. ثم جلست تنتظر.

قُرع الباب، فقالت والدتي: «أدخل». دخل رجل يهودي ملتحٍ، نحيف، يلبس ثياب دهان. نظر إلى والدتي بمرارة ودمدم:

- مساء الخير.

- مساء الخير - أجابت والدتي وقد شحب وجهها.

قال الرجل وهو يرطب شفتيه بلسانه:

- أنا واحد من الدهانين الذين يعملون مع زوجك.

- هل أصابه شيء؟ - قالت أمي وهي تلوي مريلتها بعصبية.

- إنه جريح.

- جريح؟ - تلعثمت أمي.

- وقع واثنان آخران إلى الشارع، فقد كُسرت السقالة. هذا سرواله وقميصه. إنه في المستشفى، وقد أرسلوني لأعلمكم بالأمر.

- هل مات؟ - قالت والدتي.

- لا، لا قدر الله، لم يحصل شيء من هذا. الطبيب يقول إنه سيعيش، لقد كُسرت ساقاه فقط - قال الرجل محاولاً تهدئة أمي.

جلست والدتي على الكرسي منهارة وقالت:

- أحضروا لي قليلاً من الماء.

هرع الرجل إلى المغسلة وأحضر كأساً من الماء. شربته أمي، ثم بدأت تنشج بصمت، وتجفف الدموع بطرف مريلتها.

- يا لهيرمان المسكين. مسكين هيرمان.

حاول الدهان أن يواسيها. جفف عرقه بمنديله الأزرق وتمخط. ثم قال:

- لا يمكننا عمل أي شيء. جميع الدهانين يحصل لهم الشيء نفسه. ربما سيكون دوري في السقوط الآن، وأنا أيضاً لدي زوجة وأولاد. هذا حال الدنيا وعلينا أن نقبل ما تعطينا.

أرسلني الدهان لأنادي الجيران، وعندما حضروا ذهب مقدماً كلمات المواساة البليدة. جلس الجيران مع والدتي طوال الليل.

بعد شهر من الحادث، أحضروا أبي من المستشفى. كانت ساقاه ملفوفتين بالجص. لقد سقط بشكل عامودي فلم تبق عظمة واحدة سليمة في عظام قدميه.

بقي في الفراش سنة كاملة. خلال الأشهر الثلاثة الأولى كانت جمعية باروتش غولفارب تدفع لوالدتي مساعدة تبلغ ثمانية دولارات في الأسبوع. وعندما توقف هذا الدخل بدأت الأمور تصعب علينا.

زكريا كوهين زارنا مرة واحدة ثم نسينا بعد ذلك. لم يكن لدينا من نلتجئ إليه، والأقساط التي دفعناها للبيت في بورو بارك ضاعت إلى الأبد. وضاعت أيضاً أحلام والدي بتحقيق النجاح.

بدأت والدتي تعمل في مطعم في برودواي. وأنا صرت أبيع الصحف بعد انتهاء دوام المدرسة. لقد أصبحتُ رجلاً بين ليلة وضحاها. وصرتُ أناقش قضايا العائلة المالية مع أمي. لقد بدأ الفقر يشغل تفكيري.

الفصل السابع عشر

الطبيبان

١

كان في شارعنا طبيبان. الدكتور الشاب السوداوي إسيدور سولو، والدكتور البدين والمبتهج ماركوس ج. آكسلرود. كلاهما كان مشغولاً في ذلك الشتاء. لقد كانت سنة جيدة المحصول للأطباء والصيادلة ودافني الموتى والجمعيات الخيرية.

فقد كان الإيست سايد منطقة جيدة على الدوام لأصحاب الاختصاصات. فكم من المهن اللامعة والمهمة خرجت من بؤس ملايين المهاجرين.

الفقر في الشتاء. من يستطيع أن يوضح، أو حتى أن يتصور المعاناة الجماعية لمائة ألف بيت في الإيست سايد؟ آلاف المسلولين والمشلولين، كثير من فقر الدم والجوع. إنه عالم يعاني من أمراض في المعدة، في الكبد والرئات المتعفنة. الأطفال يموتون ويتألمون بالآلاف. أرق وضيق.

النزلات الصدرية، والتيفوئيد، والحمى ترتفع وتنخفض في ممرات البيوت المتجمدة.

صرخات، هيستيريا، أمراض عصبية. إن عربات دفن الموتى تمر في الشوارع بكثرة عربات القمامة.

لقد أصبح الدكتور سولو أكثر نحولاً في ذلك الشتاء، فسراويله صارت فضفاضة، وعيناه غائرتان من قلة النوم. ولكن الدكتور ماركوس ج. آكسلرود بقي سميناً وسعيداً، لقد كان يزدهر كوردة.

٢

في أوطانهم القديمة، كان اليهود يقدسون الحاخامات. أما في هذا البلد، فإن الطبيب هو معبودهم. شاهدتُ نساءً وهن يلاحقن طبيباً شاباً في شوارع الإيست سايد ويقبّلن يديه بخشوع، ويجهشن بالبكاء وهن يتضرعن صارخات بأن يباركه الرب. لقد كان الطبيب هو المنقذ المنتظر.

في جميع العائلات اليهودية الفقيرة، كان حلم الأم أن يصبح أحد أولادها طبيباً. تماماً كما في العائلات الأيرلندية كان الحلم بأن يصبح أحد الأولاد كاهناً.

الدكتور ماركوس ج. آكسلرود يمتلك المواصفات التي يتوقعها اليهود في الطبيب. فهو ذو كرش كبير، وله سطوة، حاجباه كثيفان، ويستعمل نظارة، كان وجهه المدور كالقمر وقوراً، وله لحية صغيرة كثيفة تضفي قداسة على وجهه.

حين كنا لا نزال نملك شيئاً من النقود، طلبنا منه أن يعتني بوالدي المريض. أذكر أن الدكتور آكسلرود دخل في يوم قاتم من أيام كانون الأول وكأنه ملك يدخل إلى مملكته. خلع قبعته، ووضع حقيبته على الأرض، وجلس إلى جانب سرير والدي. نظر

إليه برهة ثم أمره بخشونة أن يمد لسانه ويقول «آه».

بعد ذلك داعب الدكتور آكسلرود لحيته متظاهراً بالتفكير. طلب ماءً ساخناً ومنشفة، فغسل يديه البيضاويتين السمينتين بصمت، ثم قام ببعض الخطوات داخل الغرفة شابكاً يديه وراء ظهره. قطب حاجبيه وتنحنح بينما نحن نراقبه بإجلال وننتظر.

وأخيراً خرج الرجل العظيم من تأملاته. جلس إلى منضدة المطبخ، تمخط وداعب لحيته، ثم قال آمراً:

- أحضروا لي قلماً وحبراً.

أحضرنا له ما طلب. قام بكتابة وصفة دوائية. وكالعادة، وصف له بعض الحبوب الحمراء والخضراء والصفراء. طعمها مرٌّ كالموت. فالدكتور آكسلرود يعرف جمهوره جيداً، إذ ليس هناك في الإيست سايد من يحترم دواء لا يبعث على الغثيان.

- لقد أعطاني دواء جيداً بالفعل هذه المرة. يقول أبي بارتياح وهو يجهد لابتلاع واحداً من تلك الأقراص المنفرة.

وفي بعض الأحيان كان الدكتور آكسلرود يطلب من والدتي أن تقدم له الشاي. في جميع البيوت الأخرى كان الطبيب يسارع في الانصراف بعد انتهاء زيارته المهنية. ولكنه كان يبقى في بيتنا بعض الوقت شاعراً بالألفة معنا. لأن والدي والدكتور آكسلرود كانا زميلين في المدرسة في رومانيا.

- أجل، لن أنسى أبداً تلك الأيام، عندما كنا نذهب إلى المدرسة معاً يا هيرمان. ولكن عليك الاعتراف بأنك لم تكن عاقلاً. قال الدكتور لأبي في إحدى زياراته.

فأجاب والدي مبتسماً:

- إنها الحقيقة، فقد كنت شاباً طائشاً.

- بل أسوأ من ذلك. لقد كنت مغفلاً، كان بإمكانك أن تصبح طبيباً. ولكن أنظر إلى حالك الآن.

فقال والدي وهو يقضم شاربه ويتنهد:

- معك حق أيها السيد الطبيب.

أضاف الدكتور مزيداً من مربى السفرجل واللوز الذي صنعته أمي إلى كأس شايه وحركه ثم لعق الملعقة متلمظاً. وقال:

- حتى وأنا صبي، كنتُ أعي حال الدنيا. أما أنت يا هيرمان فلا، وقد رفضتَ في إحدى المرات أن تقبّل يد المطران.

دمدم والدي:

- أجل، لقد فعلت ذلك ولم أقبّل يده.

- لقد كان مطراناً لئيماً يكره اليهود، يأتي إلى غرفة صفنا كل صباح ويحدثنا في أمور الدين. ثم كان علينا نحن الصبيان أن نمر أمامه ونقبل يده. كان ذلك إجبارياً، وعلينا أن نفعل ذلك جميعناً بما في ذلك اليهود. ولكن في صباح أحد الأيام رفض هيرمان أن يفعل. لماذا؟

- لست أدري - أجابه والدي.

- لأنك كنت بغلاً - قال الدكتور بصرامة ثم تابع - فجميع الصبيان اليهود كانوا يفعلون ذلك. كان علينا أن نفعله، وحتى والدك كان يريدك أن تقوم بذلك مثل الجميع. أما أنت فلم يعجبك الأمر، وطبعاً طردوك من المدرسة. لماذا تصرفت بتلك الطريقة يا هيرمان؟

- لست أدري، شعرت أنني لا أستطيع القيام بذلك مجدداً.

فأجابه الدكتور بلهجة المنتصر وهو يلوح بيديه:

- انظر الآن، لقد دفعتَ الثمن غالياً، فأنت الآن دهان مريض وبلا عمل. وزوجتك تعمل في مطعم، وأولادك جائعون. لقد قلت لك إنك ستندم.

- أجل أيها السيد الدكتور، إنني نادم الآن. أما عندما كنت شاباً فكنت ما أزال أحمل الشيطان في داخلي.

عندما لاحظ الدكتور حزن والدي غيَّر مجرى الحديث، وذكره بالأيام السعيدة عندما كانوا يذهبون للسباحة في الدانوب أو لسرقة الكرز والتفاح من البساتين.

- لقد أمضينا أوقاتاً سعيدة، أليس كذلك يا هيرمان.

- أجل أيها السيد الدكتور - قال أبي بتذلل.

٣

بدأ والدي يتماثل للشفاء. قدماه شفيتا. بالرغم من أنه ظلَّ يعرج إلا أنه كان قادراً على المشي. ولكن معدته وأعصابه ورئتيه مازالت بحالة سيئة بسبب التسمم الناتج عن رائحة الطلاء. والدواء المر الذي أعطاه إياه الدكتور آكسلرود لم يفده بشيء.

في صباح أحد الأيام قفز والدي من الفراش وقال لوالدتي:

- ليذهب المرض إلى جهنم. لقد ضقت ذرعاً به وسأخرج اليوم للبحث عن عمل. اللعنة، فليس بإمكاننا الاستمرار على هذه الحالة.

حاولت والدتي إقناعه بأن ينتظر مزيداً من الوقت، ولكنه رفض

رفضاً حاسماً. وقد أمضى طوال ذلك اليوم واليوم التالي باحثاً عن عمل. وفي اليوم الثالث وجد عملاً.

وقد كان سعيداً جداً عندما خرج في اليوم التالي ليبدأ العمل، ولكنه رجع في منتصف النهار. وعندما عادت أمي من المطعم وجدته مستلقياً على السرير. وبدأ ينشج ويضرب بكفيه عندما رآها.

- كاتي، لم يعد بإمكاني العمل بعد اليوم. إني رجل ضائع. سأقتل نفسي.

- إهدأ وأخبرني ما الذي حدث.

فشهق والدي وقال:

- لقد صعدتُ إلى السقالة وبدأت أعمل. كل شيء مضى على ما يرام، إلى أن نظرت إلى الأسفل نحو الشارع. عندئذ فقدت الشجاعة يا كاتي، بدأت ركبتاي بالارتجاف وكدت أسقط مرة أخرى. زميلي في العمل لاحظ ذلك بالرغم من أني حاولت إخفاءه. وفجأة أغمي علي يا كاتي، وأنقذني زميلي في الوقت المناسب.

- لا تبك يا هيرمان - رجته والدتي.

ولكن لم تكن ثمة وسيلة لمواساته.

- لم يعد باستطاعتي العمل فوق السقالة. يا إلهي، لقد فقدت الشجاعة. ماذا سأفعل الآن؟ فليس لدي مهنة ولا نقود ولا شجاعة لعمل أي شيء. سأقتل نفسي يا كاتي، لقد أصبحت عبئاً عليكم.

- إهدأ، إهدأ وكن صبوراً - قالت والدتي بعذوبة.

- من أين أستطيع إيجاد ثلاثمائة دولار؟ آه، لو كنت أملك

ثلاثمائة دولار لاستطعت افتتاح مشغلي من جديد، ولتركت مهنة الدهان التعيسة هذه. ولكنني رجل واقع في مصيدة.

- إهدأ، لا تقلق يا هيرمان. ولنتناول معاً قليلاً من الشاي فهذا سيهدّؤنا.

٤

حضر الدكتور آكسلرود مرة أخرى ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً.

- مازال الرعب متمكناً من هيرمان - قال ذلك بفظاظة، ووصف له دواء قوياً ومراً، ولكنه لم يفد في شيء.

قطب الطبيب حاجبيه عندما عرف أننا لا نستطيع دفع أتعابه لهذه الزيارة. وفي المرة الثانية اعترفت له أمي بأنها لا تستطيع أن تدفع له فمضى متأففاً. لم يكن يروقه زيارة المرضى الذين ليس لديهم نقود. هكذا قال لوالدتي بصراحة في زيارته غير المدفوعة الثالثة والأخيرة، حيث ألقى علينا خطبة حول الموضوع.

- هل تريدون من الطبيب أن يموت جوعاً؟ - سأل وهو يبسط يديه الغليظتين، ثم تابع قائلاً: أليس من العار أن يحدث هذا؟ إن الله يعلم كم من الصعوبات يواجه الطبيب ليكسب نقوده، فهو لا يملك إلا يدين اثنتين ليعمل بهما. وهو ليس كرجال الأعمال أو أصحاب المصانع، حيث توجد خمسون يداً أخرى تعمل من أجله. إني يا أصدقائي أطالب بأن يُدفع لي عن كل زيارة أقوم بها، فأنا أرفض أن أموت جوعاً.

الدكتور آكسلرود لم يعد إلينا بعد ذلك. ومنذ ذلك الحين صار

طبيبنا هو الدكتور سولو. وهذا الطبيب لا يثق به أحد لأنه شاب صغير السن وليست له لحية، يتكلم مع الناس بلهجة بسيطة ومألوفة، دون التكلف الذي ننتظره نحن من الطبيب. ولكنه لم يكن يصر كثيراً على النقود، ولهذا السبب لديه كثير من المرضى كالدكتور آكسلرود المنتفخ.

٥

الدكتور إسيدور سولو شاب عازب وكئيب، لم تقل له امرأة كيف عليه أن يرتدي ثيابه. فقد كان يلبس دائماً قميصاً قذراً وقبعة مثيرة للضحك. بدلته السوداء المجعدة تطفو حول هيكله العظمي كزي مهرج.

كان طويلاً، عيناه كئيبتان وغائرتان، وله عادة النظر ساهماً إلى وجوه الناس حتى يسبب لهم الحرج. نحيف شاحب الوجه، يبدو كممثل تراجيدي من المدرسة القديمة.

لم يكن يثبت في مكان. فهو يظهر ويختفي كالشبح، ناسياً مظلته أو حقيبته، أو قبعته أو ساعته. حتى إنه نسي في مرة حذاءه. وقد حدث ذلك في إحدى ليالي الصيف الحارة، بعد عملية توليد. وكان قد خلع حذاءه منتظراً أن تأتي لحظة الولادة. وعندما انتهى كل شيء، مضى خارجاً دون أن يلبس الحذاء.

كان مندفعاً، يفشي كل ما يدور في ذهنه. يقول للناس أنهم حمقى لأنهم ينامون والنوافذ مغلقة. أدهشهم هذا، إذ ليس هناك أحد ينام والنوافذ مفتوحة، كانوا يقولون متسائلين:

- كيف ذلك؟ البرد قارس في الخارج.

فيقول الدكتور سولو وقد نفد صبره:

- هذا سيريحكم من مصاريف الأطباء. ولكني أرى أنكم حمقى، وتريدون المرض. فلتفعلوا ما يحلو لكم.

وفي إحدى المرات أسمَعَ رجلاً مصاباً بالسعال كلاماً غريباً:

- يا أخي، لن يفيدك أي دواء، فما يلزمك هو أن تنضم إلى إحدى النقابات العمالية.

- نقابة عمالية؟

- أجل، أنت تعمل في ذلك المعمل القذر كالعبد، بينما تحصل على أجر بائس. إنك بحاجة إلى الطعام والراحة يا أخي. هذا هو مرضك، فعليك أن تنضم إلى نقابة عمالية.

في البيت، عندما تعرفنا جيداً على هذا الطبيب الشاب أحببناه جميعاً. فكان يأتي ليجلس في مطبخنا ويشرب الشاي. واعتاد ان يحضر لنا، نحن الأطفال، السكاكر والألعاب. وكان يمتدح والدتي كثيراً ويقول إنها تذكره بأمه الميتة.

كانت عيناه تغرورقان بالدموع عندما يتحدث عن أمه. يتنهد ويضم كفيه قائلاً:

- آه. لقد كانت قديسة، لا تفكر إلا في مصيري. ولعشر سنوات عاشت في قبو رطب تقتات بالخبز والشاي، وتبيع البيض في الشوارع، كانت تكافح لتجعل مني طبيباً. لقد كان ذلك رهيباً. وكم من المرات فقدتُ الأمل وكدت أرمي كل ذلك جانباً، فجميع تلك الآلام كانت تبدو لي بلا فائدة. ما أهمية أن أكون طبيباً أو لا أكون؟ ألا تساوي حياة الأم أكثر من ذلك؟ ولكنها أجبرتني على الاستمرار. آه لأولئك الأمهات اليهوديات. إنهن يجعلن من أنفسهن

عبيداً، يتألمن ولا يفقدن الأمل أبداً. وأخيراً أنا أصبحت طبيباً، وهي ماتت. لقد مضى على ذلك خمس سنوات. يا لأمي المسكينة، أكانت النتيجة مساوية للثمن؟

فقالت والدتي بحزم:

- طبعاً تساوي الثمن، إنها في قبرها الآن فخورة بابنها وقد أصبح طبيباً.

وقال الدكتور سولو بحزن:

- أجل أعرف أنها كذلك. وهذا أسوأ ما في الأمر، فأنا لست فخوراً بكوني طبيباً، وبودي لو أترك هذا العمل، إني أتعذب كثيراً. إن الإيست سايد واسع جداً، وليس بإمكان طبيب واحد معالجته. أشعر أني عاجز عن ذلك.

- يا لطيبة قلبك - قالت أمي.

- أعرف ذلك. ولكن ماذا أفعل؟ أنا شخصياً أفضل لو كنتُ فلاحاً، يجب أن يكون هناك المزيد من الفلاحين اليهود في العالم.

أذهل كلامه أبي، فاندفع يقول:

- ماذا؟ طبيب يعمل بيديه كفلاح؟ اسمح لي أن أقول لك أيها الدكتور سولو أن مثل هذه الأفكار تعتبر إلحاداً. إن ما تحتاج إليه هو الزواج وإنجاب أبناء. وعليك أن تترك لحيتك تنمو قليلاً، فهذا سيساعدك على جمع الأموال كالدكتور آكسلرود.

- لحية، زوجة، مال - تنهد الطبيب الشاب بسخرية رافعاً يديه، ثم تابع قائلاً:

- يا أصدقائي، عندما تجري في الإيست سايد أنهار من

الحليب والعسل بدلاً من القاذورات، عندها ستكون لي لحية، وزوجة ومال.

كان صعباً على والديّ أن يفهما هذا الطبيب الشاب الذي لا يعتز بنفسه. إذ كان عليهم أن يوقروا الأطباء.

٦

كان شتاءً عندما وصلت خالتي لينا حاملة حقيبة. كانت شاحبة ومنهكة فألقت بنفسها على كرسي وقالت لأمي:

- لقد أعلنا إضراباً عن العمل في المصنع يا كاتي. هل أستطيع أن أبقى معكم هنا؟

- بكل تأكيد، إن أحوالنا سيئة، ولكن بإمكانك أن تبقي هنا دائماً.

- على الأقل سيكون لدي مكان أنام فيه. قالت خالتي.

تناولت طعام العشاء الذي قدمته لها والدتي. راقبتها أمي وهي تأكل ثم قالت مؤنبة:

- لقد عانيتِ الجوع يا لينا.

هزت خالتي كتفيها وقالت:

- ولم لا؟ إن غالبيتنا يجوعون. وهذا ما يعنيه الإضراب. ولكن الاتحاد قبل كل شيء.

والدي، ذلك المحافظ شديد الفقر، قفز في الحال صارخاً:

- اتحاد؟ اللعنة على جميع الاتحادات. أنا لا أؤمن بهذه الحماقات. فعلى كل واحد في أميركا أن يجمع ثروته بنفسه دون انتظار المساعدة من أحد.

- وهل جمعتَ أنت ثروتك؟ - سألته خالتي بهدوء.

فزعق والدي وهو يضرب المنضدة بقبضته:

- لا، ليس بعد. كل ما أحتاج إليه هو ثلاثمائة دولار لأفتتح مشغل الحمالات. وسترى ذلك يا لينا.

فتمتمت خالتي:

- سنرى.

- حسنا، دعونا نتصور أني وجدت ثلاثمائة دولار، وأني افتتحت مشغلي، ولنتخيل أني عملت جاهدا لعشر سنوات في ذلك المشغل وجمعت ثروتي. ثم لنتصور واحداً من اتحادات الكسالى والمتسكعين الاشتراكيين أتى إليَّ بعد ذلك وقال لي: مستر غولد، حضرتك غني جداً، فأعطني نصف ثروتك. عندئذ ماذا؟ هل تعتقدين أني سأعطيه؟

فأجابت خالتي وهي تبتسم:

- كلا، عليك أن تحتفظ بثروتك. هل من المعقول أن يموت أصحاب الملايين جوعاً؟ إن لك حقوقاً أيضاً.

- هذا صحيح - قال والدي الفقير البائس. ثم تنبه إلى أن خالتي تسخر منه. فقطب حاجبيه ولم يقل شيئاً بينما نحن نتناول العشاء. ولكن نقاشاً عنيفاً دار بينهما في الليلة التالية واستمر طوال الليالي التي قضتها خالتي معنا.

بأية جرأة وبأية حدة كانت ترد على أبي. لم تعد تلك الفتاة المهاجرة الخجولة. إن العمل في المصانع قد شدَّ عودها. وفقد وجهها جماله الساذج، ونقص العناية الصحية جعلها صفراء، قاسية ومتوترة.

صارت أكثر نحولاً، وظهرت التجاعيد في وجهها. إن المصانع تجعل البشر يهرمون باكراً، ولكن عقلها تطور خلال النضال. لقد أذهلتنا بقدرتها على التعبير، وبشجاعتها ووقارها. وكانت عيناها تحتفظان برونقهما.

تستيقظ خالتي في الخامسة صباح كل يوم، وتخرج دون تناول وجبة الفطور، وتبقى مشغولة بالإضراب حتى ساعة متأخرة من الليل. لم تكن تنام أكثر من أربع أو خمس ساعات. وفي إحدى الليالي عادت إلى البيت معصوبة الرأس، فقد هاجمها اثنان من الزعران الإيطاليين وشرطي أيرلندي، مدفوعين من أرباب العمل اليهود.

- ولكن كيف خدشنا وجوههم. إنهم لن ينسونا أبداً - قالت ضاحكة.

ارتعبت والدتي، ورجت خالتي أن لا ترمي نفسها في المشاكل مجدداً. ولكن خالتي ابتسمت وقالت:

- إنها الحرب.

واستمرت كعادتها في الخروج كل يوم صباحاً.

٧

كم من الليالي السعيدة كنا نقضي، حيث يدخل الدكتور سولو إلى بيتنا في وقت تناول العشاء، ويداه مليئتان بالهدايا.

يطلب منا أن نفتحها، ونجد شرائح لحم متبلة، مخللاً، سلامي، فطائر جبن وأشياء أخرى كثيرة وشهية. وهكذا نبدأ الحفلة.

وعلى طريقته الساهمة أُغرم الدكتور سولو بخالتي لينا. أراد الزواج منها. إن أحداً منا لم يكن يعرف بذلك، ولا حتى خالتي. وفي إحدى الليالي، وكان الدكتور سولو قد تناول العشاء معنا، ووصلنا إلى شرب الشاي، عندما توقف عن الحديث فجأة وثبت نظره على خالتي.

استمر ينظر إليها لبرهة طويلة. خالتي ارتبكت، وتظاهرت بعدم الاكتراث. الآخرون لم يقاطعوه، فنحن نعرفه جيداً، واعتقدنا أنها إحدى لحظاته التأملية.

كان والدي يتحدث عندما قاطعه الدكتور سولو خارجاً من تأمله الذهني فجأة كما بدأه. ثم قال وهو يمد يده محاولاً الوصول إلى يد خالتي عبر المائدة:

- لينا، أريد الزواج منك.

ارتبكت خالتي أمام هذا الطلب المفاجئ. ونحن كذلك.

- ماذا؟ أتزوج منك؟ - كررت وهي تسحب يدها.

- أجل. أعتقد أنه من السخرية أن أبقى أعزب. وأنت يا لينا أول امرأة أقع في حبها.

والداي لم يستطيعا إخفاء سعادتهما. ولكن خالتي تلعثمت وقد احمرت وجنتاها، وقالت:

- لا.

- لم لا؟ ألا أنال إعجابك يا لينا؟ - قال الطبيب بإصرار وهو ينظر إليها بعينيه الساهمتين النفاذتين.

فأجابت خالتي بهدوء:

- إنك تعجبني طبعاً، فأنت رجل طيب. الجميع يحبونك ويحترمونك. ولكنني لا أستطيع الزواج منك.

قال الدكتور بإصرار:

- أعطني مبرراً واحداً على الأقل.

- لا أستطيع الزواج منك.

جرع والدي كأس الشاي بانزعاج ظاهر وقال:

- ولماذا عليها أن تقدم مبررات؟ إنها أميرة، وكما تعلم هناك المئات من الأطباء والمحامين والأساتذة وأصحاب الملايين يطلبون يدها للزواج كل أسبوع، وهي ترفضهم.

- اصمت - قالت والدتي.

نهضت خالتي عن المائدة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وتمتمت:

- وهل علي أن أقول ذلك أمام الجميع؟

قفز الطبيب من مكانه قائلاً:

- كلا، طبعاً لا. إنني أخرق. لقد بدأت أدرك مدى غبائي وحماقتي. كيف أعرض عليك الزواج على طاولة العشاء. أعذريني يا لينا.

بعدها ضرب الدكتور على جبهته بقبضتيه، وألقى قبعته على رأسه وتهيأْ للخروج من الغرفة وهو يقول:

- إنني مجرد غبي لعين.

ولكن خالتي أعادته إلى الداخل قائلة بصوت رقيق:

- تفضل بالجلوس، لا تخجل أيها الدكتور سولو، إنك تتكلم

بغاية الطيبة في النية. وأنا سأقول لك السبب، ليس لديَّ ما أخفيه. فأنا أحب رجلاً آخر. إنه أحد قادة الإضراب، وهو الآن في السجن.

- لتحيا الاتحادات النقابية، ولتسقط مصانع الاستغلال- صرخ الدكتور فجأة.

ثم ألقى علينا خطاباً ونسي أنه عاشق. قطب والدي جبينه في البداية رافضاً الكلام، ثم تحمس بعد ذلك وراح يدافع عن حقوق أصحاب الملايين ضد الدكتور سولو. ودخلت أمي وخالتي وميندل بام وبعض الجيران في النقاش. وكان لي أنا أيضاً دور في ذلك الحديث الساخن الذي استمر حتى الساعة الثالثة صباحاً.

الفصل الثامن عشر

روح مؤجر البيوت

١

في الإيست سايد يشتري الناس المواد الاستهلاكية بكميات ضئيلة. سكَّرٌ بثلاث سنتات، زبد بخمس سنتات، هذا الشيء أو ذاك بسنتات قليلة. يُقسم الخبز الأسمر، العابق برائحة الحصاد، إلى شرائح تباع كل منها ببضع سنتات. ولكن حتى السنتات كانت قليلة في ذلك الشتاء.

سيطر الفزع على وول ستريت. وكثرت العطالة والإضرابات والانتحار وتمرد الجياع، وطافت العاهرات في شارعنا كالذئاب، لم يسبق أن تنافسن فيما بينهن مثلما فعلن في ذلك الشتاء.

تجمد الناس من البرد. وفي أحد الأيام كانت الشمس شاحبة في السماء الرمادية والشوارع مغطاة بالثلج والوحل. وكنت أنزل في أحد الشوارع، بين جدران رطبة، قدماي مبللتان، والريح تصفع وجهي. لمحت كومة أثاث منزلي أمام باب إحدى العمارات: مناضد، كراسٍ، برميل مملوء بأغراض وأغطية أسرّة، مكنسة، خزانة، ومصباح. كان الثلج يغطي كل شيء، ويتساقط أيضاً على

أفراد العائلة المنكوبة المؤلفة من يهودي نحيل وزوجته وثلاثة أولاد، يشكلون مجموعة حزينة إلى جانب أرزاقهم. كانوا يضعون صحناً صغيراً على إحدى المناضد. امرأة عجوز تحمل سلة، دمدمت بضع كلمات عندما مرت بجانبهم، وألقت قطعة نقدية صغيرة في الصحن الصغير. أناس آخرون فعلوا نفس الشيء. وفي كل مرة كانت العائلة المطرودة من سكنها تخفض عيونها بحياء. فهم ليسوا متسولين، وإنما أناس «محترمون» ولكن إذا ما تجمعت في الصحن الصغير قطع نقدية كافية، فربما استطاعوا استئجار منزل آخر. لقد كان هذا هو الأمل الوحيد المتبقي لهم.

شتاء. في صباح أحد الأيام قمنا نحن الأولاد ببناء قلعة من الثلج، دفنا تحتها مجموعة من القطط حديثة الولادة مع أمهم، وكانت تلك القطط قد تجمدت من البرد. لم تكن عيون القطط الصغيرة قد تفتحت بعد. لقد جاءت إلى هذا العالم، ولكنها لم تتمكن من رؤيته.

كثير من الكلاب والقطط كانت تموت من البرد. وكان يُعثر كذلك أمام الأبواب، وعلى الأرصفة، على عدد من الرجال والنساء الميتين. فماري شوغر بام، أنهت أيامها الأخيرة في زقاق، حيث وجدوها نصف عارية، وهي تضغط بأصابعها على زجاجة ويسكي. كانت تلك هي آخر مغامراتها «الغرامية».

تنزلق حوافر الخيول على البلاط المتجمد فتسقط على الأرض، وتبقى هناك ساعات وساعات وقد كُسرت قوائمها، إلى أن يأتي شرطي ويطلق عليها رصاصة.

نحن الأولاد صنعنا تمثالاً من الثلج، عيناه كانتا قطعتي فحم،

الأنف عبارة عن حبة بطاطس، ووضعنا على رأسه قبعة قديمة، وبقايا كوز ذرة مكان الغليون.

ذراعاه مفتوحتان، وفي إحداهما وضعنا مكنسة، ووضعنا في الأخرى جريدة. هذا التمثال بعينيه الساهمتين، وملامحه الحمقاء جعلنا نتسلى لأمسية كاملة.

في اليوم التالي وجدناه وقد شُوه بصورة فظيعة. لقد انتزعوا عينيه وأنفه.

كان وجهه مهشماً وكأنه ضحية حرب. من الذي قام بتلك المزحة الثقيلة. إنها رياح الشتاء.

٢

السيدة روسنباوم تملك دكاناً لبيع المواد الغذائية في شارعنا. إنها أرملة تعيش مع أولادها الأربعة في غرفتين تقومان وراء الدكان. تعمل منذ الفجر حتى منتصف الليل. إن هذه المرأة المهملة التي لم تكن تسرح شعرها مطلقاً، والتي تثرثر شاكية من أمراضها، كانت تثور أحياناً وتصرخ على أولادها وتضربهم. ولكنها كانت طيبة القلب. وقد قاست كثيراً في ذلك الشتاء، فالجميع فقراء، وهي كانت طيبة جداً إلى حدّ أنها لا تبيع المأكولات مقابل رهن، فهي تثرثر في دكانها الباردة قائلة:

- من الجنون أن أفعل هذا. إني حمقاء. ولكن عندما تأتيني طفلة تريد خبزاً وأنا أملك الخبز، وأعرف أن عائلتها تموت من الجوع، كيف يمكن لي أن أرفض إعطاءها ما تريد؟ ومع ذلك

يجب علي أن أفكر بأولادي. إني أتحطم شيئاً فشيئاً، والدكان أخذت تفرغ. فأنا لا أستطيع دفع ديوني.

لقد كانت طيبة القلب جداً. لكن الكرم ليس إلا نوعاً من الانتحار في عالم يحكمه قانون المنافسة.

في أحد الأيام رأينا نتائج الكرم. فقد حجزت السلطات على دكان الأرملة روسنباوم، انتزعوا الرفوف والمصابيح وحملوا علب السمن وصفائح البترول، وأكياس الأرز والطحين والبطاطا.

ظلت الأرملة روسنباوم هناك تتأمل جنازتها. كان وجهها منتفخاً وكأن بأسنانها ألماً من كثرة ما بكت. وكانت رموشها ترتجف من الذهول، وأولادها يصرخونِ باكين وقد تعلقوا بتنورتها. والثلج يستمر بالهطول، ومن بين المتجمهرين الفضوليين تخرج همسات الشفقة. بينما كان هناك شرطي يلوح بعصاه.

لست أدري ماذا حدث فيما بعد لتلك المرأة البائسة. ربما ساعدتها الجمعيات الخيرية. وربما ماتت. آه أيها الرب الذهبي المتخم، لقد كانت عبقريتك وبالاً في ذلك الشتاء، لقد كنا فقراء، وأنت عاقبتنا بقسوة على هذه الخطيئة، وهذا هو الأسوأ.

٣

والدي كان طريح الفراش مرة أخرى. فكل عظام قدميه تؤلمه. ومرضه المزمن استفحل، وصار يعاني آلاماً في الكليتين، وفي الصدر.

طول الوقت كان مهموماً، وتسليته الوحيدة كانت قراءة الصحف اليهودية، والحديث في الليل عن حوادث الانتحار

والسرقات والجرائم. وعن الكوارث التي ترويها الصحف. كان يقول:

- إنها نهاية الكون. فالبشر أصبحوا مجانين. وقريباً سيأكل بعضهم بعضاً. سيدمرون المدن ويهدمون العالم بالدم والنار.

فتقول والدتي:

- اشرب الشاي. إن الله موجود. أنت ستشفى وستعمل، وسنكون سعداء، يجب علينا أن لا نفقد الأمل.

أما أبي، وبخوف الإنسان الكسيح، فكان ينفعل ويغضب من كل شيء.

- وإذا طردونا من المنزل يا كاتي؟

- لن يطردونا مادامت لدي يدان تعملان -قالت والدتي.

- ولكني لا أريدك أن تعملي، لأن هذا يقوض حياتنا العائلية -صرخ والدي.

- لن يحدث شيء من هذا. فإن لي من القدرة ما يمكنني من عمل كل شيء. -ردت عليه.

٤

في البداية كانت والدتي خائفة من العمل بين مسيحيين في مطعم. ولكنها استطاعت بعد أيام قليلة أن تتكيف بسهولة مع حياة المطبخ الذي يعج بأناس يتكلمون لغات مختلفة. وتعلمت أن تزجر وتناقش كأبناء البولنديين، والألمان، والإيطاليين، والأيرلنديين، والزنوج الذين يعملون هناك. الجميع أحبوها وسرعان ما صاروا يدعونها «ماما» وكان ذلك يملؤها بالاعتزاز. فهي تقول:

- لو أنكم سمعتم «جو» الزنجي الذي يعمل في غسل الصحون، يأتي إلي ويقول: «ماما، أريد أن أترك العمل، فجميعهم ضدي لأنني زنجي». وعندها أقول له: «جو، أنا لست ضدك، فلو أنك تعمل جيداً فإن الآخرين سيحبونك أيضاً». فيقول لي: «حسناً يا ماما، سأبقى» هذا ما يحدث في المطعم، الجميع ينادونني ماما، حتى الزنوج.

لقد كان مطعماً كبيراً، وأسعاره غالية، يذهب إليه رجال الأعمال، وكان يقع في نهاية شارع برودووي. والدتي كانت تعمل مساعدة للطاهي، وعليها أن تقشر يومياً أطناناً من الخضروات لتكسب سبعة دولارات في الأسبوع.

كانت تستيقظ في الساعة الخامسة، فتحضِّر لنا وجبة الفطور، ثم تسير على قدميها مسافة كيلومتر ونصف لتصل إلى مكان عملها. ثم تعود إلى البيت في الساعة الخامسة والنصف مساء، فتنظف الغرف، ولا تتوقف عن العمل لحظة واحدة. حتى في وقت النوم كانت تعمل.

عندما رأى والدي زوجته تعمل مقابل أجر، شعر بجرح في كبريائه كرجل. ولكن والدتي كانت سعيدة، فقد كانت تشعر بالغبطة لأنها تكسب النقود من عملها. وكانت معجبة بالمشاجرات التي تحدث في المطعم.

آه، يا أم روحي الصغيرة التي لا تكل. لماذا كنت تتشاجرين مع الجميع دوماً؟ لماذا كنت تسببين الصداع لوالدي بحكاياتك عن معاركك من أجل «العدالة» في المطعم؟

رئيس العمال في المطعم كان سويدياً، أشقر، وسميناً، وله

شارب قيصري، ووسائل موسيلينية لجعل العمال يشتغلون. جميع المستخدمين يرهبون ذلك الطاغية ذا الرقبة التي تشبه رقبة ثور. جميعهم، باستثناء والدتي. فهي دائماً تضع له «النقاط على الحروف»: عندما يكون اللحم متعفناً، وعندما تكون أحواض الغسيل مصطومة وتفوح منها رائحة كريهة، وعندما يكون مساعدو الطهاة قد انفجروا من كثرة العمل، كانت تخبره بذلك بكل جرأة وصرامة، وتعنفه كما لو أنه ابنها، وهو يستمع إليها بإذعان. لقد صار المستخدمون الآخرون يقدمون شكواهم لوالدتي وهي بدورها تنقلها إلى رئيسهم السويدي.

كانت تقول مزهوة:

- إنه يحاجة إلى خدماتي، ولهذا يسمح لي بتعنيفه. فأنا من الذين يشتغلون كثيراً. وبإمكانه أن يثق بي عندما يتطلب الأمر اسراعاً أكثر. وهو يعرف أني لست كالآخرين، ولستُ ممن يعملون في المطبخ ليوم أو يومين ثم يمضون تاركين العمل. فأنا أستمر، ولهذا فهو يخشى أن يطردني. وأنا أستغل ذلك لأقول له الحقائق بوضوح.

كان المطعم واحداً من تلك المطاعم الفاخرة، حيث يضعون زهوراً على الموائد، وهناك جوقة موسيقية مؤلفة من أربعة عازفين، تعزف أنغامها بينما الزبائن يتناولون العشاء. كل هذا كان موجوداً، بالإضافة إلى تفاهات أخرى. ولكن كل تلك الأمور لم تكن تدعو والدتي لتقدير المطعم. فهي لم تتذوق أبداً العشاء الذي يقدمونه هناك للمستخدمين، وإنما تكتفي بأن تحمل معها من البيت سندويشي جبن.

كان تقول لرئيس المستخدمين دون مواربة:

- إن الطعام الذي يقدم هنا ليس إلا روثاً يصلح طعاماً للخنازير.

وفي إحدى المرات طلبت مني أن أعاهدها بألا أتناول الطعام في المطاعم:

- أقسم لي يا مايك أنك لن تأكل هذا النوع من المأكولات أبداً.

- أقسم لك يا اماه.

- إنها سموم. إنهم يُقْدِمون على تسميم الناس بلا أدنى أهتمام من أجل الحصول على المال. لقد رأيت ذلك بأم عيني. لو كنت أعرف الكتابة بالإنكليزية لبعثت رسائل إلى جميع الصحف.

فيرد عليها والدي:

- لا تتدخلي فيما لا يخصك، ودعي الأميركيين، فهذه بلادهم، والطعام طعامهم.

٥

لم يكن بيتنا أكثر من كومة من الأخشاب المنخورة والطوب. لقد كان كمركب قديم يقوم برحلته الأخيرة. وخلال عواصف الشتاء تتفتح شقوقه كلها، ومنها تدخل الريح والثلج.

الجص الذي يغطي الجدران يتساقط باستمرار، والسلالم محطمة وقذرة. في ذلك الشتاء تجمدت المياه في الأنابيب عدة مرات، وعند انفجار الأنابيب كان الماء يتدفق كنافورة. وفي السقف هناك مجموعة كبيرة من الثقوب التي يتسرب منها الماء.

في بعض الأحيان نظلُ أياماً وأياماً بلا ماء. ويكون على النساء إحضار الماء من الشارع. فهن يصعدن السلالم محملات بدلاء مملوءة بالماء حتى حوافها. وفي سيرهن يطلقن الشتائم واللعنات.

في ديسمبر (كانون الأول)، عندما حضر مستر زونزر، صاحب العمارة، ليقبض قيمة الإيجار. قال له بعض المستأجرين إنه عليه أن يقوم بإصلاح أنابيب المياه.

- في الأسبوع القادم -قال متلعثماً.

وعندما مضى قالت والدتي بسخرية:

- في الأسبوع القادم. للمرة الثانية عشرة يقول الكلام نفسه. هذا الوغد الكبير، ليأكله القمل في الأسبوع القادم. ليته يبتلع أسنانه الاصطناعية ويختنق في الأسبوع القادم.

أراد عدد من المستأجرين الرحيل، ولكنهم لم يجدوا بيوتاً، فالبيوت الرخيصة مؤجرة دائماً، أما البيوت الجيدة فهي غالية. أضف إلى ذلك أن الرحيل لم يكن سهلاً، فهو يكلف كثيراً، ويعني الانفصال عن الجيران القدماء.

- البيوت التي تؤجر متشابهة في جميع الأماكن، والمؤجرون متشابهون أيضاً. فاليوم رأيت بيتاً رفضت إحدى الأيرلنديات أن تسكنه، وإيجاره أغلى من هنا-هذا ما أعلنته إحدى النسوة.

في نهاية يناير (كانون الثاني)، خلال عاصفة ثلج وجليد وصقيع كارثية، انفجرت الأنابيب مرة أخرى، وعانى الجميع لبضعة أسابيع من نقص الماء: الأطفال، والشيوخ والمرضى. وفقد الجيران رشدهم. كانوا يتجمعون في الممرات ويخوضون نقاشات حادة. السيدة كاراكويل اقترحت تقديم شكوى إلى إدارة الأمن.

والسيدة شومان قالت إن هذا لا يفيد لأن إدارة الأمن مُسيَّرة من قبل تاماني هول، ولصاحب العمارة نفوذ واسع هناك.

انفجرت السيدة تانيبوم كقنبلة، فهذه السيدة أكثر دهاء من أمي، وهي أشبه بفرس بحر صغيرة، مربوعة وهيستيرية. كانت تصرخ بصوت يصم الآذان:

- لنرحل كلنا دفعة واحدة. لنتناول الفؤوس ونحفر الجدران ونحطم النوافذ ثم نرحل من هنا.

فتجيب والدتي:

- لا، فأنا لدي طريقة أفضل.

في ذلك الوقت كانت تحدث بكثرة إضرابات يقوم بها المستأجرون ضد أصحاب البيوت. إني متأكد أن المستأجرين في الإيست سايد جعلوا أصحاب بيوتهم يقضون ليالي كثيرة وهم مسهدون. والدتي اقترحت القيام بإضراب. والجارات وافقن على الفكرة بحماسة. ولعدة أسابيع لم يتحدثن بأمر آخر. فكل منهن تحدث الأخرى وتروي لها كيف ستوجه الشتائم إلى المؤجر صاحب العمارة عندما يأتي ليقبض الإيجار. فتقول السيدة تانيبوم:

- أنا سأبصق في وجهه، وأقول له أن يلمس مؤخرتي عندما سيطلب مني الإيجار. ثم سأصفق الباب أمام أنفه. سترون كيف سأفعل هذا.

في جميع أنحاء العمارة كان يسود ذلك التوتر المحموم الذي يسبق المعركة. الجميع يحصون الأيام المتبقية ليوم الأول من فبراير (شباط). وهو اليوم الذي يحضر فيه السيد زونزر ومعه إيصالات الدفع. ماذا سيفعل؟ ماذا سيفعل؟

خانت الساعة المنتظرة. وكان أول باب طرقه صاحب العمارة هو بيت السيدة تانيبوم، فرس البحر ذات العينين الشرستين، فتحت الباب مرتجفة، ودفعت الإيجار دون أن تفوه بكلمة. لقد منعها زوجها من إثارة الفضائح، فهو لا يريد أن يزعج نفسه بالرحيل.

المستأجرة التالية، السيدة شومان، وهي تعيش في البيت المقابل، أصيبت بالذهول من هذه الخيانة للقضية، فدفعت الإيجار هي أيضاً. جميع الأخريات دفعن، باستثناء والدتي التي جابهت المؤجر بشجاعة، وقالت له بصوت واضح كي يسمعها الجميع:

- عليك أولاً أن تصلح الأنابيب أيها السيد زونزر، ثم أقوم أنا بدفع الإيجار.

مستر زونزر أخذ ينظر إليها بعينيه الجاحظتين، ولدقيقة لم يستطع أن يقول شيئاً من شدة غضبه. بعد ذلك شد لحيته الحمراء التي تشبه الليفة وقال:

- سألقي بك إلى الشارع أيتها الداهية. الآن أعرف من أنت. إنك التي حاولت تحريض المستأجرين على الإضراب.

فقالت والدتي ببرود:

- أجل، وأنت الذي أخفت الأخريات ليدفعن، ولكنك لن تخيفني.

فصرخ صاحب العمارة:

- هذا ما تظنينه إذن؟ سوف ترين ذلك. غداً سأحضر السلطات وألقي بأمتعتك إلى الشارع.

سيطر التوتر على جميع أرجاء العمارة.

- لا، ليس بإمكانك أن تفعل هذا. إذ عليك أولاً أن تأخذني إلى المحكمة فأنا أعرف حقوقي - قالت والدتي.

- ماذا؟ حقوقك؟ إنني أستطيع أن أفعل ما يحلو لي في هذه المنطقة، فانا واسع النفوذ في تاماني هول.

وضعت والدتي يدها على خصرها وقالت له بهدوء:

- وهل لك نفوذ عند الله أيضاً أيها السيد زونزر؟

مستر زونزر تشتت من هذا السؤال الذي لم يكن ينتظره وحاول أن يجيب بترفع:

- لا تكلميني عن الرب، فأنا أذهب إلى الكنيس أكثر مما تذهبين أنت وزوجك معاً، وأدفع هناك نقوداً أكثر منكما باثنتي عشرة مرة.

فردت والدتي دون أن تتوقف:

- الجميع يعرفون أنك تملك نقوداً كثيرة، حتى ملاك الموت يعرف ذلك، وهو سيأتي على كل أموالك ذات يوم يا سيد زونزر.

أصيب صاحب العمارة بالشحوب، وأخذ يرتجف وحاول أن يتكلم، ولكن الكلمات غاصت في حلقه. وأصبح شكله غريباً، كأنه يكاد يغمى عليه. بعد ذلك استعاد سيطرته على نفسه وانسحب. فصفقت أمي الباب بشدة وانفجرت ضاحكة بكل قوتها. ثم ركضت نحو النافذة المطلة على البهو ونادت على السيدة الأشكنازية وعلى الجارات الأخريات، اللاتي كن يستمعن إلى المناقشة من بيوتهن.

- هل استمعتن كيف تكلمت مع المؤجر؟ ألم أعطه ما يستحقه؟

فصرخ والدي من الداخل:

- أيتها الحمقاء، إلى أين سنذهب عندما يلقي بنا إلى الشارع غداً؟

أجابته أمي بثقة:

- لن يطردنا. لقد أرعبته، لقد عرفت ذلك من عينيه.

تطلع والدي إليها بازدراء. من رأى من قبل صاحب عمارة يخاف من المستأجرين. لكنها كانت الحقيقة هذه المرة، فالمؤجر لم يعد يزعجنا. وقد أصلح الأنابيب، ثم أرسل أحد عملائه ليقبض الإيجار. لقد كانت أمي على صواب حين تكلمت عن ملاك الموت.

لقد كان مستر زونزر يؤمن بالخرافات. وكان خوفه الأكبر أن يدخل اللصوص في إحدى الليالي إلى بيته ويقتلوه ليسرقوا أمواله. وقد روى لنا قصته الدكتور سولو في إحدى الليالي.

٦

بدأ الدكتور سولو القصة قائلاً:

- عندما أتى المستر زونزر إلى أميركا، كان يمضي في الشوارع حاملاً طبقاً يبيع عليه ربطات عنق، وأربطة أحذية، وأزراراً. لقد كان فقيراً جداً، ينام على فراش في قبو رطب يملكه اسكافي، ويعيش على الخبز اليابس والسمك المقدد. لقد قاسى وجاع خلال خمس سنوات - وهكذا صار له الوجه الأصفر الذي يحمله - كل قطعة نقدية تقع بين يديه، يودعها كبخيل في كيس يخبئه في حفرة تحت فراشه، لم تكن حياته هادئة، فقد كانت الفئران تركض على

وجهه وهو نائم. لم يكن هذا يخيفه كثيراً كخوفه من أن يفقد نقوده. كم كانت مقدسة بالنسبة إليه تلك النقود. كان يحتفظ بها ليتمكن من إحضار زوجته وأولاده من أوربا. كان يجوع من أجلهم ويقضي حياته ومماته. وفي إحدى الليالي سرقوا له تلك النقود من تحت فرشه. كان هذا مصير ما ادخره خلال ثلاث سنوات. أوشك السيد زونزر على الجنون. وقضى شهوراً مريضاً في المستشفى يرفض تناول أي طعام. كان يريد الموت، ولكنه استعاد قوته بعد الضعف وبدأ يدخر مرة أخرى. وبعد سنتين استطاع إحضار زوجته وأولاده، ولكن السعادة لم تأتِ معهم. فالسيد زونزر اعتاد على ادخار النقود. لقد أصبح بخيلاً، يقتر على زوجته وأولاده حتى في أشد الضروريات. كان يقدم لهم قليلاً من الطعام. فسقطت الزوجة مريضة، ولم يرض أن ينفق النقود لإحضار طبيب، فماتت المسكينة. بعد ذلك تشاجر مع صاحب مؤسسة الدفن بسبب تكاليف دفنها. كان يفكر بالنقود دائماً. وصار أبناؤه يكرهونه لبخله، وتخلوا عنه واحداً بعد الآخر. أكبرهم صار لصاً والثاني تطوع في الجيش، والفتاة اختفت. وهكذا بقي السيد زونزر وحيداً.

إنه الآن غني، فهو يملك عمارة مرهونة لديه، ويملك أيضاً عدة بيوت للإيجار. ولكنه مازال يعيش على السمك المقدد والخبز اليابس، ويوفر السنتات كبخيل. هذا هو مرضه.

توقف الدكتور عن الحديث وقفة قصيرة، ثم تابع:

- وهو الآن يصاب بنوبات. وكل ثلاثة أو أربعة أشهر يرسل في طلبي. فأجده يتقلب على الأرض، ويضرب رأسه بالأثاث، ويخدش وجهه بالصحون التي تتحطم، ويصرخ بأن اللصوص

يقتلونه ليسرقوا أمواله فأحدثه بهدوء ليطمئن، ثم أقدم إليه الدواء، وأُشعل له مصباح الغاز ليرى أنه ليس هناك لصوص، وأبقى معه طوال الليل، أحدثه كأنه صبي صغير. فمنذ عشر سنوات قام اللصوص بقتل رجل كان يجمع الخرق وسرقوا نقوده، وكان ذلك الرجل صديقاً لمستر زونزر. ومنذ ذلك الوقت وهو يخاف أن يحدث له الشيء نفسه. كنت أقول له: «اسمع، يجب أن تتخلى عن هذا الاهتمام بالمال، وإلا ستصاب بالجنون أيها السيد زونزر» فكان يضرب كفاً بكف ويجهش بالبكاء قائلاً: «أجل أيها الدكتور سولو سأصاب بالجنون، ولكني لا أستطيع التخلي عن سلوكي، فأنا أحمل هذا في دمي، في قلبي. هل أستطيع استئصال هذه العادة السيئة بالسكين». فأقول له إن هناك طرقاً أخرى، فيجيبني باكياً: «أية طرق؟ هل ألقي بأموالي في النهر؟ أم أقدمها إلى الكنيس؟ وماذا سيفيدني هذا. كيف يمكن أن أحيا دون مال؟ الجميع يناضلون من أجل المال، أليس من حقي أن أناضل أيضاً؟ العالم بأسره يقاسي من هذا المرض أيها الدكتور سولو، ولست وحيداً».
لم أكن أعرف كيف أجيبه.

إنه سيموت في إحدى هذه النوبات، وأمواله ستختفي في بالوعة. أحياناً أشعر بالشفقة عليه. فالذنب ليس ذنبه وحده، إنه مرض العالم، وحتى نحن الذين لسنا بخلاء نقاسي من هذا المرض. كم سيكون العالم سعيداً لو أنه لا وجود للنقود.

والدتي التي كانت خلال حكاية مرض مستر زونزر تهز رأسها مبدية الشفقة، قالت: .

- يا للرجل المسكين. ربما هو بحاجة لزوجة أخرى.

يا لأمي، إن بإمكانها أن تشفق على أي شخص، بمن في ذلك صاحب العمارة.

٧

وعلى الرغم من ذلك عادت في ذلك الشتاء إلى التشاجر مع المؤجر. كان يتوجب علينا دفع الإيجار. وتصادف إن أخي وأختي ووالدتي وأنا كنا بحاجة إلى أحذية. فقد كانت أحذيتنا القديمة ممزقة، ومن المستحيل إصلاحها. فقررت والدتي رهن السوار الذي اشتراه والدي في إحدى فترات الرخاء.

ذهبت مع والدتي إلى دكان السيد زونزر. في الصيف كان يضع للدكان منضدة حاجزة كالتي في الحانات أما الآن فهناك على الأبواب ستائر ثقيلة لا تسمح بدخول ضوء النهار.

لقد كان محلاً قذراً تملؤه النفايات، يعبق برائحة الكافور. ويقف هناك عدد من سكان الإيست سايد الكئيبين. الجدران مغطاة بأشياء غريبة: قيثارات، رفوش، حرامات، ساعات، ثياب بيضاء وعكاكيز. أشياء بائسة تشير إلى هزيمة الفقير.

كان مستر زونزر يقبل رهن أي شيء يساوي أكثر من خمسة وعشرين سنتاً - من الأسنان الاصطناعية التي يستخدمها المسنون، حتى خرق طفل صغير - وكان الناس متأكدون من قدرتهم على فك الرهن عن هذه الأشياء المتواضعة.

لو أن المستر زونزر كسب عشر سنتات في كل صفقة فإنه سيكون رابحاً، لأن هذه الأشياء موجودة لديه بالمئات، وهي ستشكل مبلغاً محترماً في نهاية الأسبوع.

ويشاع بين الجيران أنه يشتري أغراضاً مسروقة من النشالين.

انتظرنا إلى أن يصل دورنا. كان هناك أيرلندي مسن، له عينان زرقاوان، ووجه مشرق، يحاول أن يرهن عدَّة عمله. كان مخموراً، وطلب أن يدفع له دولاراً مقابل أدواته. ولكن مستر زونزر أعطاه نصف دولار فقط وقال له: «ابتعد من هنا». الأيرلندي خرج ضاحكاً وهو يغني، وانطلق إلى الحانة.

امرأة ضئيلة وقذرة رهنت عربة طفل. يهودي ملتحٍ رهن كتاب صلواته وعباءته. امرأة بولونية، لها وجه منتفخ يتصبب منه العرق، رهنت أوكورديون. فتاة صغيرة رهنت مجموعة من شراشف النوم. بعد ذلك أتى دورنا.

كان صاحب العمارة يرتدي قفطاناً أسود له قبعة، ويجلس على مقعد وراء منضيدته. لم نكن نرى سوى وجهه الخسيس وعينيه البارزتين. كان يبدو كعنكبوت في مكمنه. التقط السوار الذي قدمته والدتي، وثبت عدسة مكبرة على إحدى عينيه وفحصه باهتمام على ضوء مصباح الغاز. ثم قال بجفاء:

- عشرة دولارات.

- يلزمني خمسة عشر. دمدمت والدتي.

فقال بإصرار:

- عشرة دولارات.

- لا، خمسة عشر.

رفع رأسه بغضب، وأخذ يتطلع إليها بعينيه حسيرتي البصر. تعرف إليها في الظلمة التي تسود المكان.

- حضرتك مستأجرة عندي، أليس كذلك؟ أنت من سببتِ لي ذلك الإزعاج.

- أجل، وماذا تريد؟

فأجاب بصوت خافت:

- لا شيء، ولكن تأكدي أنك ستنتهين نهاية سيئة.

- ليس أسوأ من نهايتك. سيأكلك الجدري.

- لا تشتميني في دكاني وإلا سأرسلك إلى السجن. ماذا تريدين هنا؟

- لقد قلت لك ما أريد. إني أطلب خمسة عشر دولاراً مقابل رهن هذا السوار.

- إنه يساوي عشرة دولارات فقط.

- ولكنك ستعطيني خمسة عشر. أعلنت والدتي بلا مراوغة.

شحب وجه الرجل، نظر إلى أمي والخوف يملؤه. إنها تعرف سره. لقد كان معتاداً على أناس يرضخون بسهولة.

مد يده بإيصال رهن السوار، وأعطى أمي الخمسة عشر دولاراً.

رجعت أمي إلى البيت مزهوة بانتصارها. وفي اليوم التالي اشترت أحذية لأخي ولأختي إستر ولي. لقد نسيت شراء حذاء لها، فهي دائماً تسوي الأمور بهذه الطريقة.

الفصل التاسع عشر

الشباب المنتقمون

١

شتاء... ثياب سميكة، أحذية متينة، فحم، طعام. ضروريات كثيرة باهظة التكلفة.

شتاء... شحاذ أعمى في البهو، يتوجه نحو السماء المثلجة، يغني الأغنيات اليهودية البذيئة. إنه عجوز أخنب مريض. الناس يلقون إليه قطعاً نقدية أو أرغفة ملفوفة بالجرائد.

شتاء... أولاد، شيوخ، نساء. جميعهم يناضلون ككلاب جائعة إلى جانب عمارة لم ينته بناؤها، حيث يعطونهم بالمجان الخشب الفائض. عجوز نحيفة تجر حزمة حطب، تتعثر، تقع، تقف على قدميها بجهد، ثم تمسك مرة أخرى بالحبل وتتابع سحل الحزمة.

شتاء... في منزل أيرلندي، فوق مائدة المطبخ، يتمدد طفل ميت ملفوف بمنشفة. الأب والأم يجلسان إلى جانبه ويتشاجران بينما يقومان بإفراغ زجاجة ويسكي في جوفيهما.

شتاء... طفلة إيطالية في السرير، حرارتها مرتفعة وعيناها

متورمتان، ومنديل رطب ملفوف على جبهتها. ولكن عليها أن تكسب لقمة عيشها، فهي ترقد في سريرها وتقوم بتركيب زهور اصطناعية، زنابق وسوسن وورد.

شتاء... كثير من الموتى، يُحملون ليدفنوا في مقبرة بوتير. والبلدية تجد نفسها مضطرة لتضعهم في قبور جماعية. ثلاثة في كل قبر، أحدهم فوق الآخر «التوفير في الوقت والمكان» كما تقول الصحف.

شتاء... معارك بالثلج، نحن الأولاد نقذف السادة ذوي القبعات، البدينين والصارمين، لنتمتع برؤيتهم يغضبون.. نتزلج على الثلج في المنحدرات. نشعل مواقد في الشارع، ونشوي عليها البطاطس، ونبقى حتى يأتي الحارس ويطفئ النار.

٢

نظم زعيمنا نيجر عصبة سرية أسماها «شباب شارع كريستي المنتقمون». بيشتيبل، وجاك غوتليب، وأنا واثنان آخران كنا مع نيجر الأعضاء المؤسسين للعصبة.

هدفنا كان الانتقام ضد أي اعتداء يتعرض له أحد المشتركين، وعقد الاجتماعات وشوي البطاطس.

أقمنا كوخاً من الأخشاب وقطع الصفيح القديمة في قطعة أرض فارغة في ديلانسي ستريت، وكنا نجتمع هناك في الليل. ندخل إليه عبر نفق سري. وقد أقمنا له مدخنة من علب البندورة الفارغة، وكان هناك أيضاً مقعدان وفرشة وقنديل.

الجدران كانت مزدحمة بصور ملاكمين ولاعبي بيسبول. إنهم أبطالنا المفضلون.

أقسمنا يمين الولاء كما يفعل الهنود الحمر. فقد غرزنا دبوساً في إبهامنا ثم لوثنا ورقة بدمنا. بعد ذلك، وبواسطة قضيب معدني متوهج، رسمنا على سواعدنا إشارة التصوف.

كنت أنا أول الأعضاء الذي انتقم له. إذ أن صبياً أيرلندياً، يبيع الصحف في تقاطع شارعي هوستين ستريت و بوويري، كان قد ضربني عدة مرات ومزق صحفي وقال لي: «سأقتلك أيها الصبي إذا عدت إلى هنا مجدداً».

وفي إحدى الأمسيات، قام الشباب المنتقمون بمراقبتي عن كثب. وكالعادة هجم علي الأيرلندي ككلب بولدوغ. ولكننا انهلنا عليه نحن الخمسة مطلقين الصرخات، لقد ضربناه بشدة، هزمناه. كان هذا هو أول نصر للشباب المنتقمين، ثم تتابعت الانتصارات.

٣

كانت عائلة نيجر من أفقر العائلات في شارعنا. وتحت وجه نيجر العابس كوجه هندي، كان يبدو أنه يقاسي هموماً كثيرة ولكنه لم يكن يشكو أبداً. إنه يفرج عن آلامه وكبريائه بعدوانية غير طبيعية.

والد نيجر يعمل خياطاً. فهو يخيط على يده، دون ماكينة، أكثر البزات أناقة للمحلات الفخمة في الجادة الخامسة. إنه عمل لا يمكن المشاغل الكبيرة التي تُنتج بالجملة القيام به. فهو عمل بحاجة إلى مهارة يدوية خاصة.

ولكن أجره كان أقل من الأجر الذي تتلقاه فتاة تعمل في مشغل لخياطة أفرهولات الميكانيكيين. لم يكن لهذه الأعمال اليدوية نقابات. وعائلة نيجر هم جماعة من الفقراء المهاجرين يعملون في منزلهم.

لن أنسى أبداً منزل نيجر، حيث كانوا يصنعون بزات غالية للقضاة والمصرفيين ورجال الأعمال الأميركيين الكبار.

كان نيجر يشعر بالخجل، ولا يسمح لأي منا، نحن الصبيان، بالذهاب لزيارته في بيته. ولكن في أحد الأيام، أحضرت أمي من المطعم طبق بيض. كانت ستصاب بالجنون لو أن أحداً قال أنها سرقته، إنها ببساطة قد أخذت ذلك الطبق، فالمطعم غني، وفيه كميات كبيرة من البيض، فكيف سيشعرون بفقدان دستة أو اثنتين؟ وهكذا أرسلتني لأحمل نصف طبق البيض لعائلة نيجر.

دخلت إلى غرفة قذرة، مضاءة بمصباح غاز. رأيت حجرتين أخريَين أصغر من الأولى ومجاورتين لها، تبدوان كحظيرتي خنازير، تملؤهما شباك العناكب. لم يكن بالإمكان السير خطوة واحدة، فهنالك أسرة في جميع الجهات. إن عائلة مكونة من سبعة أشخاص تعيش في هذه الشقة.

في إحدى الزوايا، ممدداً على فرشة صغيرة، كان طفل مريض يبكي. وإلى جانب رأسه كانت توجد مبولة. درجة الحرارة في ذلك البيت لا تطاق. وكان نيجر يلقي إلى المدفأة قطع أخشاب جاء بها لتوه من الشارع.

هنالك ألعاب وصحف مبعثرة على الأرض، بالإضافة إلى قصاصات أقمشة، وزخاريف تطريز، أما على الجدران، ذات اللون الأخضر المسمم، فهناك ثلاث روزنامات، على إحداها صورة ملونة تمثل تيد روزفلت وهو يهاجم مستعمرة سان خوان، إنها العمل الفني الأكثر رواجاً في الأوساط الشعبية في تلك الحقبة. هنالك أيضاً صورة فوتوغرافية مكبرة، محاطة بإطار مذهب، وملوث ببقايا الذباب، تمثل والدي نيجر يوم عرسهم: العروس

واقفة على قدميها بطرحتها البيضاء حاملة باقة زهور، والعريس يلبس بدلة سوداء ويجلس بوقار إلى جانب الطاولة. إن الصورة مأخوذة خلال السنة الأولى من وجودهم في أميركا. كانت الوجوه شاحبة. إنها وجوه فلاحين أوربيين.

الوجه الذي أداره والد نيجر نحوي كان يكبر الوجه الموجود في الصورة خمس عشرة سنة. لقد كان عبارة عن جمجمة: وجنتان بارزتان، وأنف عار من اللحم كمومياء، وعينان واسعتان وغريبتان تذكراني بعيني كلب رأيته يحتضر في الشارع.

سألني والد نيجر بصوت خشن:

- ماذا تريد؟

كان يجلس إلى منضدة وساقاه متقاطعتان. إنه وضع الجلوس المألوف لخياط، وهو يخيط على ضوء مصباح الغاز معطفاً باهظ الثمن. كان يضع خرقة على رقبته، ومنشفة على رأسه وجبهته. لقد قدم الله له السرطان.

في جو الغرفة تنتشر إلى جانب رائحة البنفسج الخفيفة رائحة القذارة الكريهة، والخشب العتيق، والبول، والصحون المغطاة بطبقة من الدهن. ورائحة اليأس.

عينا الخياط، وصوته الخشن، بعثا الرهبة في جسدي. وخمنت: إنه سريع الغضب، لم يكن باستطاعتي التنفس في تلك الغرفة الخانقة. وشعرت أني متضايق دون أن أدري السبب، وأردت الخروج.

الخياط ابتسم لي وهو يهز رأسه بكرم، سألني:

- هل أكل القط لسانك؟ ماذا تريد أيها الصغير؟

الإبرة تدخل وتخرج بسرعة، وهو يخيط معطفاً لمليونير، ويضمخه بشذا السرطان الذي يفتك بذلك الخياط الفقير.

استمررت في الصمت. فاقترب نيجر مني وهو يشد قبضتيه وكأنه يريد أن يضربني. لقد كان متضايقاً لأني دخلت إلى بيته. فبنظرة واحدة قرأت أنه كان منزعجاً لرؤيتي. اقترب مني وقال:

- هلا أخبرتني أي شيء تريده هنا؟

أخيراً استعدت صوتي، فقدمت البيض لنيجر وتمتمت:

- والدتي قد أرسلت لكم هذا البيض.

حدثت جلبة، وخرجت من الغرفة المجاورة امرأة قصيرة وبدينة، تلبس كيمونو، وهي تصطدم بالكراسي والصحون في عجالتها. إنها والدة نيجر. ألقت يديها على ساعدي وقالت وهي تخنقني بقبلاتها الهستيرية:

- شكراً يا عزيزي، شكراً. عسى الله يغير أحوالنا جميعاً. عسى أن يفتح ناره على أعدائنا، إنهم لا يدعونني أنام الليل، ولكني أبصق عليهم. أبصق عليهم.

أصابتني تلك اللعنات بالخوف والذهول.

فقال الخياط لزوجته بعذوبة:

- ماليكا، إنك تخيفين الصبي - ثم توجه إلى ابنته قائلاً:

- ابنتي، أعط لوالدتك كأساً من الماء، إنها تعاني من نوبة أخرى.

جلست المرأة ومسحت وجهها بالمريلة التي تضعها على وسطها، ثم شربت الماء. واستمرت تلهث. بينما نحن ننظر إليها بفضول. وفي النهاية مدت يدها وتناولت البيض، لقد أصبح صوتها عذباً، فقالت وهي تداعب شعري:

- كم هي طيبة أمك، قل لها إننا نشكرها كثيراً، ونشكرك أنت أيضاً، أنت صبي طيب لأنك أحضرت لنا البيض، شكراً أيها الصغير.

خرجت من ذلك البيت وأنا أنتفض حتى أعماق روحي. لا يمكن أن أنسى أبداً ذلك المشهد الذي كان نيجر يعيشه يومياً، فوالدته كثيراً ما تقوم بأعمال غريبة، كانت موضع سخرية الجيران، فهي نصف مجنونة. مسممة بالبؤس، وهي تثور بشدة. إن الخاضعين للقدر وحدهم كانوا «العاقلين».

٤

ليلي كانت تكبر أخاها نيجر بخمس سنوات، وكانت فتاة جذابة، لها بشرة زيتونية، وعينان واسعتان. لقد أخرجوها من المدرسة في وقت مبكر، لتقوم بتسريج البدلات مع والدتها وشقيقتها الأخرى.

اثنان من البالغين وثلاثة فتيان يعملون دون توقف في ذلك البيت. وبعملهم جميعاً لم يكونوا يحصلون على أكثر من اثني عشر دولاراً في الأسبوع وسطياً.

ليلي، كانت تكره ساعات العمل الطويلة. ولم تكن تلهو إلا حين يرسلونها إلى المخزن الذي يتعاملون معه في الجادة الخامسة لتعيد البزات الجاهزة، ولتحضر القماش اللازم لصنع بدلات أخرى. فكانت تترك الصرة التي تحملها على الرصيف، وتأخذ بالرقص كلما التقت بعازف آرغن متجول. لم تكن تستطيع مقاومة الإغراء الذي يدفعها إلى لرقص. وفي إحدى المرات رأتها والدتها

وهي ترقص سعيدة، فسحبتها من شعرها، وأخذت تصرخ بها وهي تصفعها:

- أيتها الممسوخة، هكذا تمضين الوقت إذن خذي، خذي.

- ماما، ولكني أريد أن ألعب وأتسلى ولو لمرة واحدة، يجب أن ألعب قليلاً.!

- تلعبين؟ بينما نحن نموت جوعاً في البيت. كيف سنشتغل إذا كنت تلعبين في الشارع بدلاً من أن تذهبي بالبدلات إلى المتجر؟

وانهالت على الصبية بالضرب، فرفضت ليلي الذهاب مع والدتها إلى البيت، وحدث في الشارع مشهد غير سار بين الوالدة وابنتها. وأخيراً استطاعت الأم إخضاع الفتاة. فقالت الصغيرة:

- حسناً، سأذهب إلى البيت.

وعندما ذهبتا لأخذ صرة الثياب التي تركتها ليلي على الرصيف، وجدوا أنها قد اختفت، لقد استغل أحد النشالين تلك الفوضى وأخذ الصرة، فربما يحصل مقابلها على دولار واحد في إحدى الدكاكين التي تشتري أغراضاً مسروقة. والدة نيجر فقدت صوابها، وأصيبت بحالة هيستيرية استمرت عدة شهور، ولكنها كانت تعمل حتى وهي في حالة هذيان، وكانت تجعل الآخرين يعملون بسرعة أكبر. لقد كان ذلك ضرورياً ليتمكنوا من دفع ثمن البدلات المفقودة.

بعد هذه الحادثة أصبح نيجر هو المسؤول عن الذهاب لإيصال البدلات إلى المحلات التجارية. وما عادوا يثقون بليلي، فربما تذهب لتلعب مرة أخرى. لقد أمضت سنوات وهي محشورة في البيت تسرج البدلات وعندما أصبحت في الخامسة عشر تمردت. وبدأت تشتغل في معمل لصناعة صناديق الكرتون. صارت تلبس

ملابس طويلة وعقصت شعرها، وأصبحت تغازل الفتيان، وتذهب إلى صالات الرقص ولا ترجع إلى البيت حتى ساعات متأخرة من الليل.

والداها كانا يعنفانها، ولكنها ترد عليهما بأنها تكسب مرتباً. لقد أصبحت حرة أخيراً.

وفي إحدى الليالي، وبعد مشادة عنيفة، حاولت الأم أن تضرب ابنتها، فما كان من ليلي إلا أن تركت البيت، ولم تعد بعد ذلك. بحثت الأم عنها في كل مكان، ولكنها لم تجدها. مضت عدة أسابيع دون أن تظهر ليلي.

فيما بعد رآها أحدهم في الجادة الرابعة عشر وهي تتمشى مع لويس الأعور، والمساحيق تغطي وجهها، وتحمل بيدها محفظة نقود كالتي تحملها المومسات. منذ ذلك الوقت لم يعد أحد يذكر اسمها في بيت نيجر.

نيجر لم يعلق على ذلك بشيء. ولكن في إحدى الليالي، وخلال أحد اجتماعات «الشباب المنتقمين»، وكنا جميعنا جالسين حول النار، نهض وقال:

- اتبعوني أيها الرفاق.

لحقنا به طائعين. فأخذنا إلى سطح البيت، حيث يربي لويس الأعور حمائمه.

وعندما أصبحنا هناك، اقتربنا بحذر وكسرنا القفل. وذبحنا أربعين حمامة.

كانت الحمائم تضرب بأجنحتها عندما كنا نقطع رقابها، ثم تسقط هادئة ومضرجةً بالدم.

كانت الغيوم الداكنة تلمع، وناطحات السحاب تتمايل من

بعيد. وكان هناك قط أسود يتمرغ بالثلج. بينما نحن نهمس أحدنا للآخر، ونلتفت فيما حولنا بحثاً عن لويس وأيدينا تقطر دماً.

٥

لا ريب أن لويس الأعور قد شعر بأن نيجر هو الذي قام بالجريمة، ولكنه لم يحاول معاقبته أبداً.

ومع ذلك، فعندما كان الرجل يلتقي بالفتى كان كل منهما ينظر إلى الآخر كعدو.

شقيقة نيجر ذهبت إلى البيت لترى إخوتها الصغار الذين تعبدهم. ولكن والديها لم يتوجها إليها ولو بكلمة واحدة.

توفي والد نيجر، فذهبت ليلي إلى الجنازة. ولكن أمها لم تكلمها حتى في تلك المناسبة.

كانت ليلي ترسل نقوداً إلى عائلتها بالبريد، ومع أنهم كانوا ينفقون النقود فإنهم لم يردوا على رسائلها أبداً.

وفي إحدى المرات التقينا بها - نيجر وأنا - في الشارع. فأخذت تضحك وحاولت أن تتحدث إلينا. ولكن نيجر ابتعد عنها.

لقد ماتت ليلي في أحد المستشفيات وهي في التاسعة عشرة من عمرها بعد إصابتها بالمرض الذي يسمونه في الإيست سايد «السفلس الأسود».

سبع سنوات بعد ذلك، عندما أصبح نيجر رجلاً، كانت إحدى عملياته الأولى كقاطع طريق هي قتل لويس الأعور.

الفصل العشرون

ثمن الدم

١

في مرآب العربات، الحياة والموت يلتقيان. فهناك عربات خاصة للأعراس وأخرى لمراسم الدفن. وهناك كان المركز الرئيسي لِ «كالاهان ترانسفير إكسبريس».

موظفو هذه المؤسسة شبان أيرلنديون، وسائقو العربات من الشباب اليهود.

بين خدمة وأخرى كان مواطنو هاتين الأمتين التائهتين، يتثاءبون بكسل وهم جالسون على مقعد في الشمس، يصرخون ويفلسفون، ويشربون دلاء من البيرة.

مقعدهم كان على باب المرآب. ودائماً هناك عشرة أو اثنا عشر سائقاً جالسين، وعلى الأقل عاهرة مرحة، بالإضافة إلى عنزة أو كلب.

المرآب يقع في عمارة قديمة مبنية من الآجر ومؤلفة من خمسة طوابق، تقوم إلى جوار عمارتنا. في الصيف تفوح منه الروائح، فقد كان المرآب أشبه بمولِّد للروائح الكريهة، يضيف إلى تشكيلة

الروائح المنبعثة من شارعنا رائحة الروث المتعفن الغريبة. وهو ما يشكل جنة لملايين الذباب، وتسميماً لأحلامي. فالذباب يسمن في المرآب ثم يأتي ليزورنا في البيت.

في غابات أميركا الجنوبية ينمو نوع من نباتات الأوركيد العملاقة. لقد رأيتها بنفسي، بعضها يزن مئات الباوندات. ورائحتها العفنة التي تشبه رائحة الروث تحوّلها إلى مغناطيس يجتذب أسراباً من الذباب. الهنود يرهبون تلك النبتة. لأن الذباب يسقطها أحياناً على رجل نائم فتقتله. في مرآب شارعنا كان للذباب ضحاياه أيضاً. ولكن أحداً لم ينتبه لذلك باستثناء الدكتور سولو، الذي كان يكره الذباب ويحذرنا من خطره.

٢

كنت أحب مرافقة سائقي عربات الدفن اليهود في الجنازات. فقد كانت تلك الرحلات من أكثر الأمور تسلية في الصيف.

سائق العربة ناثان كان يهودياً ضخماً كثور، له وجه قاس أحمر وكأنه قطعة من الحديد الصدئ. وقد خلّف سلوكه المتبجح عدة آثار دامية على وجهه.

كان صباحاً حاراً ومتألقاً، ثلاث عربات خرجت من المرآب ومضت في طريقها إلى الجنازة. ثم ظهر ناثان وهو يشتم خيوله، فرجوته أن يأخذني معه، بدا أن مزاجه سيء، ولكنه خفف سيره فصعدت إلى جانبه على المقعد المرتفع.

ثلاث عربات وحمالة النعش، إنها جنازة فقير. مضينا في شوارع الإيست سايد الصاخبة. السائقون الثلاثة يتبادلون المزاح من

عربة إلى عربة. الخيول تقفز وتنزلق، وناثان يشتمها:

- أنت، هش أيتها الشيطانة - كان يصرخ باليدية على فرسه البيضاء -اهدئي وإلا سأرفسك على بطنك!

سحب الأعنة حتى أدمى فم الفرس. ولكنها كانت عصبية. فالأحصنة لها مزاجها الخاص أيضاً.

وصلنا إلى العمارة حيث الميت. وقد كلف إبعاد عربات الباعة المتجولين الكثير من الشتائم. كان هناك حشد من الناس المتجمهرين. فالمآتم والأعراس، وإصلاح المجارير، وحوادث المرور، والحرائق، والجرائم العاطفية هي دائما كالطعم الذي يجذب الفضوليين.

أنزل التابوت أربعة رجال شاحبين لهم لحى سوداء. ووراءهم خرجت الزوجة والأولاد بملابس الحداد وهم ينتحبون بخنوع. إنهم فقراء لدرجة أنهم لا يملكون الشجاعة للبكاء بجرأة.

ولكن بعض الجارات تمكن من فعل ذلك. كان هذا مصدر متعة لهن، فأقمن مناحة بصرخات مرعبة تخترق جسد سامعها حتى النخاع.

كانت نساء الإيست سايد يتمتعن بصوت نحيب لاذع وغريب جداً. كُنَّ ينشدن فضائل الميت الذي راح ضحية عبودية المصانع، ويندبن مصيبة عائلته. كُنَّ يبالغن بانغماسهن بالأسى، هذا يطفئ من لهيب قلوبهن، ولكنه جحيم للحاضرين.

٣

بعد أن عبرنا جسر بروكلين، بدت نيويورك منتصرة من

الأعلى. النهر كان ممتلئاً بالزوراق. وناطحات السحاب تقطع السماء كمنشار. الدخان المنطلق من المصانع يلطخ زرقة الهواء الساطع. نفير أبواق السيارات يتعالى. وبروكلين تبدو مستلقية ببلادة في الأفق.

- مجنون من يعيش في بروكلين - قال ناثان مشيراً بالسوط بذلك الاتجاه -يا إلهي، إنها تبدو ميتة كمقبرة، لا شيء يثير الانتباه. أنظر إلى هناك يا مايكي، تلك هي «نيفي يارد» حيث يحتفظون بالسفن الحربية الأميركية. البحارة ليسوا سوى مجموعة من المتشردين الأيرلنديين. لقد تشاجرت في إحدى المرات مع بحار وبضربة مني اقتلعت سنه. لقد دعاني باليهودي».

- ألست يهودياً؟ - سألته بخجل بينما عيناي الثملتان تعاينان المشاهد المتتالية التي مررنا بها.

- إنني يهودي طبعاً - أجاب ناثان بصوته الأجش -وأنا فخور بكوني يهودياً. ولكني لن أسمح لمتشرد أيرلندي أن ينعتني بأسماء، أو أن يناديني باليهودي.

- لماذا؟ - سألت. فقد كان تفكيري منطقياً عندما كنت في السابعة من عمري.

- لماذا؟ - قلدني ناثان بسخرية - لماذا؟ يخبر أحدنا بشيء فيُسأل لماذا؟ الأولاد يسببون لي الصداع -بصق ناثان بقرف وسقط رذاذ لعابه ثلث ميل ليصل إلى النهر.

٤

أنزلوا التابوت إلى الحفرة. وأنشد الحاخام العجوز الذي يضع

قبعة المراسم أغنية طويلة رنانة بالعبرية، بينما كانت إحدى النسوة تصرخ باكية، إنها زوجة الميت. حاولت أن تلقي بنفسها في الحفرة، ولكن صديقاتها الباكيات أمسكن بها.

أشجار المقبرة كانت تهتز بغموض، وشمس المقبرة كانت غامضة أيضاً. وبينما حفارو القبور يلقون بالتراب في الحفرة، شعرت بالوحدة والحيرة وأردت البكاء كالآخرين، لكني خجلت من أن يراني ناثان.

عندما انتهت مراسم الدفن، ذهبنا جميعاً إلى المطعم القائم عند مدخل المقبرة وأكلنا جبناً، ونوعاً من الكريمة ذات المذاق المر، وخبزاً أسود، إنه الطعام التقليدي لمآتم اليهود. الأرملة أكلت معنا أيضاً. ناثان قدم لي نصف حصته. ثم انطلقنا عائدين إلى البيت عابرين جسر بروكلين.

أحسست بسعادة كبيرة عندما شعرت أن الإيست سايد يبتلع عربتنا من جديد. وفي شارعنا الصاخب نسيت الوحدة الغامضة التي سببها لي المأتم. وعند مدخل عمارتنا كانت تجلس على الدرج أختي إستر وصديقتها «لِيا»، شقيقة نيجر الصغرى. وعلى ضوء غروب الشمس الذهبي الأرجواني، كانتا تقرءان كتاب حكايات خرافية وتأكلان الخبز والزبد، ويبدو عليهما الاطمئنان والسعادة ولكني أردت إثارة غيظهما فصرخت قائلاً: «لقد أخذني ناثان معه إلى مأتم آخر، وقد رأيتهم يدفنون رجلاً آخر.»

الفتاتان قتلهما الحسد عندما سمعتا هذا. فسائقو العربات لا يصطحبون الفتيات في هذه الرحلات. وأختي إستر كانت دائماً ترغب في الذهاب ولكنها لا تستطيع ذلك، فكانت تلقي عليّ اللوم

وتؤكد أنني أنا من أقول لسائقي العربات أن لا يسمحوا لها بالذهاب. فأخذت تبكي، بينما أنا أزيد من حنقها، شارحاً لها كم كانت مغامرتي رائعة. لقد كانت تحسدني على حظي الجيد.

مسكينة أنت يا شقيقتي الصغيرة! ما كنت تعلمين أنك قريباً ستمضين في رحلة المآتم تلك، وليس لتعودي وتثيريني كما أفعل أنا.

٥

في ذلك الشتاء المشؤوم الذي سقط علينا، كانت أختي إستر تقوم بالقسط الأكبر من الأعمال المنزلية. فبينما تكون والدتي في المطعم، تقوم هي بشراء الحاجيات وطهي الطعام، ومسح الأرض، والاعتناء بشقيقنا الأصغر. كانت كذلك ترعى والدي، أذكر أنها في إحدى المرات كانت إلى جانب سريره، وقالت له وهي تداعب رأسه كامرأة حنونة وجميلة: «بابا، إني حزينة جداً لأنك مريض. أتمنى أن لا يبقى هناك أي مريض على وجه الأرض. ولكنك ستشفى قريباً، فلا تقلق يا بابا!»

والدي ضمها بين ذراعيه وقبل عينيها وفمها ويديها وقال لها جميع الكلمات اليهودية العذبة: إنها قمره، كنزه، والدته الصغيرة، وردته، حمامته الصغيرة، روح روحه.

كان هناك وفرة في نشاط ذاك الجسد الضئيل ذي الساقين النحيفتين المرتجفتين كقائمتي عصفور. ووفرة في رقة عينيها الناعستين. لم يجبر أحد إستر على القيام بأعمال المنزل، لقد فهمت بنفسها أنه من الضروري القيام بهذه الأعمال، وقد فعلت

ذلك بسعادة. كانت تريد مساعدة والدتي. كانت تريد مساعدة الجميع. لقد كانت طيبة القلب منذ طفولتها.

وقد كانت إستر حالمة كبيرة أيضاً، فهي تقرأ كافة قصص الجنيات التي تقع بين يديها، وتؤمن بها. وتخترع دائماً ألعاباً جديدة وشخصيات أسطورية. وعندما تنتهي من قراءة كتاب كانت تعيده بتفاصيله أمام والدي الذي يفتن بسماعه أية قصة.

إنني أكبرها بسنة واحدة، ولكنني كنت أشعر بأني رجل أمام إستر. وعندما كنت أروي لها الأشياء التي أعرفها عن شارعنا، كانت تأخذ بالبكاء وتقول أنني أكذب عليها. لقد كنت أحتقر ضعفها.

لماذا كنت أتشاجر دائماً مع أختي؟ لماذا كنت أرفض القيام بنصيبي من الأعمال المنزلية وأجبرها على القيام بها وحدها؟

أذكر في إحدى الليالي، بعد عودتي من بيع الصحف، أن أبي طلب مني أن أخرج بحثاً عن بعض الحطب للمدفأة. لم تكن لدي رغبة في الخروج، فقلت إن على إستر القيام بهذا العمل. كانت إستر منشغلة بأعمال أخرى، فبدأت أصرخ عليها متبرماً. وأمام عنادي هزت إستر كتفيها وخرجت بحثاً عن الحطب.

لقد كنت أفوز دائماً بهذه الانتصارات السخيفة.

٦

في إحدى المرات كانت شقيقتي تجلس على درجات المنزل وهي تقرأ كتاباً بعنوان «حكايات الجنية الزرقاء» لقد كان هذا الكتاب كنزها الثمين. وكانت طبعته رائعة، فهي مزينة برسوم ملونة. وقد

أهداها إياه هاري. واستنسخت إستر بقلمها الرصاص معظم تلك الرسوم، وحفظت عن ظهر قلب حكايات الكتاب كلها. ولكنها كانت تحب إعادة قراءته، وهي تحرك شفتيها حالمة وكأنها تغني بينها وبين نفسها. إنها الآن تقرأ على الدرجات، بينما شمس نيويورك تلتهب بمجد حمرة الأرجوان والعنبر والورد فوق العمارات.

لقد كانت إستر مستغرقة في عالمها الخاص. الشارع يضج من حولها، يمر فيه بوقار يهودٌ مسنون يغطي رؤوسهم الشيب، ونساء سمينات سليطات اللسان، وقوادون، وعربات، وشاحنات صاخبة، وثمة كلب مبرقع يُدخل قائمتيه الأماميتين في صفيحة قمامة، ثلاثة زعران يقفون قريباً وهم يتجادلون ويبصقون التبغ، والحانات تغص بالرواد، والمومسات مشغولاتٍ كذلك. إنه استعراض لكل حقارات وابتذال الأحياء الفقيرة. ولكن إستر كانت غائبة عن ذلك كله ومستغرقة في قراءة كتابها. نور الشفق يسقط على الصفحات البيضاء ويضيء وجهها.

عندما اقتربتُ منها رفعت بصرها. مازلت أرى في مخيلتي وجهها الصغير الباسم وفمها المتقد وعينيها الواسعتين. نظرت إليّ ولكنها لم ترني. لقد كانت تائهة في عالم الجنيات والعمالقة، حيث الأطفال يتحدثون بتآلف مع الأوز والأسود، ويبحثون عن قلاع مسحورة وراء جبال من زجاج.

ولأنني كنت شيطاناً محترفاً، أخرجتها بفظاظة من عالمها السحري الجميل. فقد انتزعتُ الكتاب من بين يديها وانطلقت أعدو به ساخراً منها بصوت مرتفع. كنت أريد تعذيبها. أريد أن أجعلها تبكي.

سامحيني الآن يا إستر.

وفي مرة أخرى ضربتها حتى صار الدم ينزف من أنفها لأنها لحقتني إلى المخبأ «الشباب المنتقمين» السري، وقد شعرتُ بالعار أمام رفاقي، لأنها قالت لي أن أمي تريدني في البيت.

وفي مناسبة أخرى تمكنت من الاستيلاء على الفاكهة والسكاكر التي أحضرها لنا الدكتور سولو، وأكلت حصتها وحصتي. لقد بكت إستر بسبب أنانيتي وشراهتي. هي لم تكن شرهة.

٧

ذلك الشتاء المحزن أكثر من أي شتاء آخر كان يتقدم ببطء. والدي يمضي في البيت كمجنون وهو يدخن باستمرار، ووالدتي مازالت في عملها في المطعم، وأنا أبيع الصحف بعد انتهاء دوامي في المدرسة. أما إستر الصغيرة فكانت تقوم بأعمال المنزل. خالتي تركت بيتنا. والدكتور سولو أصبح مشغولاً، ولم يعد يتردد كثيراً لشرب الشاي معنا في الليل.

لم يتغير شيء، ولم يحدث أي شيء.

إلى أن أتت إحدى أمسيات الشتاء.

٨

الدنيا كئيبة. فالثلج يغطي المدينة والشوارع والبيوت.

بدا كما لو أن ليلة جليدية قد قوضت ذلك النهار. كان مستغرباً رؤية ذلك العدد من المصابيح المضيئة في منتصف النهار. وفي المدرسة لم يطفئوا الأنوار. وفي الشوارع والمتاجر وناطحات

السحاب كانت الأنوار مضاءة. وفي بويري، بينما خرجت لأبيع الصحف، رأيت الحانات تتلألأ بمصابيح الغاز والمصابيح الكهربائية.

لم يتوقف الثلج عن الهطول في تلك الظلمة الغريبة. كان الخروج إلى الشارع مخيفاً، حيث لا يمكن رؤية أي شيء ماعدا أشباح خيول ورجال يناطحون الثلج برؤوسهم المنحنية إلى أسفل.

وفي حوالي الساعة الخامسة شعرتُ بالاجهاد، فقررت العودة إلى البيت. لم أكن قد بعت أكثر من نصف الصحف التي بحوزتي، لكنني كنت متجمداً من البرد، وفقدت القدرة على الرؤية في ذلك الجو.

عندما عدت إلى البيت وجدت والدتي هناك، فالمطعم قد أغلق أبوابه باكراً. والدتي كانت منهكة من التعب بعد أن قطعت كيلومتراً سيراً على الأقدام حتى البيت.

كانت قد خلعت حذائها المبتل، وأخذت تجفف جواربها على المدفأة.

- أين إستر؟ - سألتني أمي عند دخولي.

قلت: -لا أعرف. لم أرها طيلة اليوم.

فسألتْ أبي بصوت عال.

- أين إستر يا هيرمان؟

- لقد خرجت لتبحث عن حطب للمدفأة - ردّ عليها أبي من غرفة النوم.

هزت والدتي رأسها بأسى وقالت:

- مسكينة، الجو في الخارج كالشيطان.

الحساء كان يغلي في وعاء على الموقد، لقد وضعته إستر، وإلى جانب الحساء هناك قدر طعام وإبريق الشاي. والمائدة معدة للعشاء، والغرف نظيفة، لقد أنهت إستر الأعمال المنزلية كلها قبل أن تخرج لتبحث عن الحطب.

قالت أمي:

- يا للفتاة المسكينة، إن سترتها رقيقة جداً. أشعر بالحزن لخروجها.

خلعت حذائي، وعلقت جوربي ليجف. ثم أحصيت النقود، لقد كسبت تسعة عشر سنتاً فقط في ذلك اليوم المشؤوم. جلست لأقرأ إحدى الحكايات قبل تناول العشاء. أما واجباتي المدرسية فسأقوم بها بعد ذلك. والدتي دخلت إلى غرفة النوم لترى أخي الصغير ولتتحدث مع أبي.

أما أنا، وقد غرقت مع كتابي، نسيت كل ما حولي. كنت أقرأ قصة ريتشارد قلب الأسد. ولكن أمي أتت لتقطع عليّ قراءة القصة الرائعة. لقد انحنت فوق كتفي وسألتني بعصبية: «أين هي إستر؟ ألم تأت بعد؟»

- لا يا ماما.

- أوف. لقد بدأت أشعر بالخوف عليها. إن الطقس سيء في الخارج. أظن أنه علي الذهاب لأبحث عنها، فربما هي بحاجة للمساعدة في حمل الحطب. يا لحمامتي المسكينة.

بدأت والدتي بلبس جوربيها. ثم وضعت قدميها في الحذاء وقامت بجولة على المطبخ قبل أن تلف نفسها بالشال. كانت تحمل

الشال بيدها عندما سمعت ثلاث ضربات قوية على الباب. ضربات قوية جعلتنا، أنا ووالدي نرتعد.

- أدخل! - قالت والدتي وقد ثبتت في مكانها والشال يغطيها.

فُتح الباب بعنف. لقد ذهلنا عندما رأينا في الممر حشد من الناس لا نعرفهم، كانوا يبدون من خلال ضوء الغاز مثل الكائنات الخيالية، بوجوههم البيضاء وعيونهم المحدقة، معاطفهم وقبعاتهم كانت مغطاة بالثلج. رجل طويل ومربوع، له شارب أسود، كان يجهش بالبكاء. الآخرون جامدون بلا حراك وكأنهم أشباح.

رفعت والدتي يدها ممسكة بقلبها، وقالت متسائلة: «أجيبوا بسرعة، ما الذي حدث؟»

امرأة من المجموعة أطلقت صرخة مرعبة، الآخرون تململوا قليلاً ولكنهم استمروا صامتين. رجل قصير بدين يضع نظارة تقدم خطوة إلى الأمام ودمدم: «لا تقلقي يا سيدتي، فالطبيب سيأتي حالاً.»

- أي طبيب؟ ما الذي حدث؟ أجيبوني - قالت أمي متوسلة.

ولكن الجماعة البشرية المغطاة بالثلج كانت تنظر إليها ولا تتمكن من الكلام، وكأن شفاههم قد أخيطت. تماماً كما يحدث في الكوابيس. كانوا ينظرون إلينا ببلاهة. بعد ذلك ابتعدوا ليفسحوا الطريق لرجل شاحب، يلبس مئزر بائع. كان يتعرق ورموش عينيه تتحرك بعصبية. وعلى ذراعيه كان يحمل جسد طفلة غارقة بالدم. وكانت بقع الدم تغطي يدي الرجل ورداءه أيضاً.

- إستر! إستر! - تأوهت والدتي.

بدأت تلك الأشباح البشرية كلها بالبكاء. أدار بعضهم وجهه وغطى آخرون عيونهم بأيديهم. مدد صاحب الدكان إستر فوق المائدة، فسقط رأسها إلى الوراء. كانت عيناها مطبقتين، ووجهها مهشماً ومغطى بكامله بالدم.

ندبت والدتي قائلة: «يا حبيبتي، يا زهرتي. ماذا فعلوا بك؟» وأرادت أن تلقي بنفسها فوق إستر، ولكن امرأة مسنة أمسكت بها برفق من كتفيها.

بللت والدتي منشفة بالماء، ونظفت الدم الذي يغطي وجه ابنتها. كانت في الوجه شقوق عميقة، وكأنها جروح صنعتها سكين جزار حادة. انحنت والدتي عليها وغمرتها بالقبلات.

خرج والدي من غرفة النوم وهو يئن كحيوان، ثم سقط على ركبتيه وأخذ يفرك يدي إستر الباردتين.

والدتي صارت تمشي كمجنونة بعد الصدمة، تلوي أصابعها وتقول: «كيف حدث هذا؟ كيف حدث هذا؟»

وارتفع أنين أصوات مختنقة بالبكاء ليخبرها: كانت إستر تسحب حزمة من الحطب. وكان الضباب كثيفاً يحجب الرؤية، وبينما هي تقطع الشارع إلى جانب زاوية بيتنا صدمتها عربة شاحنة تابعة لشركة آدمز إكسبريس فسقطت بين الخيول، ومرت العجلات الثقيلة فوق جسدها.

- ابنتي، يا كنزي! - أجهشت والدتي.

بينما كان والدي يقول لها وهو جاث على ركبتيه: «إستر تكلمي! افتحي عينيكِ وانظري إلى بابا! انظري معي سكاكر لك يا إستر، وكتاب جديد مزين بلوحات!»

- أين الطبيب؟ - صرخت أمي بجنون.

فدمدمت امرأة من الحشد:

- سيحضر الآن. لقد اتصلنا به بالهاتف.

ظهر سائق الشاحنة. وهو شاب ألماني-أميركي، اشقر، ضخم، يرتدي معطفاً سميكاً مشبوكاً بدبوس عند رقبته. خلع قبعته الجلدية، فسقط الثلج الذي يغطيها على الأرض. تلفت حوله ناظراً بعينين مرتبكتين. وجهه العريض الذي جعله البرد أحمراً تقلص بشكل مضحك وصار كوجه طفل يوشك على البكاء. قال:

- أقسم أنني لم أستطع رؤيتها في الضباب والثلج. وعندما تنبهت كانت قد صارت تحت العجلات.

قفز والدي على قدميه وأمسك بخناق السائق البائس صارخاً «أيها القاتل!»

لم يحاول السائق الدفاع عن نفسه بل انفجر في البكاء:

- أقسم لكم! أنا أيضاً أب لطفلين يا سيدي. ولكني لم أتمكن من رؤيتها في كل هذا الثلج. لينقذني المسيح!

الناس المحتشدون أبعدوا أبي عن السائق فالجميع يعرفون أن الرجل المسكين ليس مذنباً. بعضهم مازال يغسل وجه إستر، وهم يحاولون أن يكلموها، ولكنها لا ترد. دخل إلى الحجرة طفل خائف ومعه حزمة الحطب التي جمعتها إستر. صار جو الغرفة خانقاً. الجميع كانوا يتهامسون ويتأوهون، بينما مصباح الغاز يترنح ووالدتي تبكي وتضرب صدرها وتنوح: «طفلتي، طفلتي!».

ظل والدي جالساً إلى جانب إستر مستغرقاً وبلا حراك.

بعد ذلك ظهر طبيب شاب يلبس سروالاً أبيض، فحمل إستر

في سيارة الإسعاف إلى المستشفى. وهناك ماتت في الليلة نفسها دون أن تفوه بكلمة.

٩

بقيت إستر ممددة طوال الليلة في تابوتها فوق المنضدة في «الغرفة الأمامية.» ظل بعض المسنين الذين استأجرناهم من الكنيس يقرؤون حتى الصباح تراتيل عبرية على ضوء الشموع. كنت أستيقظ في منتصف الليل وأرى ظلالهم الضخمة متأرجحة على الجدران، وأسمع دمدمات أصواتهم وأنين أمي وأبي. لقد كانت الحياة ترعبني بخفاياها ورهبتها.

أختي الصغيرة ماتت. إن طفلاً لا يدرك ما تعنيه هذه الكلمة، ولكنه يفهم الوقار والرهبة اللذين يبدوان على الأشخاص الكبار المحيطين به. فأنا لم أر والدتي من قبل بمثل هذا الذهول الذي يبدو عليها الآن.

عندما دفنوا شقيقتي الصغيرة، أرادت والدتي أن تلقي بنفسها في الحفرة. ولكن والدي أوقفها. الجميع كانوا يبكون عندما رتل الرابي صلاة المآتم الطويلة من أجل الميتة، وأنا أيضاً بكيت، لأنني بدأت أفهم لماذا يبكي الناس خلال الجنازات، بالرغم من أنهم يأكلون خبزاً أسوداً وجبناً في مطعم المقبرة.

أبي وأمي أقاما - بحسب طقوس الشريعة - أيام الحداد الستة، فكانوا يجلسون على الأرض دون أحذية، ويقرؤون بالعبرية وهم يترنحون من جانب إلى آخر، بينما الجيران يدخلون ويخرجون ليعدّوا لنا الطعام وليعتنوا بشؤوننا.

إن للسعادة وللألم شكلاً اجتماعياً في العمارات. فالجيران يدخلون واحداً بعد الآخر، ويواسوننا خلال أيام «الشيفا». ففي غرف بيتنا كانت تُشاهد مجموعات من المعزين، مجموعات كبيرة لا تنقطع طوال اليوم. يقدمون لوالدتي أشد عبارات المواساة حزناً. لماذا هناك تفهم كبير للمآسي في قلوب الفقراء؟

قالت السيدة ليبوف، زوجة بائع المخلل:

- أختي فقدت طفلها الصغير بالطريقة نفسها، يا للمسكين، لقد كان طفلاً جميلاً، لو أنه مازال حياً لكان عمره الآن سبع سنوات، ولكن كان مقدراً له أن تقتله عربة الترام. ماذا نستطيع أن نفعل؟ إن هذا يحدث كل يوم.

فترد والدتي مدمدمة: «أجل.»

البوابة، ذات الوجه الطيب، الذي تملأه القذارة والدموع قالت بمرارة:

- أنا أعرف عائلة غاليسية تعيش في شارع كولومبيا ستريت. وقد فقدت هذه السنة طفلة في مثل عمر إستر. لقد رأتها أمها وهي تموت، فقد كانت الأم تطل من النافذة تنظر إلى ابنتها وهي تلعب في الشارع. وفجأة، أتت شاحنة وصدمت الطفلة. وفي صدمة اليأس نتفت الوالدة شعر رأسها بيديها. إن هذه الحوادث عار على أميركا! في روسيا لم يكن بإمكاننا العيش بسبب المذابح، ولكن أطفالنا يقتلون هنا!

- أجل - قالت أمي.

زوجة الرابي صامويل الضئيلة أحنت رأسها، وبطرف ثوبها مسحت رموشها المبللة. ثم قالت بصوتها الرقيق العذب:

- ماذا يمكننا أن نفعل؟ فالأطفال يجب أن يلعبوا وليس هناك سوى الشارع.

- أجل - ردت والدتي.

كانت أمي ترد على الناس بنعم أو لا فقط. لقد صارت كمخبولة. تبدو وكأنها لا تشعر بشيء، تجلس على الأرض وتميل بجسمها من ناحية لأخرى وهي تضغط على أنفها بمنديل مبلل بالخل. لقد ماتت إستر.

١٠

في أحد أيام الشيفا حضر شخص غريب إلى بيتنا. كان رجلاً متين البنية وداكن البشرة. له وجه جلف وعينان كعيني جراد البحر، وساقان قصيرتان وملتويتان. كان يبدو كغوريلا ولكنه كان يرتدي ملابس فاخرة.

خلع معطفه، ووضعه بعناية على مسند الكرسي، وثبت جيداً مشبك ربطة عنقه، ثم ضغط على يدي والدي ووالدتي قائلاً:

- أقدم لكم أحر التعازي بسبب الحادث.

قالها بعاطفة مزيفة تماماً كما يتحدث صانع التوابيت. ثم أضاف قائلاً:

- إن فقدان طفل هو أمر رهيب، وخاصة بالنسبة للأم. أنا أيضاً أب وأستطيع أن أفهم شعوركم.

أدخل يده في أحد جيوبه، وبعد أن بحث قليلاً، مد إلى والدي بطاقة صغيرة، وأخرى إلى والدتي. كلاهما نظرا إلى البطاقة

دون أن يفهما شيئاً. يبدو أن الرجل كان يحاول إغراءهما. فقال متمماً حديثه:

- كما ترون في البطاقة، أنا المستر جوناس شليسيل، المحامي المعروف. وأنا كذلك صديق مقرب للسيد باروتش غولفارب، وقد أخبرني أن حضرتك صديق قديم له. إنه رجل عظيم، أليس كذلك؟ إنه رجل عظيم! والآن أيها الأصدقاء، سأقول لكم من دون إطالة، إنني بعد أن درست الحادث باهتمام توصلت بالنتيجة إلى أنه بإمكانكم أن تحصلوا على تعويض لا بأس به من شركة آدمز إكسبريس. ألف دولار على الأقل أنا سعيد إذ أتقدم لخدمتكم لأنكم من أصدقاء المستر غولفارب. ليس عليكم أن تدفعوا لي أي مبلغ مقدماً، وإنما يكون الدفع فقط بعد كسب الدعوى. وكل ما عليكم أن تفعلوه الآن هو أن توقعوا على هذه الورقة. فلتضعوا الآن توقيعكم، وأنا سأبدأ فوراً باتخاذ الإجراءات اللازمة. وبالتأكيد ستحصلون على ألف دولار أيها الأصدقاء.

مد الرجل ورقة رسمية أمام والدي المصعوق. فتناولها أبي، وكذلك تناول القلم الذي قدمه له المحامي وبدا متأهباً للتوقيع بطريقة آلية.

ولكن والدتي انفجرت بالبكاء، وصرخت بالمحامي:

- أخرج من هنا! لا أريد أن أراك في بيتي!

المستر شليسيل نظر إليها مذهولاً، وقال وهو يمد يده متسائلاً:

- ما المشكلة؟

فصرخت أمي وهي تنتحب:

- لا أريد نقودك، إنها ثمن الدم!

غضب المحامي كثيراً وتمتم مكرراً «ثمن الدم؟ كيف ذلك؟ كيف تكون ثمن الدم؟ إن هذا المال هو تعويض عن الحادث. إنني أعالج مئات القضايا المشابهة كل عام.»

حاول أن يناقش والدتي، ولكنها أصيبت بنوبة هستيرية وبدأت توجه إليه الإهانات. عند ذلك غضب الرجل، فحمل معطفه وفتح الباب، وقبل أن يمضي قال بترفع:

- أنا لا أناقش جهلة أبداً.

ظل أبي جالساً فريسة للذهول نفسه الذي استولى عليه عندما دخل الرجل الغريب. ولكنه قال بتردد:

- لست أدري يا كاتي، ربما كان علينا أن نقبل هذه النقود. إن الله يعلم أننا بحاجة إليها، فبهذه النقود أستطيع أن أعيد افتتاح مشغلي. طفلتُنا قد مضت، ولن يؤثر شيء على حمامتنا المسكينة إذا فعلنا هذا الأمر أو ذاك. فلماذا...

- اصمت! هذا هو إحساسي! - قالت أمي.

كان والدي مذهولاً ومصدوماً، فلم يتمكن من إجابتها. وكان يعرف من حوادث حصلت في مرات سابقة أن أمي مستعدة من أجل «إحساسها» أن تصل إلى قمة المعاناة. وكانت هذه بكل تأكيد حادثة أخرى جديدة. فقد ماتت إستر.

الفصل الحادي والعشرون

موز

١

لقد ماتت إستر. لقد عانت أمي وتحملت كل شيء، ولكنها لم تستطع أن تتحمل هذا الأمر. صار مظهرها ساكناً يبعث على الفزع. لم تعد نشيطة، ولا مرحة، ولا معاندة. إنها تقضي النهار جالسة إلى جانب نافذتها تقرأ في كتاب الصلوات. وبينما هي تهمس الصلوات العبرية التي لا نهاية لها، كانت الدموع تنحدر بصمت فوق خديها. لم تعد تتكلم، ولكننا كنا نعرف لماذا تبكي. فقد ماتت إستر.

ظلت غارقة في هذا الخبل شهوراً، تنسى أن تطبخ وأن تنظف البيت. فصار علينا، والدي وأنا، أن نقوم بكل الأعمال. كانت تخشى أن يكون مصيري تحت إحدى الشاحنات أيضاً، فلم تعد تسمح لي بالخروج لبيع الصحف. كانت تأكلنا بالقبلات، لأخي الصغير ولي، وتبقينا إلى جانبها ساعات وساعات. وتمضي أمسيات بكاملها إلى جانب النافذة تتأمل بحزن. والدي كان يراقبها بتململ. وأحياناً يسألها متوسلاً:

- كاتي، ماذا حدث لك؟ بماذا تفكرين يا كاتي؟

فتجيب بأسى «لا شيء، إني أتأمل الأولاد الذين يلعبون في الشارع.»

- يجب ألا تفعلي هذا، فهم يذكرونك بإستر. ستمرضين يا كاتي.

- فليأت المرض، فكلما أسرعت بالذهاب عن هذه الدنيا يكون أفضل. تحب إحدانا طفلها سنوات وسنوات، بعد ذلك تأتي شاحنة وتقتله.

فيهز أبي رأسه بحزن. ماذا يستطيع أن يفعل لمواساتها. فقد ماتت إستر، الكلمات بلا فائدة. منذ عشرين عاماً ماتت إستر، ولكن والدتي التي لا يمكن مواساتها تذهب إلى المقبرة مرة كل شهر، لتضع الأزهار على قبر إستر. مازالت تبكي ابنتها وكأنها ماتت بالأمس. لن تنساها أمي أبداً.

٢

حالة والدتي أجبرت أبي على ترك فراش المرض والخروج للبحث عن عمل. ولكنه لم يجد شيئاً، يسأل هنا وهناك بلهجة مرتجفة. إنه لا يصلح للعمل، فهو مريض ولا يجيد التحدث بالإنكليزية ولا يعرف عملاً سوى مهنة الدهان. وخوفه المذهل من الوقوف على السقالة يغلق عليه هذا المخرج، لم يكن سهلاً إيجاد عمل، فيمضي متسكعاً في الشوارع تغمره الكآبة.

من الصعب أن أروي كيف أمضينا السنوات التالية.

بين كل عشرة أميركيين هناك واحد فقير يطلب المساعدة من

الجمعيات الخيرية. وهناك واحد آخر يعتز بنفسه ولا يتنازل بقبول هذا النوع من التسول. ونحن كنا من هؤلاء.

لا أستطيع أن أتذكر كيف رتبنا أمورنا لنستمر في الحياة. هل يذكر الناجي من الغرق كل ما يحدث له منذ أن تغرق الباخرة إلى أن يسحبونه إلى الشاطئ؟ كل ما أذكره أننا كنا نواصل العيش.

الجيران ساعدونا. كانوا يحضرون لنا شيئاً من عشائهم، وصرراً من السكر، والقهوة، والفاصولياء، والدقيق. جاك وولف، صاحب الحانة، دفع لنا الإيجار عدة شهور دون أن يقول شيئاً. هناك آخرون أيضاً كانوا طيبين معنا، في إحدى المرات وضعت روزي المومس في يدي ورقة مجعدة من فئة الخمسة دولارات وقالت لي:

- أعط هذه لأمك. قل لها إنك وجدتها في الشارع.

حاولتْ أن أقنع أمي بهذه الخدعة، ولكنني لم أستطع مقاومة استجوابها. تنهدت والدتي وقالت:

- انقل لروزي شكري الجزيل، وقل لها إننا سنردها إليها في يوم من الأيام. ولكن لا تقل كلمة واحدة لوالدك، إنه معتز بنفسه جداً.

«بيغ تيم سوليفان» أحد الذين يتولون زمام الأمور في تاماني هول، أرسل لنا في يوم عيد الشكر «ثانكسغيفينغ» سلة طافحة بالجوز، والسكاكر، والتوت، وديكاً رومياً كبيراً.

تساءلت والدتي:

- أي نوع من الأعياد هذا الثانكسغيفينغ؟

فقلت لها، وكنت أمثل المثقف في العائلة، إنه يوم قدم التائهون فيه الشكر للرب من أجل أميركا.

- إنه عيد للأميركيين إذاً، وليس لليهود.

الديك الرومي كان رائعاً، ولكنه كان من مصدر وثني للأسف، ولذا فهو ليس «كوشير» ومحرم علينا. نظرنا إليه بلهفة. ولكن والدي باع الديك لزبون أيرلندي في حانة جاك.

٣

«يجب أن أفعل شيئاً، يجب أن أجد عملاً، إننا نموت جوعاً.» هكذا كان والدي يئن وهو يضرب صدره بقبضتيه من اليأس.

الجيران حاولوا مساعدتنا، ولكنهم كانوا فقراء أيضاً. أرسل «فاعل خير» بالسر رسالة إلى الجمعية الخيرية يشرح لهم وضعنا.

وفي أحد الأيام حضر إلى بيتنا رجل لا نعرفه، كان شاباً مسيحياً نحيفاً، أسمر وسريع الحركة. يضع حول رقبته ربطة عنق من آخر موضة. أسند مظلته إلى الحائط وقلَّب رزمة من الأوراق. كان مصاباً بزكام حاد، ولا يفتأ يعطس محدثاً ضجة كبيرة.

- هل يعيش هيرمان غولد هنا؟ - سأل وهو ينشق مخاطه.

- أجل أيها السيد. - أجابت أمي.

كانت مؤدبة جداً، فقد رأت فيه بلا شك واحداً من أولئك الشبان الذين تبعث بهم الإدارة الصحية أو المدرسة العامة أو البعثات التبشيرية المسيحية، وهؤلاء يسألون كثيراً من الأسئلة، ويجب الإجابة عليها كلها أو الذهاب إلى السجن.

قال الشاب:

- أنا من التجمع الخيري. أحدهم كتب إلينا عن حالتكم ونحن سنساعدكم إذا أجبتم على بعض الأسئلة. كم ابناً لديكم؟

- اثنان. - قالت أمي.

- أعمارهم؟

- أحدهم ست سنوات والآخر عشر.

- الزوج، هل هو مريض؟

- أجل أيها السيد.

- ألديكم طبيب خاص أم تذهبون إلى العيادة المجانية؟

- طبيب خاص.

- من أين تأتين بالنقود لتدفعي أتعابه؟

- نحن، نحن. . . - بدأت أمي تدمدم متلعثمة.

كان الشاب الباحث يسجل ملاحظات سريعة على قصاصة ورق. وبينما هو يتكلم، كان يجول بعينيه في أنحاء الغرفة وكأنه يقيم جميع الأواني والحلل، ومماسح المطبخ، وقطع الموبيليا الموجودة في بيتنا.

- زوجك إذاً بلا عمل؟ - قال الشاب مقاطعاً والدتي خلال شرحها المطول عن علاقتنا بالدكتور سولو. ثم انطلق موجهاً سيلاً من الأسئلة لوالدتي:

- هل يعاملك زوجك معاملة حسنة؟ ما هو الراتب الذي يكسبه عادة عندما يعمل؟ هل يدخن؟ هل حاول البحث عن عمل مؤخراً؟ ألم يضربك أبداً؟ كم كان يعطيك من مرتبه عندما كان يعمل؟ كم تدفعون إيجاراً للبيت؟ كم تنفقين على الطعام أسبوعياً؟

والدتي المرتبكة بسبب هذا النياجارا من الأسئلة شعرت أنها أهينت بحضور هذا المتطفل الذي يسألها أسئلة شخصية بلهجة

فوقية. ولكنه كان موظفاً، ويجب الإجابة على أسئلته. وبينما هي تتهيأ لترد على الأسئلة ظهر والدي.

كان قد استلقى لينام، فخرج نصف عار. ووجهه الشاحب يرتجف من الغضب. نظر إلى الشاب الأشقر الكثير الأسئلة وصرخ به:

- أخرج من هذا البيت يا مستر! ليس لك شغل هنا. في الحقيقة إننا فقراء، ولكن هذا لا يعطيك الحق بإهانتنا.

- أنا لا أهينكم، إنني أسأل هذه الأسئلة في أكثر من خمسين بيتاً في اليوم. إنه مجرد نموذج يجب تعبئته.

زمجر والدي بصوت مرتفع:

- إنني أحتقر هذه النماذج. لسنا بحاجة إلى الصدقات، بإمكاننا العيش بدونها يا مستر.

- حسناً، سأكتب تقريراً بما قلته لي. - أجاب الشاب وهو يلتقط أوراقه ومعطفه ومظلته ويتجه إلى الباب بأسرع ما يمكن.

توقف لحظة ليشخبر بعض الملاحظات الجديدة. بعد ذلك عطس للمرة الأخيرة وانطلق مسرعاً في الممر، وخرج. أما الأشياء التي سجلها في دفتره فلم نعرفها قطّ، ولكننا تحررنا من عار زيارة جديدة يقوم بها التجمع الخيري. جميع من في الإيست سايد يكرهون ويرهبون هذه الآلية القاسية التي لا تساعد أحداً إلا بعد تحقيره بشكل منهجي، وتجريده من كل حقوقه الإنسانية. الجيران كانوا أفضل. تاماني هول كانت أفضل. الموت جوعاً كان أفضل. هناك آلاف العائلات كعائلتنا يفضلون الموت على أن يكونوا فريسة سهلة «البوليس» الجمعيات الخيرية العديم الشعور.

٤

الجيران يتحدثون عنا وهم قلقون. فكل منهم يعرف العشاء الذي سيتناوله البيت المجاور، وكل منهم يعرف أيضاً الأحزان التي تجيش في قلوب الجيران الآخرين.

في إحدى الليالي حضر أحد الجيران. قبَّل «الميزورا» الموجودة على الباب، ونظف حذاءه بقطعة الخيش ودخل بخجل إلى مطبخنا كمتطفل.

- مساء الخير يا مستر ليبزاين، تفضل بالجلوس. - قالت أمي لدى رؤيته.

- مساء الخير. - دمدم وهو يجلس، ثم تابع قائلاً:

- لقد كانت تمطر اليوم، فلم أتمكن من بيع الكثير من الموز، فأحضرت لكم بعضاً منه. أعتقد أن الأولاد سيحبون الموز.

مدَّ لوالدتي عنقوداً من الموز، فتناولته قائلة:

- شكراً يا مستر ليبزاين.

البائع المتجول صاحب الكرش داعب لحيته بخجل. لقد حضر لغرض معين، ولكنه كان مرتبكاً لدرجة أنه لم يستطع الكلام. وجهه الأحمر المنتفخ الذي يشع بساطة والذي لفحته أشعة الشمس والريح كان يتصبب عرقاً. حكَّ رأسه ونظر إلينا بصمت مؤلم. مرت عدة دقائق قبل أن تسأله أمي:

- كيف صحتك يا مستر ليبزاين؟

- إنني رجل قوي والحمد لله. ولكنه الروماتيزم مرة أخرى.

- أجاب الرجل بخجل.

- وكيف حال مولودكم الجديد يا مستر ليبزاين؟

- الحمد لله، إنه قوي كالنمر.

وعاد ليغرق في صمته مجدداً. ثم أخذ ينقر بأصابعه على ركبتيه بعصبية، ويقوس كتفيه. كان معروفاً في العمارة بأنه رجل صامت. ففي السنوات العشر التي عشناها هناك، كانت هذه هي المرة الأولى التي يزورنا فيها.

تململ والدي مرتبكاً، وحاول أن يقول شيئاً ليخرجنا من ذلك الصمت الذي خيم. ولكن عقدة لسان المستر ليبزاين حُلَّتْ عندئذ، وقال متلعثماً:

- أرجو معذرتكم، ولكن زوجتي أصرت أن أحضر لزيارتكم. إنها تفكر فيكم كثيراً. أعذروني ولكنها تقول إن حضرتك لم تعمل منذ فترة طويلة في أي عمل، وإنك لم تستطع العثور على عمل يا مستر غولد.

- أجل يا مستر ليبزاين، ولماذا إخفاء ذلك. إننا نمر بأيام سوداء - قال أبي.

فقال الرجل وهو يمسح جبهته:

- من أجل هذا طلبت مني زوجتي أن أجيء إليكم. وبما أنه لا يوجد عمل آخر، فمن الممكن كسب بعض النقود في بيع الموز. فأنا بمساعدة الله أبيع الموز منذ عدة سنوات. إنه عمل قاس، ولكنه يدر ما يكفي للعيش. أجل، بقليل من الدولارات بالإمكان شراء كمية من الموز من باعة الجملة في أنتوني ستريت، بعد ذلك وبمبلغ عشر سنتات يومياً يمكن استئجار عربة من أوركارد ستريت، ثم يقف المرء على ناصية أحد الشوارع، والناس يمرون ويشترون الموز.

- ماذا؟ - سأل والدي وهو ينظر إلى الرجل نظرة عدوانية.

عاد بائع الموز المرتعد إلى حديثه المرتبك قائلاً:

- المعذرة، يمكن كسب ما يكفي للعيش، بمساعدة من الله.

نهض والدي على قدميه وشبك ذراعيه على صدره بكبرياء، وقال متسائلاً:

- أنت تلمح إذاً يا مستر ليبزاين إلى أن أخرج أنا أيضاً لأبيع الموز.

مستر ليبزاين نهض بارتباك، وقد تعرق بغزارة، وتقدم مجانبة نحو الباب مستعداً للفرار، وقال متلعثماً:

- لا، لا قدر الله هذا. سامحوني، إن زوجتي هي التي دفعتني إلى أن أجيء. لا، لا مستر غولد! ليلة سعيدة لكم جميعاً، وليكن الله معكم!

خرج وهو يمسح العرق بمنديله، بينما والدي يلاحقه بنظراته، وذراعاه مازالا متشابكين بتحدٍ.

- يا للوقاحة! يا لهذا الجار الحشري! يأتي ليقول لي إنه علي أن أبيع الموز اللعين بعد خمسة عشر عاماً في أميركا! وكأنني مازلت غراً! أنا الذي كنت أملك مشغلاً لحمالات السراويل، وكنت رئيساً للعمال في مهنة الدهان! ما رأيك بهذه الوقاحة يا كاتي؟

- لست أدري، ولكن كسب لقمة العيش بشرف من بيع الموز ليس عملاً مخجلاً. - قالت أمي بهدوء.

- أنت متفقة معه أيضاً؟ - صرخ والدي.

- لا، ولكن مستر ليبزاين رجل طيب، حضر لمساعدتك، وأنت أهنته.

- أنت تتفقين معه إذاً؟ - قال والدي منفجراً.

مضى بسخط إلى غرفة النوم واستلقى على السرير، وأخذ يسحب أنفاساً عميقة من غليونه. تنهدت والدتي ، ثم أكلنا: هي وأخي وأنا بعضاً من الموز الذي أحضره جارنا.

٥

يا لوالدي المعتز بنفسه. لقد زمجر، وشتم، وغضب، وقام بمناقشات هائجة مع والدتي.

- أيجب عليَّ بيع الموز يا كاتي؟ إنني لا أستطيع، سأموت من الخجل!

- لا تفعل ذلك إذاً، بإمكاننا متابعة الحياة هكذا. - تجيب أمي بهدوء.

- ولكن أين سأجد عملاً؟ جميع أبواب المدينة مغلقة في وجهي، إنني رجل واقع في مصيدة! - يقول والدي بحسرة.

- ستجد عملاً ما، فالله لن ينسانا.

- سأقتل نفسي! لا أستطيع التحمل أكثر! سأدس أنبوب الغاز في أنفي! إنني أرفض أن أكون بائعاً متجولاً!

- هس، الأولاد سيسمعونك.

كنت أسمعهم يقلِّبون القضية ليلاً في غرفة نومهم. ويتكلمون عنها خلال العشاء. ويقضون أمسيات الشتاء الكئيبة إلى جانب المدفأة يتحدثون ويتحدثون. انتابت والدي الهواجس من فكرة الموز. وأصبح الموز بالنسبة له رمزاً للهزيمة، وأقصى درجات اليأس. وعندما تؤكد له والدتي أنه ليس ضرورياً أن يعمل بائعاً

جوالاً. ينتفض ويقول «إن هذا هو المخرج الوحيد.» لقد كان يقاسي من حمى مشاعر متعارضة مثيرة للفضول.

بعد زيارة مستر ليبزاين بأسبوعين، كان والدي في الشارع مع عربة يبيع عليها «الموز اللعين».

في الليلة الأولى كسب ورقة من فئة الدولار وبعض القطع النقدية، أعطاها لوالدتي. كان وجهه رمادياً، وبدا كأنه قد هرم عشر سنوات، لقد كان رجلاً وصل إلى الحضيض.

حاولت والدتي مواساته، ولكنه ظل صامتاً لعدة أيام كمن أصابته فاجعة. لقد مات الأمل فيه. مرت شهور، سنة، ووالدي مازال يبيع الموز.

أذكر أني في أحد الأيام التقيت به وهو يجر عربته. كنت قد بعت كل جرائدي، وكنت في طريقي إلى البيت والثلج يتساقط. كان ذلك في تلك الساعة الفريدة في نيويورك، عندما يعود العمال إلى بيوتهم. كنت أمضي بين آلاف الرجال والنساء الذين ردّت إليهم صفارات المصانع حريتهم. كانت أنهار من البشر تتدفق خارجة من منطقة المصانع مارةً من خلال الجادات في طريقها إلى الإيست سايد.

التقيت بوالدي قريباً من كوبر يونيون. تعرفت عليه من بعيد، كان منحنياً يرتعش من البرد، يرتدي معطفاً بالياً. منظره المحزن جعل الدموع تقفز من عيني. عندما رآني، أضاءت وجهه ابتسامة حزينة جميلة - ابتسامة شارلي شابلن.

- ها أنتذا يا مايكي. لقد بعت إذاً كل صحفك! تعال وتناول موزة.

قدم لي واحدة. لم أقبلها. كنت في الحادية عشرة من عمري، ولكني كنت مسمماً بسوداوية الشعور البروليتاري بالمسؤولية. شعرت أنه من غير المستحسن أن أقبل الموزة، لأن عمل والدي هو بيع الموز وليس تقديمه. ظن أن تصرفي هذا كان خجلاً، وبعد أن مزح معي قليلاً، أصر وأجبرني على أكل الموزة. كانت لها رائحة القش المتعفن والثلج.

- لم تبع كثيراً من الموز اليوم يا بابا؟ - قلت بقلق.

فهز كتفيه وقال:

- ماذا أستطيع أن أفعل؟ يبدو أن الناس لا يريدون الموز.

أجل، هذه هي الحقيقة. فالعمال كانوا يمرون على الأرصفة متوجهين إلى بيوتهم وهم عابسين، يدفع بعضهم بعضاً.

أخذت السماء تظلم فوق عمارات نيويورك. وأضيئت أنوار الشوارع. أعداد لا حصر لها من الشاحنات وحافلات الترام والقطارات المعلقة كانت تتحرك محدثة قرقعة. لا أحد ولا شيء يتوقف في المدينة الكبيرة أمام الموز الذي يبيعه والدي.

قال والدي بحزن: «يتعين عليّ أن أنادي صارخاً، وأن أثير ضجة كبيرة كالباعة الآخرين، ولكن حنجرتي تؤلمني. وفوق ذلك أنا أخجل من المناداة، أشعر أني مضحك إذا ما فعلت ذلك.»

أكلت الموزة، ولكن ضميري قال لي إنه عليَّ أن أدفع ثمنها بطريقة ما. عليَّ أن أبقى وأساعد أبي.

- أنا أستطيع أن أنادي بدلاً منك يا بابا. - قلت متطوعاً.

- لا، لا، اذهب إلى البيت. لقد قمت بعملك اليوم. اذهب وأخبر والدتك أني سأرجع متأخراً.

ولكني رحت أنادي، ووالدي إلى جانبي يشجعني بقوله إنني أنادي بشكل جيد. ولكن أحداً غيره لم يلتفت إليّ. العمال يمرون إلى جانبنا دون توقف، متعبين وغير مكترثين، كجيش مهزوم محاط بأحلام منزلية. القطارات المعلقة تصر، وساعة كوبر يونيون فوقنا. والسماء قد انقلبت سوداء، والريح تصفر، والوحل يغطي أحذيتنا ويخترقها. آلاف من الوجوه المجهولة الصامتة تسير على الأرصفة المغطاة بالثلج. لم يتوقف أحد لشراء الموز. كنت أصرخ وأصرخ ولا أحد يسمع.

لم يشأ والدي أن أتابع المناداة، فقال مبتسماً ليواسيني:

- حسناً، لقد قمت بذلك على أفضل وجه يا مايكي. ولكن يبدو أن حظنا سيئ اليوم، فلنذهب إلى البيت.

كنت مغتاظاً وكدت أن أبكي. وأصررت على الاستمرار في إطلاق صرخاتي اليائسة. ولكن والدي أقنعني في النهاية بالمضي معه. كان الليل قد حل، فغطينا الموز بقطعة مشمع ومضينا نحو مرآب العربات. انطلقنا في الجادة الثانية، أحدنا إلى جانب الآخر. بدا والدي ساهماً لبعض الوقت، ثم هزَّ رأسه وتنهد قائلاً: «إنك ترى كيف هو الحال يا مايكي. إنني فاشل حتى في بيع الموز. لماذا؟ فبضاعتي جيدة، والسعر مناسب، وأنت صرخت بشكل جيد. إن كل شيء واضح: أنا رجل بلا حظ.»

توقف قليلاً ليشعل غليونه، فأخذت العربة لأدفعها. بعد ذلك أخذها من جديد وتابع تأملاته.

- انظر إليّ، عشرون سنة في أميركا ولم أزل أفقر مما كنت عليه عندما أتيت. امتلكت مشغلاً لحمالات السراويل فسرقه مني

رجل دنيء. أصبحت رئيساً للعمال في ورشة دهان فوقعت عن السقالة. والآن أبيع الموز، وحتى في هذا أفشل. إنها مسألة حظ.

تنهد وهو يأخذ نفساً من غليونه، ثم قال:

- يا إلهي، كم هي غنية أميركا! كم هو سهل جمع الثروة هنا! أنظر كم من اليهود الأغنياء هنا! لماذا كانت الأمور سهلة عليهم وصعبة علي! أنا لست سوى يهودي مسكين بلا مال.

- بابا، هناك الكثير من اليهود الذين لا يملكون المال. - قلت محاولاً مواساته.

- أعرف ذلك يا ولدي، ولكن لا تكن واحداً منهم. في هذا البلد الموت أفضل من الحياة بلا مال.. عاهدني بأن تصبح غنياً عندما تكبر يا مايكي.

- أجل يا بابا.

- آه، هذا هو أملي الوحيد الآن! الأمل الذي يجعلني سعيداً! أنا أجنبي هنا، أما أنت فأميركي! ستكون الأمور أسهل بالنسبة إليك والحظ سيكون من نصيبك في أميركا!

«أجل يا بابا» وافقت محاولاً الابتسام. ولكنني شعرت بأني عاجز أكثر منه، ولم أستطع مشاركته في تفاؤله الساذج. إن قلبي يغرق في الكآبة عندما أتذكر الماضي وأفكر في المستقبل.

الفصل الثاني والعشرون

البحث عن عمل

١

في الثانية عشرة من عمري كنت أحمل في تفكيري كثيراً من المسؤولية.

كنت طفلاً نجيباً في المدرسة العامة، وهناك نلت تشريفات كثيرة، ليس لأني كنت أدرس كثيراً، وإنما بسبب نوع من البديهة والذاكرة اللتين كنت أتمتع بهما. تخرجت قبل كثيرين من زملائي بسنة. وقد أوكلوا إليَّ إلقاء خطاب الوداع.

والداي كانا فخورين جداً بالطبع. يريدانني أن أدرس الثانوية كما يفعل «الأولاد الأذكياء». فمازال إيمانهما راسخاً بأني سأصبح طبيباً.

أما أنا فقد كنت أكثر إدراكاً من والديَّ. فقد شعرت، حتى وأنا في تلك السن، أن التعليم والدراسة رفاهية محجوزة للناس ميسوري الحال. رفضت الذهاب إلى الثانوية. أكثر من نصف الأولاد المتخرجين معي من المدرسة العامة فكروا في العمل. وأنا حزمت أمري بأن أكون واحداً منهم.

شرحت ذلك لوالدي بالأرقام: أربع سنوات في الثانوية، وبعد ذلك ست سنوات في الجامعة للحصول على شهادة الدكتوراه. المجموع: عشر سنوات من الدراسة، وآلاف الدولارات من أجل الكتب وأقساط التسجيل والأمور الأخرى. وعائلتنا مؤلفة من أربعة أفراد، وأمي لم يعد باستطاعتها العمل. فهل يستطيع والدي أن ينفق علينا جميعاً من بيع الموز خلال العشر سنوات التي ستستغرقها دراستي؟

طبعاً لا. أمي وأبي بكيا، وحاولا أن يثنياني عن عزمي. ولكني أصررت بجفاء على قراري بعدم الذهاب إلى الثانوية.

مس باري، أستاذة اللغة الإنكليزية، حاولت إقناعي أيضاً بإكمال دراستي. لقد أشفقت عليَّ. نظرت إليَّ بعينيها الزرقاوين الساهمتين، وقالت لي بجديتها كعانس:

- إنه لأمر يدعو للأسف أن تذهب للعمل في مصنع. لم أرَ قطّ إنشاءً بالإنكليزية بمستوى إنشائك يا مايكل.

- عليَّ أن أعمل يا مس باري.

ونهضت لأمضي ولكنها أوقفتني من يدي. شممتُ رائحة أزهار البنفسج الربيعية التي في مزهرية برونزية فوق مكتبها.

- انتظر، أريدك أن تعدني بأنك ستدرس في الليل. سأعطيك قائمة بالمطالعات المطلوبة في الثانوية، وهكذا تستطيع إتمام تعليمك. هل ستفعل؟

- أجل يا مس باري. - كذبت عليها.

حاولتُ أن أكون صلباً. فخلال سنوات وسنوات كانت أناي قد تغذت بالثناء الذي يأتيني من الجميع على ذكائي ونضوجي. لقد

استهوتني الكتب دائماً، كانت الكتب تجعلني أجن فرحاً، كنت أتحرق للذهاب إلى الثانوية وإلى الجامعة. وبما أنني لم أستطع، فقد احتقرت كل هذه الحماقات.

قالت مس باري بصوتها المرتجف:

- سيكون من الصعب أن تدرس في الليل، ولكن أبراهام لينكولن فعل ذلك، وكذلك فعل عظماء أميركيون آخرون.

- أجل يا مس باري.

أعطتني هدية على سبيل الوداع. مجلد مقالات إيمرسون. وكتبت اسمي واسمها والتاريخ على الصفحة الأولى.

شكرتها على الكتاب، ولكني ألقيت به تحت السرير عندما وصلت إلى البيت. لم أقرأ منه صفحة واحدة، ولم أقرأ أي كتاب آخر طوال السنوات الخمس التالية. لقد حقدت على الكتب لأنها محشوة بالكذب، وليس لها أي علاقة بالحياة.

لم يكن من السهل إيجاد عمل. أمضيت شهوراً في البحث، في صيف نيويورك الخانق. كنت أشتري صحيفة «ذي وورلد» كل صباح وأنظر إلى عروض العمل في صفحة الإعلانات: «مطلوب عملاء - مطلوب حلاقين - مطلوب جزارين - مطلوب خياطين...»

صفحة الإعلانات المشؤومة تلك، تأتي كل صباح بأخبار حياة أو موت لمئات آلاف الناس. كم من المرات قرأتها بقلب تأكله الحسرة. حتى هذا اليوم مازالت رؤية هذه الصفحة تذكرني بالألم واليأس اللذين عانيتهما في شبابي.

دائماً هناك أمواج من الصبيان يتدافعون وينبحون ككلاب

متشردة على باب كل موقع عمل. وأنا كنت أتنافس معهم. كنا نمضي بتذلل كالعبيد منتظرين ما يقرره رب العمل.

ما من إنسان يقاسي ذل وعار البحث عن عمل إلا ويبقى موسوماً مدى الحياة. لقد أثار هذا الوضع اشمئزازي دائماً. لا يمكن أن تكون هناك حرية في العالم مادام هناك رجال يتسولون للحصول على عمل.

كنت أستيقظ كل صباح في السادسة والنصف، وفي السابعة أكون في الشارع. دائماً هنالك مئات الأعمال الشاغرة، ولكن في الوقت ذاته هناك آلاف المتلهفين للعمل. كانت المدينة تعج بهؤلاء الشبان الهائمين والمشوشين، والجائعين للحصول على عمل مثلما كنت أنا.

عملت كصبي في مشغل للأقمشة، ولكن لفترة قصيرة. ففي الصباح نفسه الذي بدأت فيه العمل انتبه المدير، وهو اسكندنافي متعصب، إلى كوني يهودياً، فطردني بلطف. إنه لا يريد يهودياً. في مدينة المليون يهودي هذه، تُمارس اللاسامية في الشركات التجارية الكبرى. وكثير من إعلانات العمل كانت تقول «لا يقبل اليهود». وحتى الشركات اليهودية كانت تعامل اليهود بعنصرية. كم من المرات كان عليَّ أن أترك العمل في مصنع أو في مكتب لأن رئيس العمال لا يسمح بوجود يهود. كم من المرات ذكروني بأني من العرق الملعون، العرق الذي كانت مصيبته الكبرى أنه أنجب مسيحاً.

وأخيراً وجدت عملاً في مصنع لإنتاج الأكياس المتوهجة التي تستعمل في مصابيح الغاز. وهو عبارة عن عليَّة مظلمة تحت القطارات المعلقة في منطقة بويري بجانب كاثام سكوير.

لقد كان أشبه بحجرة جهنمية مسممة بانبعاثات مئات شعلات الغاز. ويعبق المكان بروائح المخلفات الكيماوية.

بدأتُ أتعرق في الحال. والأسوأ من ذلك أنه لم أعد أستطيع التنفس. ذلك المكان صار يسبب لي الرعب. اقترب مني رب العمل وطلب مني أن اخلع سترتي. كان رجلاً صغيراً، منفوخاً كبرميل، ويلبس قميصاً حريرياً وردياً صارخ اللون، ويمضغ سيجاراً. له وجه مريض وقاس، كوجه أزعر يهودي.

استدعى رب العمل أحد الصبيان قائلاً: «يا وجه السعدان، علِّم هذا الولد ما عليه أن يفعل.»

اقترب مني صبي إيطالي كبير، يلبس سروالاً وقميصاً داخلياً مشبعيْن بالعرق. أنفه الغائر كأنف قرد، وعيناه الصغيرتان الماكرتان أكسبتاه اللقب المناسب.

- تعال هنا يا ولد.

تبعته عبر المحل. هناك ثلاثون كائن بشري تعيس يعملون حول منضدة وهم يجربون أكياس الإنارة الصغيرة. وجوههم البيضاء ثابتة كأنها أقنعة الموت. يضعون نظارات زرقاء كبيرة لتحمي عيونهم.

وهناك يهوديات وإيطاليات صغيرات يُغطِّسن أكياس الإضاءة في محلول كيميائي. أما الرجال فيقفون أمام مجموعة أفران صغيرة تلتهب بداخلها ستون نافورة غاز، يدخلون فيها الأكياس لإحراق الفضلات الكيماوية العالقة بها. جميع العاملين يقطرون عرقاً، وتبدو المعاناة على وجوه الجميع.

- أين اشتغلت من قبل؟ - زمجر وجه السعدان.

- هذا أول عمل لي. - لقد تركت المدرسة للتو.

- هكذا إذن؟ خرجت من المدرسة للتو، إيه! حسناً، لقد وصلت إذن إلى المكان المناسب. سينبت الشعر على صدرك. خذ، إمسك هذا.

أمسكت بالحمالة المعدنية التي قدمها لي، وأفلتها على الفور. لقد أحرقت يدي. وأخذ وجه السعدان يضحك.

- يا إبن العاهرة، إنه ساخن. - قلت صارخاً.

ألصق وجه السعدان وجهه بوجهي وقال:

- اسمع يا ميكي، سأنتزع أنفك بعضة واحدة إذا تحامقت معي، أنا رئيسك هنا!

ابتعد عني وبدأت العمل. كانوا يحضرون لي الأكياس بلا توقف وأنا أدخلها إلى الفرن الذي كان يتوهج مطلقاً الروائح. عند الظهيرة، أطلق رب العمل صافرة فجلسنا على المقاعد لمدة نصف ساعة للغداء. لم أستطع أن آكل بسبب الدوار الذي أصابني، كنت بحاجة إلى هواء، هواء، ولكن لم يكن هناك وقت لاستنشاق الهواء.

ليس هناك وقت لأي شيء سوى العمل. وفي ذلك الجحر الجهنمي كدحت وتعرقت طوال ستة أشهر. وجه السعدان كان يعذبني، وقد فقدت سبعة كيلوغرامات من وزني، وعندما كنت أنام تهاجمني كوابيس مزعجة. لقد نسيت أحلامي الجامعية. نسيت كل شيء ما عدا أكياس الإنارة.

أمي لاحظت تحوّلي فأجبرتني على ترك العمل. أنا نفسي استغربت كيف استطعت الصمود.

بقيت شهراً آخر بلا عمل، أقرأ عروض العمل في الصحف، إلى أن وجدت عملاً في جحر فئران مظلم في الجادة الثانية، كانت مطبعة صغيرة. هناك عملت خمسة أشهر أخرى إلى أن أصيبت إحدى يديّ بآلة الطباعة.

بعد ذلك جولة أخرى من البحث. ثم عملت فترة قصيرة في مخبز. ومن هناك انتقلت إلى شركة نقل. ثم إلى البريد. فإلى دكان للأقمشة.

أعمال، أعمال، كنت أمضي من عمل إلى آخر دون خطة، دون أمل. كنت واحداً من كثيرين. لقد وقعت في مصيدة الفقر كوالدي. لم أكن شيئاً، وليس لي وجهة محددة.

فكرت جدياً بالانتحار في بعض الأحيان. وفي أحيان أخرى حلمت بالذهاب إلى الغرب حيث رعاة البقر. بدأ الجنس يعذبني. تبعتُ الهوس الديني. وعلى سطح عمارتنا، على ضوء القمر، كنت أصلي للمسيح اليهودي الذي سيحرر العالم.

أعدت علاقتي بنيجر. كنت أقضي الليالي في صالة بليارد سيئة السمعة. صرت بحاجة يائسة إلى المنبهات، ومستعد لكل شيء. في الخامسة عشرة بدأت أسكر وأعربد مع عصابة نيجر.

كنت أعمل، وكان أبواي يشيخان ويزيدان حزناً. هكذا أمضينا سنوات. لا أريد أن أتذكر سنوات مراهقتي. باختصار، كنت واحداً من ملايين آخرين.

في إحدى الليالي رأيت رجلاً من الإيست سايد يقف فوق صندوق ويلقي خطاباً. كان يعلن أنه من يأس وغضب وآلام الملايين، انبثقت حركة عالمية للقضاء على الفقر.

استمعت إليه . . .

يا ثورة العمال، لقد ملأتِ رجلاً يائساً بالأمل. أنتِ المسيح الحقيقي. عند مجيئك ستدمرين الإيست سايد وتستبدلينه ببستان للروح الإنسانية.

أيتها الثورة، أنت التي أجبرتني على التفكير، على النضال والاستمرار في العيش.

يا أعظم البدايات!

- النهاية -



يهود بلا مال

مايكل غولد

يصعب الفصل، في كتابات غولد كلها، بين السيرة الذاتية والمُتخيل، ولهذا من الأفضل تصنيف كتاب (يهود بلا مال) كرواية نصف متخيلة. فالرواية مبنية في معظم أحداثها على تجارب من طفولة الكاتب، وتعدّ واحدة من أهم المواد التي توثق الحياة الأسرية في الجزء الشرقي الأسفل من مدينة نيويورك، المتعارف عليه باسم لوور إيست سايد، في مطلع القرن العشرين. ولكن (يهود بلا مال) تقدم في الوقت نفسه وصفاً فعالاً ومؤثراً وحيوياً لمعاناة الطبقة العاملة المعدومة. وتوظف الرواية مفردات الشارع العامية والصور الجارحة لتكون صرخة من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية لفقراء المجتمع الأمريكي.

ولد مايكل غولد عام 1893 في الإيست سايد، في حي مانهاتن. وأُعطي عند ولادته اسم إتزوك إسحق غارنيش. وعند إدخاله المدرسة الابتدائية جرى تعديل اسمه ليصبح إيرفينغ ثم إيروين وكان الغرض من ذلك التعديل هو التخفيف من يهودية الاسم. ومنذ العام 1921 تبنى الكاتب بصورة نهائية اسمه الأدبي «مايكل غولد»، إما تيمناً باسم ناشط ثوري حمل الاسم نفسه أو على الأرجح في محاولة منه لتجنب حملة الاعتقالات التي شنتها الحكومة الأمريكية ضد المنظمات الثورية والمنتسبين إليها فيما عُرف بظاهرة الرعب الأحمر التي سادت المشهد السياسي الأمريكي عقب الحرب العالمية الأولى. وذلك لما أحدثته الثورة الروسية عام 1917، وما تلاها من صعود الحركات الاشتراكية العالمية، ومن انقسام في المجتمع الأمريكي خلال عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن المنصرم.



للثقافة والنشر والإعلام

cover dsign by:
روز